

حَدُّ السَّكِّينِ

KNIFE EDGE



الشَّابُّ
YOUNG SHERLOCK HOLMES

شَارْلُوكْ هُولمز

أندرو لين

ANDREW LANE



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حَدَّ السَّكِّينِ

الشَّابُّ
شَارْلُوكْ هُولمز

The Young Sherlock Holmes:

KNIFE EDGE

أندرو لين

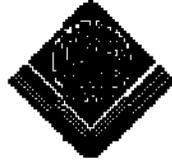
ANDREW LANE

ترجمة

سهى قاسم

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



إدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Edge Knife : Holmes Sherlock Young The

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Books Children's Macmillan

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون،
ش.م.ل.

Lane Andrew by 2013 © Copyright

All rights reserved

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ISBN: 978-614-02-2293-9

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: (1-961+) 785107 - 785108 - 786233

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: (1-961+) 786230 - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو

اللكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

تصميم الغلاف: سامح خلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

الفصل الأول

عندما كان شارلوك ينظر من مكانه المرتفع على سطح سفينة غلوريا سكوت إلى حبال السفينة التي تشق عباب المحيط الهائج وأشعتها، كانت يدها تحيطان بعقدة من الحبال المبللة بمياه البحر، وكانت ألياف القنب الخشنة تواجه خده. في تلك الأثناء، كانت النوارس تصرخ كالأطفال الجياع، وكان بإمكانه تذوق الملح على شفثيه من الرذاذ الذي يملأ الهواء. لقد عاش مع هذه الطعمة لأشهر عدة حتى الآن، وها هو اليوم يستغرب ويتساءل كيف يمكن للحياة أن تكون من دونها، ومن دون قطعة خشب السفينة المهتزة تحت قدميه، ومن دون أصوات الأشرطة التي تندفع فيها الرياح فجأة، ومن دون صيحات البحارة، وأوامر السيد لارتشمينت.

كانت السماء فوقه رمادية ومحملة بغيوم لم يحن وقت تخلصها من أوزارها بعد، وكان البحر رمادياً أيضاً. لقد اعتاد لأشهر رؤية السماء فوقه زرقاء نهاراً وسوداء مرصعة بالنجوم ليلاً، حيث كانت الأمواج تتحطم حول السفينة متألفة كالجواهر. لكن، كل شيء يبدو مختلفاً الآن. فالسماء والبحر على حدٍ سواء يتلونان بلون الدخان الذي تطلقه مداخن مصانع المناطق الصناعية الإنكليزية.

لقد أصبح على مقربة من دياره.

يقع الساحل الغربي لإيرلندا في مكان ما خلف الأفق؛ إنه المكان الأقرب لإنكلترا، حيث سترسو السفينة، وحيث خطط للترجل منها، وإيجاد طريقه إلى دياره. في الحقيقة، لم يخطط لمغادرة إنكلترا على متن غلوريا سكوت؛ فقد خطف من بين عائلته وأصدقائه، وأخفي على متن هذه السفينة من قبل منظمة سرية تدعى بارادول تشامبر. كان قد اصطدم مع المنظمة بشكل عرضي عدة مرات خلال السنتين الماضيتين، إلى حدٍ أنه جعلهم يرغبون بالتخلص منه، أو بالأحرى قاموا باختطافه لأنهم أرادوا منه القيام ببعض الأعمال لصالحهم في الصين، حيث كانت السفينة متجهة حينها، وربما للسببين معاً. وكما هو معلوم، لا تقوم منظمة بارادول تشامبر بأي عمل لسبب واحد فقط، بل إنها تقوم بوضع خطط داخل خطط أخرى، وهذه الأخيرة تكون موجودة ضمن خطط أخرى، وهلم جرأ... إن الأمور لدى هذه المنظمة معقدة بمقدار تعقيد ميكانيكية الساعة.

وفقاً للسيد لارتشمينت سترسو غلوريا سكوت في غالوي عند القنطرة الإسبانية، وستبقى هناك لعدة أيام قبل أن تتابع طريقها إلى الأنتريب،

حيث سيقومون ببيع البضائع التي جلبوها من شانغهاي محققين ربحاً وفيراً. لقد خطط شارلوك للترجل من السفينة في غالوي؛ بعد أن يتلقى أجره كأبي بحار على متن السفينة، وعندئذٍ سيتجه إلى دبلن بعد أن يجتاز مناطق واسعة عبر إيرلندا، ومن هناك سينتقل بالمعدية إلى ليفربول، ومنها سيستقل القطار إلى لندن.

ولكن، إلى أين؟ كان هذا هو السؤال الذي طرحه على نفسه مراراً وتكراراً.

سيعود إلى عربة هولمز في هامبشاير، سيعود إلى عمته وعمه؛ إن كانا لا يزالان على قيد الحياة، أو سيعود إلى عائلته الصغيرة؛ إن كان والده قد عاد من الهند، وإلى والدته؛ إن كانت قد تعافت من مرضها المتماذي، وإلى رفاقه. هل لا يزال ماتي هناك يا ترى؟ أم غادر عبر القنوات إلى حيث يمكنه أن يعيش على هواه؟ وهل رافس ستون لا يزال يعلم عزف الكمان ويتربص بالفتيات في فرانهام؟ أم إن شقيقه مايكروفت قد أرسله إلى مكان ما ليجمع المعلومات لصالح الحكومة البريطانية؟ وماذا بشأن أستاذه أميوس غروي؟ وماذا بشأن ابنته فرجينيا؟

انسلت يده إلى داخل قميصه، حيث توجد المحفظة الجلدية المتدلّية من شريط معلق حول رقبته، حيث وضع الرسالة التي أرسلتها له فرجينيا، بعد أن أعطتها لشقيقه مايكروفت ليوصلها إليه، والتي قرأها على رصيف الميناء في شانغهاي، وشعر بأن الدنيا قد أظلمت في عينيه عندما فرغ منها.

عزيزي شارلوك

هذه أصعب رسالة أكتبها، وربما هي الرسالة الأكثر صعوبة التي سوف أكتبها على الإطلاق. لقد حاولت كتابتها عدة مرات، وفي كل مرة كنت أستسلم وأتوقف عن الكتابة، ولكن شقيقك مايكروفت يزور والدي في هذه الأثناء، وأخبرني أنها فرصتي الأخيرة إن كنت أود أن أرسل لك رسالة. في الحقيقة، إنني مدينة لك ببعض الإيضاحات حول ما حدث هنا، والذي تمنيت لو أنه حدث بشكل مختلف.

لقد غادرت منذ فترة طويلة، وأخبرني شقيقك أنك قد لا تعود في القريب العاجل؛ هذا إن عدت أصلاً. إنني أعرف طريقتك في التفكير، وأعلم أنك تحب كل ما هو جديد ومثير للاهتمام، وأتوقع أن تضعك رحلتك إلى الصين أمام الكثير من الأشياء المثيرة للاهتمام. لن ألومك لثانية إن قررت البقاء في الشرق، وقررت تأسيس حياة لك هناك؛ فأنا أعرف أنك لم تخدعني، ولكنني أعلم أن علاقة مميزة كانت بيننا. لقد تشاركنا في

السنة التي أمضيها معاً الكثير من التجارب، ولقد شعرت نحوك بمشاعر لم أشعر بها تجاه غيرك طيلة حياتي، وعرفت من نظراتك إليّ أنك تكن لي المشاعر نفسها التي أكنها لك. ولكن المشكلة تتمثل في رحيلك. خلال غيابك، قام والدي بتعليم نجل أحد رجال الأعمال الأميركيين الذي يقطن بالكاد خارج غويلد فورد. التقيت الابن ذات يوم عندما أتى لزيارة والدي، وانتهى بنا المطاف ونحن نتحدث لساعات. ومنذ ذلك الحين ونحن نمضي الكثير من الوقت معاً. إنه يجيد امتطاء الخيل مثلك - إلى حدّ ما مثلك - ولكن، بالطبع أفضل مني. إنه طويل ونحيف مثلك، وأشقر الشعر، وبشرته تتلون بسرعة، وهو يجعلني أضحك على الدوام، اسمه ترافيز. ترافيز ستفنز.

إن ما أود إخبارك إياه هو أنه يريد التقدم لخطبتي ذات يوم، وبعد ذلك يريد الزواج بي. لفترة من الزمن، ضحكت من أقواله هذه، وفكرت أنه كان سيهيم بأي فتاة أميركية سيلتقيها في إنكلترا، أو بأي واحدة سيلتقيها قريباً، ولكن هذا لم يحدث. وبالفعل، بدأت أتعرّف إليه وأهيم به. كنت أعلم أنه يريدني أن أكون مسرورة ويريد الاهتمام بي. فكرت بما سيحل بي إن رفضته وانتظرت عودتك؛ ماذا سيحل بي إن عدت بعد ثلاث سنوات وكنت قد تزوجت من امرأة صينية مثلاً؟

طلبت مشورة والدي حول الموضوع، لكنه لم ينسب بنت شفة؛ فهو يفكر فيك على الدوام ويتمنى لو أنك هنا. وأظن أن أحد أسباب إقامته هنا وعدم عودته إلى أميركا هو أمله أن تعود يوماً ما وأن يعود لتدريسك. ولكنه من جهة أخرى يريدني أن أكون سعيدة وآمنة. هناك جزء منه مثلك؛ يتوق لأن يكون متفلاً من أي مسؤولية؛ حيث يكون باستطاعته امتطاء حصانه حين يريد، والتخيم تحت النجوم.

هناك فرق أساسي بينك وبين ترافيز؛ فأنا أستطيع تخيله وهو يقف حاملاً طفلاً بين يديه ويهدد له، ولكنني لا أستطيع تخيل أن مستقبلك يتسع للأولاد، أو للحياة البيئية (العائلية)، أتمنى أن تفهمني.

إنني لا أزال أرى ماتي؛ من وقت إلى آخر. إنه يمضي بضع ساعات هنا قبل أن يختفي مجدداً. أظن أن الحياة في فرانهام تناسبه، لقد اكتسب بعض الوزن منذ أن غادرت. لقد مات حصانه ألبرت، ولكن لديه الآن حصان آخر يدعى هارولد. إنه يسألني دائماً إن كنت أسمع أخباراً عنك (ماتي وليس هارولد).

أخبرني شقيقك أنه سيضم رسالتي إلى رسالته الموجهة إليك. ولكن،

ماذا لو لم يخبرك عن حاله؟! إنه مختلف عما كان عليه قبل مغادرتك؛ فهو أكثر كآبة وتشدد وانطوائية، حتى إن والدي لاحظ هذا عليه. أتمنى لو كان لدي المزيد لأخبرك إياه، ولكن الحياة تمضي هنا على الوتيرة نفسها التي كانت عليها قبل مغادرتك؛ إلا أن هناك استثناءً وحيداً حصل، وهو أنك لم تعد هنا. كم أتمنى لو أنك هنا، ولو أن الأمور تسير على خلاف ما تسير عليه... لكن الحياة وضعتنا على طريقين مختلفين. لقد كتبت بما فيه الكفاية، وإذا تابعت الكتابة فسأبدأ بالبكاء، وستغرق الرسالة بدموعي، وبالتالي لن تستطيع قراءتها. أتمنى أن تصلك هذه الرسالة وأنت بخير.

مع محبتي

فرجينيا

لاحظ شارلوك وهو يقرأ الرسالة للمرة الأولى أنها استعملت حبراً بنفسجي اللون. إنه بلون عينيها، لم يسبق له أن رأى حبراً بنفسجي اللون يباع في المكتبات؛ ربما جلبته معها من أميركا. لم يكن هناك طابع بريدي على المغلف؛ لأن الرسالة كانت مرفقة برسالة مايكروفت، وقد سلمت باليد. كانت هناك بقعتان بالقرب من اسم شارلوك على الجهة الأمامية من المغلف، وهما إن أشارتا إلى شيء فإنهما تشيران إلى أن فرجينيا كانت في الواقع تبكي عندما أنهت كتابة الرسالة.

ترافيز ستفنز، حاول أن يرسم صورة تتناسب مع هذا الاسم، ولكن من دون طائل. فأسماء الأشخاص من النادر أن تبوح بأي شيء عن مظاهرهم، والعكس صحيح. لقد تخيله شارلوك طويلاً ومفتول العضلات ووسيماً وقويماً.

تمنى شارلوك الخير لفرجينيا من كل قلبه، فكل ما ذكرته في رسالتها كان صحيحاً. لقد رحل منذ وقت طويل، ومن الممكن أن لا يعود على الإطلاق. وإن عاد، فرمما سيعود مع امرأة التقاها بعيداً. لم يكن يجدر به أن يتوقع منها انتظاره، ولكنه تمنى أن تفعل.

بدا له الساحل الإيرلندي كلطخة طويلة من الدخان قبالة الأفق. كان السيد لارتشمنت يسير على ظهر السفينة، ويصيح بأوامره على الطاقم كي يفتحوا بعض الأشرعة ويغلقوا بعضها الآخر. وعندما وصل إلى حيث كان شارلوك يجلس، توقع هذا الأخير أن يُسمعه سيلاً من الشتائم؛ لأنه لم يكن يمد يد العون للباقيين ويهب لمساعدتهم، لكنه نظر إلى شارلوك بعينيه الزرقاوين باهتتي اللون وخاطبه قائلاً: "لا يمكن للبحار أن يترك البحر".

توقف قليلاً قبل أن يتابع وهو لا يزال يحدق إلى شارلوك: "يا بني، دعني أخبرك عن أكبر سرّ في حياة البحارة؛ لن يكون بإمكان البحار العودة يوماً إلى دياره، لأن المكان الذي يفكر بالعودة إليه لن يكون المكان ذاته الذي يتذكره، وذلك لسببين. الأول، لأنه هو شخصياً قد تغيّر. أما السبب الثاني فهو أن المكان بدوره قد تغيّر. ولكنني أود أن أضيف سبباً آخر أكثر أهمية؛ وهو أن الذاكرة عندما تعود بك إلى الورا، فهي تعود على شكل ومضات، ولا يكون بوسعك تذكر التفاصيل. ولهذا، لا يغادر البحارة البحر؛ لأنه المكان الوحيد الذي يذهبون إليه المرة تلو الأخرى من دون أن يتغير. يا بني، إنني أتذكر المرة الأولى التي أبحرت فيها، وكنت قد تزوجت قبل فترة قصيرة من مغادرتي. ولما عدت بعد أكثر من سنة، لم أتمكن من التعرف إلى زوجتي، وهي بدورها لم تتمكن من التعرف إليّ على رصيف الميناء؛ فقد كنا بمثابة غريبين عن بعضنا بعضاً".

ظل شارلوك جالساً في مكانه لفترة من الزمن؛ حتى بدأ خط رفيع ورمادي يظهر في الأفق. بدا لوهلة كالموج، ولكنه أكبر من الأمواج العادية، وسرعان ما كشف هذا الخط الرمادي عن ذاته؛ إنه سلسلة من التلال. صرخ السيد لارتشمنت على البحارة المنتشرين على سطح السفينة، لتشذيب الشراع، وتغيير اتجاه الدفة خمس درجات نحو الجنوب. حينها، هب شارلوك لمساعدة البحارة على ربط الأشرعة بالصواري، ولإبقاء الأشرعة تحت السيطرة. أصدرت ألواح السفينة الخشبية الرطبة صريراً فيما كانت السفينة تتجه إلى حيث أشار القبطان إلى أنه خليج غالاوي.

بدأت اليابسة أقرب شيئاً فشيئاً. وأخيراً، مرت السفينة أمام التلال التي كانت إلى يمينها. في العادة، عندما تصل غلوريا سكوت إلى ميناء، يكون البحارة سعداء، ويتشوقون للمرح الذي ينتظرهم على اليابسة. ولكنهم بدوا الآن كئيبين؛ ربما كان هذا بتأثير الطقس، أو ربما بتأثير منظر اليابسة الكئيب.

رأى شارلوك رصيف الميناء وبيوت غالاوي الحجرية، كما شاهد أناساً يتجولون في الجوار. كانت عدة سفن أخرى قد رست في حوض الميناء، وتركت مساحة كافية لكي ترسو غلوريا سكوت بكل سهولة. ولكن، بالرغم من ذلك، استغرق رسو السفينة ما يربو عن الساعة، واستحث الناس الخطى عند رصيف الميناء؛ من عمال الرصيف والغوغائيين الحمقى والتجار التواقين إلى حصولهم على حق أو حصة في إعادة تموين السفينة، بالإضافة إلى نساء ورجال كانوا يعرضون على البحارة خدمات الإقامة في المدينة. في

تلك الأثناء، كانت الحبال قد رميت من السفينة باتجاه اليابسة، وربطت بأعمدة تثبيت السفينة.

لقد أصبح شارلوك في الديار، أو قريباً جداً منها.

كانت هناك عربة مغطاة تنتظر عند رصيف الميناء. استطاع شارلوك أن يتبين في داخلها خيال رجل يعتمر قبعة، وقد كان الرجل يحدق باتجاه السفينة. ربما كان أحد المسؤولين في الميناء ينتظر الربان تولوي ليزوده بالمعلومات الرسمية عن السفينة. وكان الحوذي يجلس في أعلى الجهة الأمامية من العربة، ويلف نفسه بملاءة. وبدا وكأنه غاف.

مرت ساعة أخرى أو نحو ذلك والجميع يتأكدون من أن كل شيء على غلوريا سكوت مربوط ومشدود ومغطى بالقماش المشمع. ألقى شارلوك نظرة باتجاه أحد الأشخاص الذين يعبرون المعبر الخشبي الذي يصل اليابسة بالسفينة، ونظر إلى العربة المغطاة. كان بابها لا يزال مغلقاً، وكان الرجل الذي يعتمر القبعة لا يزال ظاهراً داخلها. شعر شارلوك بالقشعريرة تسري في ظهره، وتراجع إلى الوراء، واستغرقه الأمر لحظة لكي يستشف الأفكار العشوائية التي تصارعت في ذهنه. ربما كان الراكب في العربة المغطاة أحد العاملين لحساب بارادول تشامبر، وقد أرسل للتأكد من أنه لم يعد من بحر جنوب الصين حياً. حسناً، إن كان الأمر على هذا النحو فعليه الغطس من الجهة اليمنى للسفينة ومحاولة السباحة. عاد إلى عمله، ولكن طاقم السفينة كان قد أنهى أعماله الأخيرة، وكل فرد من الطاقم يتوق بجلاء للنزول منها ولفعل ما يقوم به البحارة عادة ويشعرهم بالبهجة والحيوية. أعطى السيد لارتشمنت أفراد الطاقم المصطفين في طابور الدفعة الأخيرة من مستحقاتهم.

سار شارلوك فوق المعبر الخشبي، وكان يشعر بعدم ثبات قدميه على اليابسة؛ وهو شعور يختبره كل من أمضى وقتاً على السفينة التي تهتز وسط البحر؛ شأنه شأن سائر البحارة.

ما إن اقترب شارلوك من العربة المغطاة حتى أومأت له يد من نافذة العربة، فاقرب من تلك اليد، وتأكد أن عقاب بارادول تشامبر قد اقترب.

لم يكن من في العربة أحد رجال بارادول تشامبر. وبفضل انعكاس ضوء الشمس على سطح الماء ومنه إلى داخل العربة، استطاع أن يرى شخصاً رياناً يحدق إلى الأسفل نحوه من خلال عتمة العربة.

قال الرجل الجالس في العربة: " مرحباً شارلوك ". كان صوته عميقاً

وذا رنين مألوف بالنسبة إليه.

رد شارلوك: "مرحباً مايكروفت". وحاول أن يكتم المشاعر التي تعتمل في صدره. "لم يكن يفترض بك أن تجهد نفسك بملاقاتي هنا". هزّ مايكروفت هولمز كتفيه بلا مبالاة، وتحرك جسده السمين في العتمة وقال: "شعرت أن واجبي الأخوي يفرض عليّ ذلك؛ بالرغم من أن تركي لندن جعلني أبدو كالسلطعون الذي قام أحدهم بنزع صدفته وتركه يسير والنوارس الجائعة تحلق فوقه. لقد أردت أن أحميك من المصاعب التي قد تواجهها في طريق عودتك إلى الديار".

أضاف شارلوك: "كما أردت أن تتأكد من أنني عدت فعلاً، بدلاً من أن أبقى على متن غلوريا سكوت وأتابع حياتي الخاصة بعيداً عنكم". قال له مايكروفت: "إنك راجح العقل يا شارلوك، أو كنت راجح العقل قبل أن تمتطي البحر. لقد كرسست مهاراتك الذهنية من أجل حفظ منعطفات البحار، بالإضافة إلى أنواع العقد التي يفترض بالبحار إتقانها". ابتسم له شارلوك وقال: "هناك مقدار هائل من المعلومات التي يفترض بالبحار معرفتها. صحيح أنه يفترض به تعلم الكثير من العقد وإتقانها، ومعرفة الكثير عن المنعطفات، ولكن يفترض به أيضاً أن يتعلم كيفية توقع حالة الطقس من مجرد النظر إلى السماء أو تصرفات الطيور. كذلك يفترض به أن يلم إماماً سطحياً باللغات؛ حتى يتمكن من القيام ببعض الأمور على اليابسة في الموانئ التي ترسو سفينته فيها. كما يفترض به امتلاك مهارات المساومة حتى يتمكن من بيع السلع وشرائها، ويفترض به أن يعلم شيئاً عن الأدوية وكيفية استعمالها؛ حتى يتمكن من معالجة بعض الإصابات الفطرية والجروح والحروق والاضطرابات الهضمية وداء الاسقربوط". توقف قليلاً، ثم قال لشقيقه: "بالإضافة إلى العقد والربطات التي ذكرتها".

هنا قال له شقيقه: "أيمكنك الصعود إلى العربة الآن؟ إنني أشعر بألم في رقبتني بسبب تحديتي إليك من هذا العلو". سار شارلوك بموازاة العربة، واستدار لاحقاً إلى الجهة الأخرى. في هذه الأثناء، كان البحارة ينظرون إليه بفضول. من المؤكد أنهم كانوا يتساءلون عن العمل المهم الذي قام به حتى تكون عربة كهذه بانتظاره.

لم تكن الأحصنة مرهقة، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أنها لم تسافر من مكان بعيد. تقع غالوي إلى الغرب من إيرلندا، وهذا يعني أن مايكروفت قد استقل إحدى السفن التي التفت حول الساحل بأكمله، أو استقل إحدى السفن من إنكلترا إلى دبلن، ثم أكمل طريقه إلى هنا

بالعربة. ولكن، بما أن الأحصنة لم تكن متعبة، فهذا يعني أنه قدم ربما من مكان قريب. مرت هذه الأفكار في رأس شارلوك في غضون ثانية. وفيما كان يحاول الوصول إلى خلاصة، نظر إلى الحوذي، ولكن عينيه المغمضتين كانتا كل ما استطاع رؤيته منه. وما إن دخل العربة، واعتادت عيناه العتمة فيها حتى دقق النظر إلى شقيقه ومظهره. كان وجهه مألوفاً كما اعتاده، ولكن السمنة بدت جلية عليه؛ إلى حدّ أنه لم يستطع رؤية وجنتيه الغائرتين تحت طبقات سميكة من الدهن. كان يتكئ على عصا من خشب الأبنوس الأسود، وكان مقبض العصا مغطى بالفضة. لقد كانت العصا أخن من أي عصا شاهدها قبلاً. ولكنه لم يستغرب، لأن ما رآه بأم عينه من سمنة شقيقه يحتاج إلى عصا كهذه كي لا تتحطم تحت ثقل وزنه. لقد استشف من خلال النظر إلى شقيقه ما كان يريد أن يعلمه عما طرأ من تطورات على وضع شقيقه الصحي في العام المنصرم.

سأل شارلوك شقيقه قائلاً: "تبدو بصحة جيدة".

فردّ عليه مايكروفت: "أخشى أن يكون داء النقرس قد بدأ بالتفاقم في قدمي اليمنى، كما أظن أن بصري يضعف إلى درجة أنني سأضطر عما قريب إلى الاستعانة بنظارة؛ أو على الأقل بعدسة مكبرة وحيدة البؤرة". ثم نظر إلى شقيقه متفحصاً إياه من الأعلى إلى الأسفل وقال له: "لقد أصبحت عضلاتك بارزة؛ وهو ما لم أكن أتوقع أن يحدث. ويبدو أن تعرضك المطول للشمس قد سلب عينيك بعضاً من بريقهما، كما أن شعرك المسترسل لم يعد يتلاءم مع ما هو سائد في هذه الأيام بين الشباب الذين في مثل سنك. لا أظن أنك بدأت بحلاقة لحيتك، ولكنني أظن أن شاربك سيخط عما قريب". وتابع بعد أن صمت قليلاً: "لقد بحثت عن أثرك في العديد من السفن من دكاكر إلى بورنيو وشانغهاي. تشي بشرتك الخشنة أن القبطان قد فرض عليك العمل على متن السفينة. كما أن نمو عضلاتك يشير إلى أنك كنت تتسلق كثيراً، فضلاً عن التغيير البادي على قوامك، والذي يشير إلى أنك كنت تقوم بأنشطة أخرى". أرجع مايكروفت رأسه إلى الخلف وأماله جانباً. "أظن أنك كنت تمارس الجمباز أو إحدى الرياضات القتالية كالكاراتيه والتيكوندو".

فأجابه شارلوك قائلاً: "التاي تشي".

فرد عليه مايكروفت: "ربما سبق لي أن سمعت عنها". ثم أردف قائلاً: "أما زلت تتمرن على تلك الآلة السيئة؛ أقصد الكمان؟ لا أظنك قد تركتها في عربة العائلة، أليس كذلك؟". هز مايكروفت رأسه فارتج الدهن الذي

يحيط برقبتة كما ترتج المهلبية. تابع مايكروفت قائلاً: "أتمنى أن لا تكون قد وشتت جسدك خلال سفرك؛ فأنا أجد أن تشويه الجسد بالوشوم التي لا يستطيع المرء التخلص منها لاحقاً أمر مقزز".

أجابه شارلوك: "لا تقلق يا شقيقي. لم أضع أي وشوم، كما أن صحتي بأحسن حال".

فقال مايكروفت مسروراً: "إنه لمن دواعي سروري أن أسمع هذا". فجأة، وضع يده على ركة شقيقه وسأله مجدداً: "أأنت واثق أنك بخير؟".

فرد عليه شارلوك قائلاً: "ما هي الجملة التي يقولها الأطباء عندما يريدون أن يبعثوا الاطمئنان في نفوس أقرباء المريض؟ إنه جيد أكثر مما تتوقع، أليس كذلك؟ اطمئن، لقد نجوت".

فرد عليه مايكروفت: "يبدو أنك لا تزال كما كنت قبل أن تغادر، لم يطرأ عليك أي تغيير".

فقال شارلوك: "ربما لو بقيت معكم لكنت قد تغيرت. فهناك لم يتغير شيء، أو تغير بطريقة لا تشتهيها سفني". كان يشير في عبارته هذه إلى ما حدث مع فرجينيا.

فأجابه مايكروفت: "ربما وصلتك واحدة أو أكثر من رسائلها".

نظر شارلوك بشكل خاطف عبر النافذة إلى الخارج؛ حتى لا يرى مايكروفت الدموع تتفرق في عينيه.

قال مايكروفت مبدلاً الموضوع: "قبل أن تسألني عن والدك، أود أن أعلمك أنه لا يزال مع فوجه في الهند. أما والدتك فحالتها مستقرة، وتبدو ضعيفة جداً، وتنام كثيراً. وأخشى أن يصدمك ما سأقوله عن عمك شارفولت؛ فقد سقط أرضاً وكسر يده وبضعة أضلاع، إلا أن العمة جين توليه الرعاية اللازمة. ولكن السقوط لمن هم في مثل سنه يسرع وصولهم إلى النهاية المحتومة التي تنتظرنا جميعاً؛ عاجلاً أم آجلاً".

استغرق شارلوك بضع دقائق حتى تسنى له استيعاب سيل المعلومات التي أخبره بها شقيقه، وأحس بشيء من الحزن. صحيح أنه لم تتح له فرصة التعرف إلى عمه جيداً، إلا أنه يكن له الحب. هنا سأل شارلوك شقيقه: "ماذا عنك؟ ألا تزال تقيم في وايت هول وتعمل في المكتب الخارجي؟".

أجابه شقيقه بحذر: "إنني أعيش في مكان وأعمل في آخر، وسأظل أعمل فيه حتى آخر يوم في حياتي. وعندما تضيف إلى هذين المكانين نادي

دياغيز حيث أتناول الغداء وأمضي فترة بعد الظهر، فسيكتمل بالنسبة إليك مثلث حياتي. إن هذه الأمكنة الثلاثة تشكل مثلث حياتي وتعبر عنها". نظر إلى شارلوك بعد أن صمت لهنيهة ثم قال: "يفترض بنا التحدث عن مستقبلك".

قال شارلوك: "لا أظن أن مستقبلي متبلور بعد. إنني أراه عديم الشكل".

فأجابه مايكروفت: "يفترض بك أن تجد طريقة لتكسب المال، ويجب أن يكون لديك مكان تقيم فيه. يجب أن نفكر في كل هذا، ولكن ليس الآن يا شقيقي".

فأجابه: "أنت محق، ليس الآن".

وقف مايكروفت مستعيناً بالعصا، وضرب بها سقف العربة، وصاح بالهودي قائلاً: "عد بنا إلى الفندق".

بينما كانت العربة تسير، نظر مايكروفت إلى شقيقه وقال له: "لقد حجزت غرفتين في أحد النزل. الأسرة ليست جيدة، ولكن الطعام مقبول. أظن أنك لا تمنع الإقامة هناك ليوم أو يومين قبل العودة إلى إنكلترا". صمت قليلاً - لم يكن صوته معبراً عن شخصيته - وسأل شقيقه: "ستعود إلى إنكلترا، أليس كذلك؟".

أوماً شارلوك: "نعم، سأعود. كنت في البحر، ولا أريد أن يصبح المكوث في البحر عادة لدي". وتابع بقصد إغاضة شقيقه: "يمكنني أن أجرب الانضمام إلى السيرك؛ أعتقد أنها تجربة مثيرة".

وفيما كانت العربة تقف على الطريق، سأل شقيقه: "كيف عرفت بموعد عودة غلوريا سكوت إلى غالوي؟ أو بالأحرى، كيف عرفت أنها ستعود هنا؟".

الفصل الثاني

كانت غالاوي بلدة صغيرة ومزدحمة. شاهدا وهما جالسان في العربة واجهات المحلات والفنادق، وبعض النساء الملتحفات بالشالات، والرجال الذين يرتدون سترات سميكة ويعتمرون القبعات. كان يفترض بشارلوك أن يذكر نفسه أنه عاد إلى الديار، أو أنه بالأحرى قريب جداً منها.

بعد أن صمت مايكروفت لبعض الوقت، وكان جلياً أنه يحاول تجنب نظرات شارلوك، أخذ ينظر من نافذة العربة إلى الخارج، وبدا عليه الاستغراق في التفكير.

أخيراً، قال: "يجب أن أعترف لك بأني لم أخبرك القصة كاملة". همهم شارلوك قائلاً: "إنك تفاجئني". كان مايكروفت يعمل، ما يعني أن هناك شيئاً دفعه للقدوم إلى غالاوي، ولم يكن قدومه بقصد انتظار شقيقه.

نظر شارلوك إلى شقيقه وقد رفع حاجبه وقال: "ماذا تريد أن تقول بالتحديد؟ ذات مرة قلت لي إنك من النادر أن تقوم بعمل ما لسبب واحد؛ لأنك تعتبر القيام بعمل ما لسبب واحد نوعاً من الكسل وهدراً للوقت". تأمل شارلوك شقيقه الذي حاول أن يبقي تعبيره ثابتاً، إلا أنه فشل. حينها تابع حديثه قائلاً: "أعرف أنك تبغض السفر والترحال، وتكره تغيير روتين يومك. كنت أتوقع منك أن ترسل أحدهم لملاقتي، ربما رافس ستون". وتوقف ليفكر بكلماته قليلاً قبل أن يتابع: "في الحقيقة، غالاوي ليست ميناء معتاداً لرسو غلوريا سكوت. إنني أتذكر أن مخطط القبطان الأساسي كان الرسو في ليفربول، لكنّه بدّل مخططه فجأة. في الحقيقة، لقد رأيت أحد الزوار الإنكليز عندما رسونا في كاديز. لقد اجتمع مع القبطان في مقصورته، وبعد انتهاء الاجتماع، أخبرنا القبطان أننا سنغير وجهة سيرنا". شعر شارلوك بالغضب يعتمل في صدره، وسأل شقيقه: "أنت من طلب من القبطان تغيير مسار السفينة والرسو هنا، وبذلك يكون من الأسهل بالنسبة إليك الجمع بين عملك وملاقتي؟".

حدّق مايكروفت إلى شارلوك بصمت للحظات قبل أن يقول: "حسناً، يبدو أنك لم تفقد قدراتك الذهنية عندما نما جسدك. تحليلك صحيح. كنت أعلم أن هناك حدثاً يفترض بي أن أحضره هنا، وكنت أتتبع مسار غلوريا سكوت من خلال عملاء كنت أرسلهم إلى شتى الموانئ التي رست فيها غلوريا سكوت. وتوقعت أن تصل غلوريا سكوت إلى إنكلترا في الوقت نفسه

الذي أكون فيه في إيرلندا، ولذلك أرسلت أحد العملاء إلى القبطان في كاديز، وعرضت عليه مبلغاً من المال لكي يغيّر مسار السفينة؛ حيث ينظم الأمور ويصل إلى هنا في الوقت المحدد". رفع حاجبه عندما رأى التعبير المرتسم على وجه شقيقه وقال له: "تبدو غاضباً".

أجابه شارلوك: "نعم، إنني غاضب". وبعد أن أبعد ناظريه عن شقيقه قال: "ظننت أنك تكبّدت عناء قطع كل تلك المسافة من أجل رؤيتي، ولم أكن أتوقع منك أن تغيّر مسار السفينة ومساري - كما لو أنني حجر على رقعة الشطرنج - لأن ذلك يناسبك".

أجابه مايكروفت: "أعترف أنني لم آخذ مشاعرك بعين الاعتبار عند وضع مخططاتي. وهذا خطأ. أرجوك اقبل اعتذاري. أرجو أن تعرف أنني سعيد جداً برؤيتك، لقد كان من المريح بالنسبة إليّ أن أجمع بين أكثر من شيء واحد في مكان واحد". دمدم شارلوك بهمراً: "إنه لمن دواعي سروري أنني أتحت لك فرصة القيام بما تريده".

توقفت العربة أمام باب النزول، وأتى البواب لمساعدتهما على الترحل. قال مايكروفت: "لقد مضت عليّ عدة أيام وأنا أقيم هنا". قال ذلك وهو يحاول أن يرفع نفسه عن المقعد. عندما تحرك مايكروفت، اهتزت العربة بشدة. ثم تابع: "من حسن الحظ أننا سنغير مكان إقامتنا بعد الظهر، وسننتقل إلى كلون أرد كاسل التي تقع على الطريق الساحلي في منطقة تسمى سائل".

سأله شارلوك: "الأجل العمل؟".

أجابه شقيقه: "نعم، من أجل العمل".

عندها، قال شارلوك: "إنني أتشوق لمعرفة ماهية هذا العمل. أم يفترض بي الانتظار حتى نعود إلى إنكلترا؟".

ترجّل مايكروفت من العربة وقال له: "سأخبرك أثناء تناولنا الغداء". ما إن ارتاحت العربة من ثقل وزن مايكروفت حتى عادت إلى وضعيتها الطبيعية؛ بعد أن كانت تميل إلى جهة واحدة. تابع مايكروفت: "إنني أعدك".

ثم ألقى نظرة خاطفة على الحوذي وقال له: "لن أحتاج إليك قبل بضع ساعات. اذهب وعد إلينا في تمام الساعة الرابعة من بعد الظهر. سيكون معنا الكثير من المتاع".

نظر مايكروفت إلى شقيقه وقال له: "لا يفترض بك الحفاظ على مظهرك الذي يشي بأنك بحار إلى الأبد. لقد اتصلت بأحد الخياطين المحليين،

وسياتي بعد الغداء، وسيحضر معه عدة بذلات، بمقاسات مختلفة. لقد فكّرت في جلب ثيابك التي تركتها في العزبة، ولكنني خشيت أن تكون قد ضاقت عليك، وها أنا أرى أن خشيتي كانت في محلها". كانت هناك طاولة محجوزة لهما في المطعم، ورافقهما النادل عبر القاعة الفارغة إليها، وعندما جلسا، قال مايكروفت: "أريد الكركند". وقال لشقيقه: "أنصحك بسمك التربوت". وعندما أوماً شارلوك موافقاً، تابع مايكروفت: "وزجاجة من الشراب". عندها، قال النادل متأسفاً إن الشراب الوحيد المتوفر لديهم هو الشراب المحلي. فرد شارلوك على النادل قائلاً: "إذاً، لنجرب الشراب المحلي". همهم مايكروفت غير مسرور وقال: "وأنا مثله".

وبينما كان النادل يهم بالابتعاد قال شارلوك: "كنت أتمنى لو أن طقس إيرلندا يناسب نمو العنب. ولكن، لسوء الحظ، هذا الطقس لا يساعد سوى على نمو الفطر والبطاطا. وقد تمكن المستثمرون من صنع شراب من البطاطا أطلقوا عليه اسم بوتشين، إلا أنهم للأسف فشلوا في صنع شراب من الفطر". وتابع قائلاً: "لطالما اعتبرت أن المعيار الذي يحكم فيه على الشراب هو مدى جودته لدى استخدامه في إعداد الطعام". نظر مايكروفت إلى شقيقه وقال له: "تريد الشراب المحلي إذاً!! إنني لا أوافق على تصرفاتك. ربما تكون قد تأثرت برفاق السوء على السفينة خلال العام الماضي".

جال شارلوك بنظره في أرجاء المطعم وقال: "البحارة أناس صادقون، فهم يقولون ما يريدون قوله من دون مواربة". فتساءل مايكروفت: "على عكسي، أليس كذلك؟ أعتقد أنني أستحق هذا التقييم. هيا، أخبرني عن رحلاتك بينما ننتظر مجيء الطعام". فأجابه شارلوك: "ألم يعطك عملاؤك تقارير مفصلة عني؟ لا أعتقد أنني أريد أن أزيد شيئاً عليها؛ كي لا يظهروا بمظهر الفاشلين أمامك. إنني أتمتع بقلب رحوم وشفوق".

"شارلوك، لقد كنت في تجربة تُغير حياة الكثيرين، وأريد أن أعرف التفاصيل منك. أريد أن أعرف كل شيء". صمت قليلاً قبل أن يتابع قائلاً: "عملائي أخبروني أشياء كثيرة، ولكنني أريد التفاصيل منك".

أمضى شارلوك معظم وقت الغداء وهو يخبر شقيقه عما حصل معه من أمور في شانغهاي وغيرها من الموانئ، فيما جلس مايكروفت مصغياً. وقد قاطع شقيقه بين الفينة والأخرى، طارحاً عليه أسئلة وثيقة الصلة بالموضوع. وفي الوقت الذي أنهى فيه شارلوك سرد مغامراته ونضاله من

أجل النجاة من الموت على يد أرينيوس، همهم مايكروفت: "العواصف أمور يمكن توقعها، وكذلك داء الأسقربوط. ولكن، لم تكن لدي أي فكرة عما أخبرتني إياه؛ بالفعل كنت محظوظاً بنجاتك".

حينها، قال شارلوك: "حان دورك الآن. ماذا تفعل هنا؟ ما هو الشيء المهم الذي يفترض بنا مشاهدته في القلعة؟ هل هو نوع من الاجتماعات الدبلوماسية؟".

هز مايكروفت رأسه الضخم وسأله: "ماذا تعرف عن الروحانية؟". نظم شارلوك أفكاره وقال: "أظن أن الأمر يتعلق بأرواح الناس بعد الموت - أرواحهم إذا كنت تفضل ذلك - إنها تحيا بشكل غير مادي، ويقال إنه يمكن التواصل معها من خلال شخص حساس على نحو مناسب؛ من هنا على الأرض. أعتقد أن هذا الشخص يدعى وسيطاً. ويفترض بأرواح الموتى أن تحيا في مكان ما ليس من الضروري أن يكون الفردوس، ولكن الأكثر شيوعاً أنها تحيا في مكان ما في هذا الوجود لا يمكننا رؤيته ولا يمكن وصفه. وأعلم أن هناك وسطاء يزعمون قدرتهم على التواصل مع أرواح المشاهير أمثال شكسبير وموزارت، حيث يعطونهم مسرحيات جديدة أو مقطوعات موسيقية جديدة، وتدعى هذه الاجتماعات التي يعقدونها تحضيراً. حيث يحصل هرج ومرج وطرق على الطاولات التي تكتب على حوافها أحرف تستخدمها الأرواح - كما يُقال - على الأرجح لإيصال الرسائل".

قال مايكروفت: "تبدو متشككاً، ما السبب؟".

"من الصعب أن لا أكون متشككاً. فمنذ زمن وأنا أدرك أنه ما من إثبات مطلق بأن هؤلاء الوسطاء يستطيعون فعلاً التواصل مع الأرواح. كما أن أنواع الرسائل التي تأتي من الجهة الأخرى عامة تماماً؛ إذ يبدو الأموات سعداء في معظم الوقت. كما أنها تأتي غامضة حيال ما يفعلونه عندما لا يكونون على تواصل مع الوسطاء. وبالطبع، يجني الوسطاء الأموال الوفيرة ممن يحضرون جلسات التحضير. العملية برمتها عرضة للانتقاد، وقد يصل بنا الأمر إلى حدّ وصفها بالخداع. إنها نوع من الخداع البغيض؛ تجارة بأحزان المفجوعين الجدد بهدف جني الأموال".

ثم طرح مايكروفت سؤاله الرئيس: "أعتقد أن الأرواح تحيا بعد الموت؟".

أخيراً، قال شارلوك: "أنا أعلم أنني لا أصدق وجود الأشباح. إنني أفكر بجدية في ما حصل في أدنبره قبل سنة تقريباً، عندما قام كاهان ماكفرلين

باستخدام تقنيات مسرحية لجعل الناس يفكرون أن الأجساد التي يحركها ارتكبت جرائم بالنيابة عنه. لقد أراد بث الرعب في نفوس السكان المحليين لكي لا يعترضوا على ما يقوم به. إنني أتذكر أنني تحدثت مع ماتي بهذا الموضوع. أعتقد أن ماتي يصدّق وجود الأشباح؛ فكلما كان الأشخاص أكثر غنى أو أشد فقراً تجدهم يصدّقون الأمور التي لا تفسير لها ولا تعليل. ولكنني لست ضليعاً في ما يتعلق بالأرواح".

"إن الأشخاص المحظوظين بما يكفي لتكون لديهم أموال تكفيهم ولا تفيض عنهم يميلون إلى أن يكونوا متشككين. أما الأشخاص المحظوظون جداً أو معدومو الحظ فإنهم يبحثون عن تفسيرات خارجة عن المألوف".

"لقد أخبرني ماتي أنه شاهد في حياته بعض الأشياء التي لم يجد لها تفسيراً إلا من خلال استعادة فكرة الأشباح. إنني أقلق من الأمور البسيطة، مثل حقيقة أن بعض الناس يعتقدون بإمكانية مرور الأشباح عبر الجدران، إلا أنها لا تستطيع الهبوط عبر الطوابق أو السلام. كما أنني قلق من مقولة أن كل الأشباح تفقد صوابها بعد الموت. فكما يقال، هناك أشخاص يجيدون الحديث في الحياة، ولكن حين يموتون تبدأ أشباحهم بأقرب فرصة بالتأوه والمواء وإصدار سلسلة من الأصوات. لماذا تأتي الأشباح في الليل فقط؟ ولماذا لا تسير في ضوء النهار؟ إنها أمور غير منطقية! من وجهة نظر شخصية، عندما أموت فإن آخر شيء أريد القيام به هو أن أحوم حول المكان الذي متّ فيه من دون أي هدف سوى إفزع الناس. إن بقي مع شبحي بعد أن أموت أي شيء من شخصيتي وصفاتي، فإنني أود أن أسافر إلى أماكن لم تتح لي فرصة رؤيتها وأنا على قيد الحياة".

"مثل مركز الأرض؟".

حدق شارلوك إلى شقيقه بحيرة، فقال مايكروفت:

"من وجهة نظر منطقية، إن كانت الأشباح تستطيع العبور عبر الجدران ولا تستطيع الهبوط عبر الطوابق، فإنه يبدو من المنطقي أن تستطيع كل الأشباح الوصول إلى مركز الأرض ما دامت مقيدة بالجاذبية. ربما لهذا السبب تعلمنا الديانة المسيحية أن الجحيم أسفلنا وأن الفردوس في الأعلى".

أوماً شارلوك بشكل حازم: "الأمر برمته يستند إلى سلسلة من الأسس التي لا تتفق مع المنطق السليم".

"إذاً، هذا يجعلنا نطوي صفحة الأشباح. حسناً، ولكن ماذا بشأن ما يُقال حول أن هناك شيئاً من الإنسان يستمر حياً بعد موته؟ هل يقنعك

هذا؟ إنها مقارنة مختلفة نوعاً ما للموضوع".

"ألم يقل أحدهم ذات يوم إنه لا يمكن للطاقة أن تخلق ولا أن تفتنى؛ بالرغم من أنها تستطيع تغيير شكلها، وتستطيع الانتقال من مكان إلى آخر؟ أعتقد أنني قرأت شيئاً حول الموضوع".

"إنه عالم الفيزياء والطبيب الألماني هرمن فون هلمهولز. إنه عالم دقيق ومنهجي، وهو كسائر الألمان؛ وهذا السبب يكمن وراء إبداع مهندسيهم. ليكن الله في عوننا إن قرروا ذات يوم السيطرة على العالم؛ فعقولهم ذات الاتجاه الواحد وإصرارهم تضمن لهم النجاح".

"لو كان وعي الناس يعرف على أنه نوع من الطاقة داخل الدماغ، فعندها سيصبح هناك معنى لمفهوم أن الطاقة لا تفتنى عندما يفتنى الدماغ؛ فهي تندفق إلى مكان آخر أو تتحول إلى شكل آخر".
أدعن مايكروفت: "نقطة ممتازة".

سأله شارلوك مفتوناً: "لماذا أنت مهتم إلى هذا الحد بالموضوع؟ وما سبب وجودك هنا في غالوي؟".

"أنت تدرك أن عملي في الحكومة البريطانية يتطلب جمع المعلومات بواسطة عدد كبير من العملاء الموزعين في شتى أنحاء البلدان. إنني أصطاد هذه المعلومات كما يصطاد الصياد سمكة الأسقمري، ثم أقوم بفرزها. وفيما أنا أبحث عن السمك المختبئ، قد أجد ما هو أثنى من سمك الأسقمري. أو بتعبير آخر، فيما أنا أبحث قد أجد سمكتين أو ثلاثاً من الأسقمري، وهذا العدد من الأسقمري يبدو عديم الفائدة. ولكن عندما تضع هذه الأسماك مع الأخرى تتوضح الصورة الكبرى". عبس وتابع: "أعتقد أن استعارة الصيد والصيد لم تساعدني على شرح الموضوع. على كل حال، عملي يفشل من خلال ثلاثة أمور: التواصل والملاحظة والموت".

"أعتقد أنه يجدر بك أن تزودني بمزيد من الشرح؛ إذا لم يكن لديك مانع. ولكن، أرجوك ألا تعود إلى موضوع الصيد".

"بالطبع. التواصل مشكلة؛ لأن استخلاص المعلومات قد يستغرق من عملائي أسابيع وربما أشهراً، وقد تصل هذه المعلومات إلى مكنتي بعد فوات الأوان. إن الشخص الذي سيخترع وسيلة تواصل تتيح لشخص ما أن يتحدث مع شخص آخر في الجهة الأخرى من العالم وكأنه يجلس في الغرفة المجاورة؛ أوكد لك أنه سيصبح مليونيراً. الملاحظة مشكلة أيضاً؛ لأن لدي إحساساً بأن العملاء يهملون في الغالب فتات المعلومات لأنهم يظنون أنها غير مهمة. ولكن، في الحقيقة، لو أُتيح لي الاطلاع عليها فرمما ستقودني

إلى استنتاجات مهمة. والموت مهم، لأن عدداً كبيراً من عملائي لديهم عادة الانقطاع عني قبل أن يقدموا إليّ تقاريرهم". حدّق شارلوك إلى شقيقه مصدوماً، قبل أن يتابع مايكروفت: "لا تعتبرني قاسياً، أعرف أن لديهم من يحبهم ويفتقدهم، ولكن المشكلة أن طبيعة هذا العمل تفرض أن يعمل العديد منهم في أماكن خطيرة، ويمكن أن يلتقطوا فيها أمراضاً خطيرة وغريبة. كما أن بعضهم قد يلقي القبض عليهم وهم يستخلصون المعلومات من المباني الحكومية في العديد من عواصم العالم، وقد يقتلون في اللحظة التي يحاولون الفرار فيها، وقد يعدمون رمياً بالرصاص أو يشنقون بعد فترة قصيرة من إلقاء القبض عليهم. للأسف، إنه الخطر الذي يستتبع هذا النوع من العمل، وكلنا نعلم أنه ممكن الحدوث".

التمعت أمام عيني شارلوك صورة صديقه رافس ستون. فهو يعلم أنه كان يعمل لصالح شقيقه ولا يزال كذلك، وتساءل إن كان قد أرسل في إحدى تلك المهمات الخطيرة التي تحدث عنها شقيقه ولقي حتفه. ولكنه قرر ألا يسأل.

"أعتقد أن المعضلة هنا هي أنه عندما يموت العملاء فهل تموت معهم المعلومات التي في رؤوسهم؟".
"أعتقد أن هذا ما يحدث في الغالب".

أدرك شارلوك ما يرمي إليه شقيقه وسأل: "وإذا كانت هناك طرق للتواصل معهم بعد موتهم، فيجب أن تكون هناك طريقة لاستعادة المعلومات التي جمعوها والاستفادة منها، أليس كذلك؟". تراجع قليلاً إلى الخلف للتفكير ملياً في كل ما قاله شقيقه.

"إنني أفهم شكوكك. لم يتمكن أحد من إثبات قدرته على التواصل مع الموتى؛ باستثناء ما يحدث في الغرف سيئة الإضاءة، حيث يكون كل شخص من الموجودين موجهاً ناظريه إلى وسط الغرفة.

المشكلة هي أن الحكومة البريطانية قد اقتربت من أحد الوسطاء، وهو يقيم الآن في إيرلندا، ويدعى أمبروس ألبانو، ويدّعي قدرته على إقامة تواصل ثنائي الاتجاه. وإذا كانت مزاعمه صحيحة، وإذا أعجبت بقدراته الضخمة، واستطاعت الحكومة البريطانية السيطرة عليه أو حتى استغلاله فهذا يعني أن هذا التواصل سيمنحنا ميزة متقدمة على باقي الأمم؛ وهذا ما لن نستطيع أي أمة قلب موازينه لاحقاً".

"لذلك أنت هنا؛ لتطلع على مزاعمه".

"في الحقيقة، أنا متشكك، ورؤسائي يعلمون هذا. ولكن، عندما اعترضت

على إرسالي إلى هنا، قالوا لي إنه إن تمكن من إقناع شخص متشكك مثلي، فهذا يعني أن مزاعمه صحيحة. وأنا للأسف لا أتفق مع منطقتهم هذا".
"لم يكن بوسع هذا الوسيط السفر إلى لندن حيث كان بوسعه إقامة الدليل على مهاراته أمام حشد كبير؟".

أوما مايكروفت: "لقد طرحت هذه النقطة عليهم، إلا أنهم قالوا لي إنه احتج بشدة، وأصر على أن أقوم بتفحص مهاراته هنا في إيرلندا؛ حيث أشار إلى أنه يريد التحكم بالبيئة حيث هو معتاد على العمل. ولكن احتجاجاتي لاقت آذاناً صماء. إنه لا يسافر لأن لديه إصابة في رأسه، وهذه الإصابة مرتبطة بشكل وثيق بمهاراته. وبالرغم من أنهم يعلمون أنني أبغض السفر، وجدت نفسي مدفوعاً إلى القيام بهذه الرحلة القصيرة عبر بحر إيرلندا".

"كيف انتهى به المطاف في كلون أرد كاسل؟".

"علمت أن السير شادراتش مالك القلعة هو من يحميه ويرعاه".

"لم أسمع عنه من قبل".

"ليس هناك سبب لكي تسمع عنه. فهو لم يرث القلعة، بل تلقاها كمنحة من الأسرة الملكية لقاء خدمات قام بها لصالحهم".
"وما هو دوري في الموضوع؟".

"أنت فتى ذكي، وشديد الملاحظة، وتُعنى بالتفاصيل. إنني أقدر آراءك، وأريد أن تحتفظ بها لأجلي. كما أنك قد تحدثت فرقاً كبيراً عندما تنظر إلى ما يجري من مكان وزاوية مختلفين عن مكان تواجدي".
"هل سنبقى في القلعة؟".

"بالتأكيد. أنا متأكد من أن ضيافة السير شادراتش لا مثيل لها؛ على الأقل في غرب إيرلندا".

حدق شارلوك إلى شقيقه للحظة: "بماذا تريد أن تخرج من هذا يا مايكروفت؟ أتريد أن تتأكد إن كان هذا الوسيط قادراً على التواصل مع بعض الموتى المحددين".

"رأبي غير مهم. أريد أن أتأكد من أن قدراته غير مادية. أنا هنا لأتحقق، وتفضيلاقي الشخصية لا يفترض بها أن تؤخذ بعين الاعتبار. ولكنني شخصياً أتمنى أن لا يكون محقاً. أنا مدرك تماماً أن عدداً من عملائي قد عانوا بصمت قبل أن يموتوا، فالعديد من الأنظمة حول العالم لا تراعي المشاعر كما نفعل نحن. إنني أفضل فكرة أن الموت كان خلاصاً لهم من العذاب".

غامر شارلوك: "وهل تريد أن تتكلم معهم إن كنت تعتقد أنهم سيلومونك عما آل إليه مصيرهم".
"بالرغم من أنني أعتقد أنهم سيلوموني فأنا أظن أنني سأتكلم معهم".

هنا، توقفنا عن الكلام لبرهة. وضع النادل أمامهما طبقاً من التحلية، لكن شارلوك تذوقه بصعوبة وهو لا يزال يفكر بما تضمنه كلام شقيقه؛ إن كان من الممكن لأرواح الموتى أن تتكلم، فسيشهد العالم تحولاً جذرياً. والحديث عن التوريط والمتورطين سيكون هائلاً.

بعد أن أنهيا تناول التحلية، أخذ مايكروفت شقيقه إلى غرفته. كانت أمتعتهما قد حُزمت. وبعد لحظات من دخولهما قرع الباب، ودخل رجل أنيق الملبس، يحمل عدة بذلات وقمصان، وقدمها إلى شارلوك الذي حدق إليها بارتباك؛ فهو لم يرتد ثياباً رسمية منذ أن كان في شانغهاي، وحصل هذا منذ فترة طويلة.

اقترح عليه مايكروفت قائلاً: "جربها في الحمام. لقد طلبت منه أن يحضر لك مسبقاً عدة مجموعات من الملابس الداخلية، وقد تركتها لك على الرف في الحمام، جربها من فضلك".

عندما خرج شارلوك من الحمام، شعر أنه غريب ومقيد بهذه الملابس غير المألوفة. في هذه الأثناء، دخل رجل آخر يحمل بيديه صندوقاً كبيراً. نظر مايكروفت إلى شقيقه من الأعلى إلى الأسفل، وقال له: "لقد جلب الرجل عدة أحذية، خذ المناسب منها".

بعد دقائق، أصبح شارلوك مكتمل الهدام، أو على الأقل هذا ما اعتقده. حينها، حدق إليه مايكروفت وقال له: "لا تنسَ ربطة العنق؛ إذ يفترض بك أن ترتدي البذلة بأكملها".

عاد شارلوك إلى الحمام، وحدق إلى نفسه في المرآة؛ بدا كلوحة مرسومة. كان من الصعب عليه ترتيب نفسه بعد كل تلك الفترة التي قضاها في البحر. لم تكن للصورة التي بدت على صفحة المرآة علاقة بالصورة التي كونها عن نفسه في ذهنه.

استدعى مايكروفت الخدم لكي ينقلوا حقائبه، وأحضر حقيبة سميقة لتتنقل فيها حاجيات شقيقه القليلة. وقبل أن يغادرا الغرفة، رفع مايكروفت يده وصفح جبهته قائلاً: "يا للغباء! كدت أنسى". وانحنى فوق الجانب البعيد من السرير وجلب بصعوبة علبة مقعرة، وسلمها لشارلوك، وقال له: "ظننتك تريد أن تستعمله".

أخذ شارلوك العلبة، وفتحها بأصابع مرتعشة، ووجد بداخلها الكمان القديم الذي اشتراه من شارع محكمة توتنهام، فقال له شقيقه: "جلبته في آخر زيارة لي إلى هناك".

قال شارلوك بوداعة: "كنت أفكر فيه، شكراً لك".

نزلا السلام إلى حيث كانت العربة تنتظرهما. وفي غضون دقائق، كانت العربة تقعقع على شوارع غالوي، متجهة إلى الشمال، بموازية الساحل. وبالتدرّج، بدأت الطريق تميل إلى الأعلى، وأخذ شارلوك ينظر إلى الأسفل حيث المحيط.

لم يكن شارلوك متأكداً، ولكنه استند إلى الحجم وعدد الصواري ليتوقع أن السفينة التي رآها راسية عند رصيف الميناء هي غلوريا سكوت. أحس بألم غير مألوف، كان ألماً شديداً؛ ولكنه الآن في دياره. أحس أنه سيفتقد إلى السفينة وسيشتاق إلى طاقمها، وطمأن أن تتاح له فرصة السفر مرة أخرى.

استغرقت الرحلة من غالوي إلى كلون أرد كاسل نصف ساعة. كانت السماء رمادية، وكانت غيومها منخفضة، وغسل رذاذ خفيف الطبيعة، وبدا كل شيء شاهده شارلوك من نافذة العربة ملوناً بدرجات مختلفة من اللونين الأخضر والرمادي.

انعطفت العربة فجأة باتجاه اليسار، وظهرت صخرة بارتفاع ثماني أقدام، عرّفت عن الملكية التي تحيط بها.

قال مايكروفت: "عندما نصل اقتصد في الكلام بقدر ما تستطيع، ولكن أبق عينيك مفتوحتين وأذنيك مصغيتين. إنني مهتم جداً بمعرفة الانطباع الذي ستكونه عن الأشخاص الذين سنلتقيهم".

عندما وصلا أخيراً إلى كلون أرد كاسل، بدت له الملكية أصغر بكثير مما تخيل. كانت هناك نوافذ في الأسوار، ذات شقوب ضيقة تتيح التحديق إلى الأسفل. وكان هناك خندق يحيط بالقلعة، ويمكن اجتيازه عبر السير على جسر متحرك يعبر الخندق باتجاه قنطرة في السور.

عندما انعطفت العربة حول السور لتصعد على الجسر المتحرك، نظر شارلوك من النافذة الأخرى، فلاحظ أن الجانب الآخر من الخندق يبعد ياردات قليلة عن حافة الجرف، وخلف الجرف كانت مياه المحيط الرمادية على عمق مئات الياردات.

لقد اختلف صوت عجلات العربة عندما سارت على الخشب عما كان عليه عندما كانت تسير على الحجارة، وذلك عندما كانت تعبر الجسر

المتحرك باتجاه القنطرة. توقفت العربة لثانية، قبل أن يقفز الحوذي ويفتح لهما الباب.

كان شارلوك أول من ترجل من العربة، وساعد شقيقه على النزول. كان الهواء بارداً ومنعشاً ومفعماً برائحة البحر، والمنطقة داخل الأسوار مبلطة بحجارة كبيرة.

جال شارلوك بنظره داخل القلعة. كانت مرتبة جداً، كما تخيلها من الخارج. وكانت عبارة عن مربع تحده الأسوار، وكان هناك بناء كبير في وسط الجهة المطلّة على المحيط الأطلسي - من المحتمل أنه المبنى الرئيس - وهناك برج صغير على أحد جانبيه الأقرب.

كان باب المبنى الرئيس مفتوحاً، فاستدار شارلوك ومايكروفت لمواجهته. وبدلاً من وجود مجموعة من الدرجات التي تقود نحو الباب، لاحظ شارلوك أنه كان هناك حجر منحدر. فكّر شارلوك: كم يبدو هذا غريباً! من خلال عتمة المدخل، انبثق رجل يجلس على كرسي مدولب ثلاثي العجلات، تدفعه امرأة متجهمة تلبس سترة سوداء وصدرة رمادية وبنطالاً غريباً مقلماً. كان شعرها مرفوعاً إلى الأعلى على شكل كعكة. فكّر شارلوك قليلاً بالسيدة اغلانتين مدبرة منزل عمه وعمته، ولاحظ أن هذه المرأة تشبهها في البنية والمميزات ولكنها ليست هي. كان الرجل الجالس على الكرسي المدولب في العقد الخامس من العمر تقريباً. وكان شعره الرمادي والمجعد والكثيف مرتباً ونظيفاً، ولكن ما لفت نظر شارلوك كان الشخص الذي يقف خلفه.

ابتسم الرجل لمايكروفت وشارلوك، ثم فتح ذراعيه على وسعهما وقال: " يا لسعادي بتشريفك كلون أرد كاسل تعال، تعال! ".

لفتت الحركة في ظلال المدخل انتباه شارلوك، وتقدم الرجل الذي بدا في مثل حجمه وبنيته. كان يرتدي بذلة سوداء ويعتمر قبعة سوداء. وكان شعره طويلاً وأسود وينسدل على كتفيه. كانت عينه اليمنى زرقاء لامعة، ونظر ناحية شارلوك بفضول.

أما عينه اليسرى فكانت عبارة عن كرة زجاجية قائمة بدت متوهجة بضوء داخلي.

الفصل الثالث

قال مايكروفت وهو يسير على الحجر المائل متجهاً ناحية الباب الأمامي: "سير شادراتش. إنه لمن دواعي سروري وفخري أن ألتقيك". ثم توقف وانحنى قليلاً حتى لا يبدو فارغ الطول أمام ذلك الرجل الجالس على الكرسي المدولب، وأمسك بيد كوينتلان وتصافحا: "أنا -".

قال كوينتلان: "مايكروفت هولمز، ممثل الحكومة البريطانية. سبقتك شهرتك يا سيد هولمز. أهلاً بك في بيتي". في تلك الأثناء، ألقى السيد كوينتلان نظرة خاطفة على شارلوك، وقال: "أقترح أن يقوم رجلك بأخذ حقائبك ووضعها في غرفتك".

أوضح مايكروفت بعدوبة: "لم أحضر معي خادماً. إنه شقيقي شارلوك، ولديه قدرات تفكير منطقية، وهو مراقب نزيه، وهذا ما أجد أنه نادر وقيم في أيامنا هذه".

ردّ عليه كوينتلان قائلاً: "شقيقك مرحب به أيضاً". كان صوته عميقاً ودافئاً. نظر بسرعة من فوق كتفه باتجاه الرجل الواقف عند المدخل وقال له: "أسمح لي بالتعريف عنك يا سيد ألبانو؟". ثم تابع: "من فضلكما ادخلا، لقد أعدنا لكما طعاماً خفيفاً".

حاول شارلوك أن لا يحدق في ألبانو بالرغم من منظره اللافت، ولكن بعد أن عرّف عن الرجل بشكل رسمي، شعر أن باستطاعته أن ينظر إليه من دون أن يبدو فظاً.

كان ألبانو نحيفاً وطويلاً، وكانت بشرته بيضاء، ولكن يديه كانتا نحيلتين وكبيرتين. بدت بذلته سيئة، فقد كانت واسعة جداً عند الصدر والأوصال، لكن الكمين كانا قصيرين؛ مما جعل معصميه العظميين يبدوان للعيان. أما حاشيتا ساقي بنطاله فكانتا تتأرجحان عالياً فوق حذائه، تاركتين جوربيه باديين بوضوح. كانت القبعة التي يعتمرها عريضة الحافة وتظلل وجهه الأبيض الحليبي، وكانت البثور ذات الندب الدائرية تغطي وجهه، وتشير إلى أنه أصيب بمرض ما في طفولته. أما أسنانه فكانت نائثة إلى الأمام، فيما بدا منخراه متسعين ومندفعين نحو الخارج. وهذا ما منحه إطلالة حسان وليس إطلالة إنسان. لكن أكثر ما لفت نظر شارلوك كان عين الرجل اليسرى؛ فقد جذبته كالمغناطيس. كانت بلون الحليب المخلووط بالماء، وكانت خالية من البؤبؤ والقزحية.

لم يخطُ الرجل إلى الأمام ليصافح مايكروفت وشارلوك، وبدلاً من ذلك

أخذ يحدق بهما، وسأل شارلوك: "هل أزعجتك عيني؟".
ملاحظاً الطريقة التي كان شارلوك ينظر فيها إليه، كان صوته عالي
النبرة وغريباً؛ كمن يحاول إخراج الهواء من البالون.

قال مايكروفت مستبقاً أي كلام يمكن أن يتلفظ به شارلوك: "إنني
على ثقة بأن شقيقي لا ينظر إليك بجلافة".

قال شارلوك مخاطباً ألبانو وليس شقيقه: "يمكنني تخيل الناس وهم
يحاولون تجاهل النظر إلى عينك، أو التركيز عليها. أما أنا فكنت أحاول أن
أعرف ما حدث معك، فأنا أفترض أنه حادث".

قال مايكروفت محذراً: "شارلوك".

حينها قال ألبانو: "شقيقك يتحدث مباشرة ومن دون محاباة، وأنا
أقدر هذا. إنه محق، معظم الناس يتظاهرون عندما ينظرون إليّ أنه ما
من خطب، أو يحدقون ويتمتمون عندما يحاولون التحدث". رفع يده نحو
صدغه الأيسر وقال: "كنت أقطع الخشب بواسطة الفأس عندما طارت رقاقة
من الخشب واستقرت في عيني اليسرى، ولسوء الحظ تضررت العين.
لسنوات طويلة وضعت رقعة على عيني لكي أسترها. ولكن، عندما كنت في
أوائل العقد الثاني من عمري، قمت برحلة إلى الهند. وهناك التقيت رجلاً
حكيماً أخبرني عن حجر مميز كان بمثابة عين لأحد التماثيل في أحد المعابد
المحلية، وقال لي إنه من الشائع أن لهذا الحجر خصائص سحرية. وكان في
الماضي يستخدم للنظر خلف حجاب العالم، وإلى عوالم الوجود الأخرى. وقد
انتابنتي الهواجس من هذا الحجر. أخيراً، ومن خلال ظروف معقدة لا
مجال لذكرها الآن، أخذت الحجر، وللصدفة كان متوافقاً مع الفراغ في
عيني، وعندما عدت إلى الديار، غطيت عيني برقعة".

فسأله شارلوك: "وهل كان الرجل الحكيم محقاً؟ أقصد، هل يسمح
لك هذا الحجر بالرؤية خلف هذا العالم؟".
ردّ عليه ألبانو قائلاً: "أعتقد أنك هنا لتقرر بنفسك". وأطلق ابتسامة
ناعمة.

دمدم مايكروفت: "في الواقع، أظن أن الطعام الخفيف ضروري الآن".
أشار السير شادراتش إلى المرأة صارمة الملامح الواقفة خلفه: "ستقودكما
سيلمان إلى غرفة الطعام، حيث توجد تشكيلة من الكيك والسنادويشات
المحضرة. يجدر بي أن أخبركما أن سيلمان هي كبيرة الخدم لدي".

قال مايكروفت بعد أن رفع حاجبه: "امرأة... كبيرة الخدم! يا للغرابة!".
قال السير: "ستجد أن الكثير من الأشياء في كلون أرد كاسل تختلف

عن المؤلف. فلدي أنثى تعمل كبيرة خدم، ولدي أنثى تعمل في الحديقة، بالإضافة إلى إناث يعملن حارسات. وبخلاف ذلك، الطاهي والخادم من الذكور. إن تبديل الأمور يبعث البهجة في النفس، أليس كذلك؟".

أجابه مايكروفت بدبلوماسية: "منذ أمد بعيد ونحن لا نتوقع أن ننام على السقف بدلاً من الأرض، ولا نأكل الغداء قبل العشاء، والفقير بعد الغداء، إنني متأكد من أننا لو فعلنا ذلك فسنعتاد عليه".

صفق السيد كونتالين بكلتا يديه صارخاً: "يا الله! إنك رجل من العالم يا سيد هولمز. أظن أنك واحد من الممثلين الذين سيخطون إلى الخلف عندما يرون الترتيبات الخاصة بي".

رفع مايكروفت حاجبه بتساؤل: "هل قلت: ممثلين آخرين؟! كان لدي انطباع بأنني الممثل الوحيد هنا. هل هناك أقسام أخرى من الحكومة البريطانية لديها ممثلون هنا؟ أنا أرى أن هوم أوفيس يمكن أن يساعدنا على التواصل مع الأموات، فهم المسؤولون عن الشرطة، ولكنني أؤكد لك أنني أتفاوض بالنيابة عن كامل الحكومة البريطانية، وليس فقط بالنيابة عن فورن أوفيس".

"كل هذا مفهوم يا سيد هولمز. إنني أتحدث عن ممثلين عن أمم أخرى، وليس عن أقسام أخرى في الحكومة البريطانية".

تفاجأ مايكروفت جداً مما سمعه، وخطا خطوة إلى الخلف؛ إلى حد أنه كاد يتعثر بالحجر المائل، وقال: "سير شادراتش، كان لدي انطباع بأنه اتفاق حصري. أعني، لم تكن الحكومة البريطانية على علم بأن هناك تنافساً على مهارات السيد ألبانو الاستثنائية".

هز السير شادراتش كتفيه واستمر بالابتسام وقال: "مواهب السيد ألبانو عالية القيمة، وسنكون أحمقين إذا قيدنا أنفسنا بمزيد واحد بينما لدينا العالم بأكمله الذي قد يستفيد منه".

سأله مايكروفت: "من يوجد سوانا هنا؟".

أجابه شادراتش قائلاً: "ممثل قيصر روسيا وقد جلب معه حاشيته. وقد أرسلت كل من الإمبراطوريتين الألمانية والهنغارية ممثلين أتى كل واحد منهم على حدة... وأنا أعتقد أن الرئيس الأميركي قد بعث بممثل، ولكنه لم يصل بعد. أظنه في طريقه إلينا، وأتمنى أن يصل في الوقت المناسب قبل بدء المزاد".

ارتعد مايكروفت وسأل مستفهماً: "مزاد؟! كم هذا مبتذل!". نظر شارلوك إلى السيد ألبانو بسرعة؛ ظناً منه أن هذا الرجل شاحب البشرة

ربما يتفاعل بشكل سيئ في حال تعرض لأشعة الشمس، وإلا فلماذا يقف في شبه العتمة؟ وسأله: "وماذا بشأنك أنت يا سيد ألبانو؟ كيف تشعر وأنت ستكون موضوع مزايده كآنية من الخزف الصيني؟".

قال ألبانو بصوت رقيق إلى أبعد الحدود وهو ينزل الدرجات: "هداياي المرتقبة لديها نفع عظيم للبشرية. إنني لا أبحث عن شيء مبتذل كالنقود، فأنا أترك أمرها للسيد شادراتش، ولكنني أود أن تكون متأكداً من أنني أسعى لخير البشرية. وإن توأصنا مع العالم الآخر سيصبح لنا فهماً أفضل لكل شيء".

دمدم مايكروفت: "وأنا أفترض أن الأمة التي ستقدم العرض الأعلى ستعمل على استخدام الروحانية لجلب أكبر منفعة للجنس البشري، وستجعل...".

قال كوينتلان: "أنت تفهمنا الآن، وأنا مسرور لذلك. أرجوك ادخل، ضوء الشمس يتعب السيد ألبانو، ونحن نريد أن يكون بأفضل حال حتى يتمكن من الشرح وإقامة الدليل. سوف تحضر الحارسات أمتعتكما، وستقوم سيلمان بإيصالها إلى غرفتيكما".

دفعت السيدة سيلمان كبيرة الخدم - لم يتمكن شارلوك من حمل نفسه على التفكير فيها على أنها سيلمان فقط - الكرسي المدولب إلى داخل القلعة. أما السيد ألبانو، فانزلق إلى الظلال كما تنزلق السمكة مختبئة تحت الصخور. التفت مايكروفت ناحية شقيقه شارلوك، وهز كتفيه. "لم يكن هذا ما أردته أو توقعته". قال ذلك بهدوء. "أنا متأكد من أن دهاة الحكومة البريطانية باستطاعتهم دفع ثمن أعلى مما سيدفعه النمساويون والهنغار والألمان، ولكننا لا نعرف شيئاً عن الروس والأميركيين؛ يجب علينا سحقهم بحذر وإبقاء أعيننا مفتوحة".

دخل شارلوك خلف شقيقه إلى القلعة المظلمة، حيث شاهدا ما بدا لهما أنها قاعة حجرية كبيرة، توجد فيها بذلات مدرعة من مختلف حقبات التاريخ معلّقة على الجدران، وقد علّقت أسفل سجادات جدارية مزركشة ورؤوس أيائل محنطة. إلى اليسار، كان هناك درج يقود إلى الأعلى، ويلتف بشكل لولبي حول جدران المبنى الأربعة. وكان يحيط بشرفة كل طابق درابزين من كل الجهات، وكانت هناك مداخل مقنطرة تقود إلى الغرف. بصورة مستغربة، بدا كل درابزين أنه يمتلك قسماً مقطوعاً. كان ذلك بمثابة فجوة يمكن للناس أن يسقطوا من خلالها؛ إن لم يكونوا حذرين. وفي محاولة للحيلولة دون حصول ذلك، علّقت حبال مخملية عبر الفجوات

وربطت بخطافات، وقد استغرب شارلوك الأمر برمته. في وسط القاعة، كانت هناك آلة غريبة الشكل بدت كسقالة مصنوعة من الخشب، لها أربع قوائم عند زواياها ترتفع من الأرض باتجاه السقف، وكانت هناك عوارض أفقية ومائلة تربط بين القوائم كل بضع أقدام. توسط هذه السقالة صندوق كبير يتسع لثلاثة أشخاص أو أربعة، ويمتلك باباً زجاجياً يفتح إلى الخارج باتجاه القاعة، وكانت هناك حبال تتدلى من مجموعة بكرات نصفها مخفي في ظلال سطح القلعة وترتبط بسطح الصندوق.

"هذا هو المبنى الرئيس". أعلن كوينتلان، قاطعاً على شارلوك تأملاته: "معظم الغرف تقع في هذا القسم من القلعة، وهناك برج آخر أصغر حجماً حيث يقع جناحانا أنا والسيد ألبانو". سأله شارلوك: "وماذا بشأن الخدم؟".

بدت الحيرة على السير كوينتلان، وكأن فكرة أن خدمه كانوا يعيشون في مكان آخر عندما لا يكونون في خدمته لم تخطر بباله، ولكن سيلمان خطت إلى الأمام وقالت: "أنا وسائر الخدم لدينا غرف في أسوار القلعة، وهذه الأسوار تربط بين البرجين، وتلتف حول الجزء الخلفي من حرم القلعة.

لاحظ كوينتلان أن شارلوك ومايكروفت كانا يحدقان بالآلة الغربية، فقال باعتداد: "ربما تتساءلان عن هذا الشيء، اسمحا لي أن أشرح لكما". قال مايكروفت: "لا داعي، المبدأ واضح من خلال المعاينة. ولكن، ربما تريد أن تتوسع بسرد التفاصيل شارلوك".

افترض شارلوك أن مايكروفت يريد منه إثبات القدرات الذهنية لممثلي الحكومة البريطانية أمام السير شادراتش كوينتلان. فألقى نظرة حذرة أكثر على البنية الخشبية، ولاحظ الطريقة التي يتلاءم فيها الصندوق الخشبي بأناقة مع القوائم الخشبية الأربعة، وكيف يفتح الباب إلى الخارج باتجاه القاعة. "تبدو وكأنها تستخدم للوصول إلى الطوابق العليا من المبنى من دون الحاجة إلى استخدام الدرج. الصندوق كبير إلى حدّ أنه يتسع لعدة أشخاص، أظن أنه يرتفع بواسطة الحبال من خلال مصدر طاقة خارجية؛ يمكن أن يكون البخار أو شيئاً مثل الهواء المضغوط، كما أن نظاماً من السوائل الهيدروليكية يمكن أن يكون الحل الأمثل". التفت إلى السير كوينتلان وتابع: "أعتقد أن هذه المقصورة تستخدم لأن غرفك تقع في الطوابق العليا، ولأنك لا تستطيع استعمال الدرج".

سأل كوينتلان مختبراً إياه: "لماذا تتحدث عن هواء مضغوط أو نظام من السوائل الهيدروليكية بدلاً من البخار".

"لأن توفير البخار بشكل دائم يفترض المحافظة على احتراق دائم للفحم، وبما أن هذه الآلة لا تستخدم سوى مرات قليلة في اليوم، فهذا قد يكون مسبباً لهدر مخيف بالفحم".

صَفَّق كوينتلان بيديه وقال: "جيد جداً". بالرغم من أن نبرة صوته كانت تشير إلى استيائه من رفض ضيفيه أن يقوم بتقديم شرح لهما عن هذه الآلة الغريبة. وتابع: "إن هذه الآلة عبارة عن مصعد. وقد بنيت لي خصيصاً من قبل فريق من المهندسين الأميركيين. إنني أعتقد أن المصاعد مثل هذه تصبح يوماً بعد يوم شائعة في نيويورك. إن الهواء يبقى تحت الضغط من خلال نظام مبتكر؛ الذي يستخدم المد والجزر كمصدر للطاقة. فنحن نمتلك حركة مد وجزر ناشطة في هذه البقعة من الساحل، والجرف الذي بنيت عليه القلعة مزود بأنفاق طبيعية وأخرى حفرها العمال يستطيع الماء أن يرتفع وينخفض عبرها. والآن، إذا سمحتما لي، أود أن آخذ قسطاً من الراحة قبل أن يحين موعد العشاء".

أشارت سيلمان إلى أن غرفتي كل من مايكروفت وشارلوك تقعان في الأعلى، وقالت لهما: "من فضلكما، قوما بخدمة نفسيكما في غرفة الطعام، سأعود بعد قليل لأرشدكما إلى غرفتيكما حيث يمكنكما الاستعداد للعشاء". انحنى مايكروفت بشكل طفيف باتجاه السير كوينتلان، وقال بنعومة: "بالطبع. إنني أتشوق للتحدث معك لاحقاً، ولأقنعك أن الحكومة البريطانية سوف تحقق لك طلباتك أكثر من سائر الحكومات".

دفعت السيدة سيلمان السيد شادراتش باتجاه المصعد، فيما أوما السيد ألبانو شبه مخفي بين الظلال إلى مايكروفت وشارلوك وتبع سيده وكبيرة الخدم. فتحت السيدة سيلمان الباب إلى الخارج، ودخلت مع السيد كوينتلان. أما السيد ألبانو فانزلق بجانب الكرسي المدولب. أغلقت السيدة سيلمان الباب الزجاجي، وقامت بسحب العتلة الموجودة على جانب الصندوق. عندها، اهتز المصعد، وأصدر هسيساً صاخباً وأخذ يرتفع. نظر شارلوك إلى ما بدا له خدعة سحرية، وذكّر نفسه أن المصعد يتحرك بالكامل من خلال الطاقة الناتجة عن ضغط المياه. استمر الصندوق بالارتفاع بهدوء عابراً الشرفة الأولى والثانية، وفجأة أدرك شارلوك الغاية من الفتحات في الدرابزين التي كان قد لاحظها سابقاً. وعندما وصل المصعد إلى الطابق الثالث، سمع صوت باب يفتح، ولاحظ أن الباب الذي يواجه القاعة والذي

دخل منه السير لا يزال مغلقاً، فافترض وجود باب مقابل في الجهة الأخرى من الصندوق؛ يتيح لمن في المصعد الخروج منه.

قال مايكروفت: "أستطيع تفهم الفخر الذي يشعر به السير شادراتش تجاه صندوق الحيل هذا. ولكن هناك الكثير منه في لندن، وأنا أضغط على إدارة نادي دياغيز لتركيب واحد في النادي".

سأله شارلوك: "لماذا؟ فالنادي مؤلف من طابقين فقط".

قال مايكروفت بغضب: "صحيح، ولكن عندما يوجد مثل هذا المصعد فسأرتاح من عناء صعود الدرج في كل مرة أرغب فيها بتناول الغداء أو العشاء".

قال شارلوك عابساً: "كم هذا شائن! أتتكلم عن الطعام! هل أنت جائع؟".

وتابع: "بعد تناول الطعام سنعود إلى غالاوي، أليس كذلك؟".

"سيبدو تصرفنا فجاً إن لم نتناول بعض الطعام على الأقل. يجب عليّ تناول القليل من الطعام قبل العشاء، فهذا سيجعلني أشعر بأنني أفضل حالاً، لقد استهلكت الكثير من الطاقة اليوم".

تقدم مايكروفت باتجاه غرفة الطعام التي بدا من المؤكد أنها كانت بضعف حجم الصالة ذات السقف العالي، وكانت تتوسطها طاولة كبيرة من خشب السنديان، وبعثرت على طولها أطباق الكيك والسندويشات وغيرها من الأطايب.

لاحظ شارلوك خادماً يتقدم نحوهما، أو بالأحرى خادمة ترتدي بنطالاً وسترة ذات ذيل طويل وصدرة مقلمة. وحين اقتربت منهما كثيراً سألتهما: "هل تريدان أيها السيدان أن أجلب لكما الشاي".

همهم مايكروفت: "أعتقد ذلك". كان هناك شخص آخر يقف في الجانب الآخر من الطاولة، ويحدق إليهما باهتمام. سار حول الطاولة واقترب منهما، ومدّ يده باتجاه مايكروفت، وقال بصوت ذي نبرة عالية: "لا بد أنك ممثل الحكومة البريطانية، أنا الدكتور هولتبرنك. منذ ستة أشهر خلت كنت ممثل بروسيا، وأنا الآن ممثل الإمبراطوية الألمانية الموحدة". صافح مايكروفت يده بلطف. حدق هولتبرنك فيهما وقد أمال رأسه باتجاه إحدى كتفيه، وقال لمايكروفت: "سيد هولمز حسبما أعتقد؟".

"هل تعرفني؟".

قال هولتبرنك: "لقد سبق لي أن اطلعت على ملفك. إنه سميك ومعقد وشامل جداً".

عادت الخادمة وهي تحمل صينية وضع عليها إبريق من الشاي، وأكواب، وصحون للأكواب، وإبريق حليب. وضعت الصينية على الطاولة بالقرب منهما، وشرعت بسكب كوبين من الشاي.

سأل مايكروفت هولتزينرك: "وماذا تفعل هنا؟ أبهدف المزيدة؟".

أجابته الألماني: "العملية تتحدث عن نفسها، ولكن السؤال الذي يفترض بنا جميعاً أن نطرحه على أنفسنا هو: هل نحن نزايد على شيء حقيقي أو مجرد شيء مزيف؟".

وافقه مايكروفت الرأي وقال: "بالفعل. ولكن، كيف يمكننا أن نعرف؟ يطلب منا إنفاق مبلغ كبير من المال اعتماداً على الثقة".

"إنني أعتقد أن براهين السيد ألبانو حول قدراته الباطنية ستترك لوقت لاحق، سواء أكانت تشكل إثباتاً كافياً أم لا".

"هل اجتمعت مع سائر الممثلين؟".

أوما هولتزينرك وقال: "ممثل الإمبراطورية النمساوية الهنغارية هو السيد لويس أدولف فون وينو. إنه وقور جداً ومستقيم جداً وخير بالإحصاء حسبما أعتقد. أما الممثل الروسي فهو الكونت بيوتر اندريفيتش شوفالوف. الفوضى تعم فرنسا في الوقت الراهن بسبب تأسيس الجمهورية الثالثة، ولذلك لم يرسلوا ممثلاً عن فرنسا".

رفع مايكروفت حاجبه، وفتح شارلوك فمه ليقول: "ألا تعرف الكونت شوفالوف؟". لكن يد شقيقه اليمنى المخفية عن نظر هولتزينرك تحركت للفت انتباه شارلوك. بدا أن مايكروفت لا يريد لهولتزينرك أن يعلم أنه وممثل روسيا يعرفان بعضهما بعضاً.

عندئذ قال مايكروفت بنعومة: "اعذرننا، لقد بدأت أشعر بالوهن من شدة الجوع، وإذا لم أبدأ بتناول الطعام فوراً فلن أستطيع أن أضمن النتائج المترتبة على ذلك".

فقال له هولتزينرك: "لا يفترض بي الحيلولة بين رجل إنكليزي وطاولة الطعام". وانحنى قليلاً: "ربما نتابع حديثنا لاحقاً".

سار مايكروفت أمام شارلوك وهما متجهان إلى غرفة الطعام، وقال بهدوء: "في الواقع، أفترض أنك تعرف اسم الكونت شوفالوف؟".

"أليس هو الرجل الذي التقيناه في موسكو؟ الرجل الذي تريد بارادول تشامبر اغتياله؟".

"بالضبط. أحسست أنه ربما سيكون ميزة في صالحنا إن أخفينا عن السيد هولتزينرك معرفتنا بالكونت. شكراً لك لأنك اتبعت إرشاداتي". أخذ

مايكروفت طبقاً وسار بموازة الطاولة متفحصاً كل طبق باهتمام.
"لماذا؟".

سأله مايكروفت: "ماذا تعني بلماذا؟". أخذ شوكة، وبدأ يملأ طبقه
بشرائح من اللحم البارد، وبقطع من السمك، وتشكيلة من الخضار بصلصات
مختلفة.

"لماذا لا تريد أن يعرف السيد هولتزينر أنك والكونت شوفالوف
صديقان؟".

أجاب: "لعدة أسباب". وغرز بعض الجبن بواسطة الشوكة ووضعها في
طبقه. "أحدها أنني لا أريد أن يشتهب السيد هولتزينر بأننا والروس
ننسق معاً ضد الألمان والإمبراطورية النمساوية الهنغارية وأميركا؛ وخصوصاً
أن هذا التنسيق غير موجود فعلياً، وربما قد يتفاعل مع ذلك بطريقة غير
متوقعة. أما السبب الآخر بالطبع فهو أن معرفتي بالكونت شوفالوف يمكن
أن تعطينا فرصة التنسيق ضد الألمان، والإمبراطورية النمساوية الهنغارية
وأميركا، ولا أريد أن يباشر السيد هولتزينر العمل على تفادي هذا
التنسيق قبل حصول ذلك فعلاً. أما السبب الأهم فهو أنني لا أعلم إن
كان الكونت شوفالوف يتمنى أن يُعلم بأمر صداقتنا في هذا المقام أم لا.
أريد التحدث معه على انفراد أولاً".

سأله شارلوك: "هل كل حياتك على هذا المنوال؟".

"ماذا تقصد بسؤالك؟".

"توقعات ثنائية وثلاثية؛ ليس في ما يتعلق بالأحداث التي تدور حولك
فقط بل حول ذاتك أيضاً".

فكر مايكروفت مطوّلاً، وأخيراً قال: "صحيح، أعتقد ذلك. وهذا ما
يسمى الدبلوماسية الدولية".

ضحك شارلوك بهدوء: "لا أعتقد أنني أستطيع القيام بما تقوم به؛
فأفكاري مباشرة، وليست هناك مخططات بديلة في عالمي. أما أفكارك فهي
تدور وتلتف في كل الاتجاهات، وتتغير وفق الوقت من النهار، ودرجة
الحرارة التي تحيط بك وحركة الرياح".

التفت مايكروفت وهدق إلى شارلوك بتعاطف، وقال بهدوء: "وهذا ما
أحسدك عليه. عقلي متأثر دائماً بما يجب أن أقوم به، ولا يمكنني الفكك
من اللف والدوران، أما عقلك فأكثر بساطة وعلى النقيض مني، ولهذا أنت
أسعد مني".

قال شارلوك قبل أن تنحو المناقشة منحى شخصياً أكثر: "أعتقد أن

الكونت شوفالوف لا يسافر ولا يظهر أمام العامة؛ لأنه يخشى من أن يتعرض للاغتيال. أعتقد أنه يسافر بصحبة مرافقين على الدوام".

"كان هذا صحيحاً عندما كان يخدم في القسم الثالث؛ أي في الشرطة السرية الروسية. ولكن منصبه تغير عندما كنت في الصين؛ فهناك على الدوام أناس يدخلون وآخرون يخرجون من دائرة الأشخاص المقربين من القيصر. وهذه من سيئات البقاء في دائرته. سلطته في الوقت الراهن متضائلة. منذ فترة ليست ببعيدة، كان ثاني أهم رجل في روسيا، ولذلك لم يعد محل اهتمام بارادول تشامبر أو أي شخص آخر. أنا متأكد أنه ينام بهدوء وأمان أكثر في سريره هذه الأيام. ومع ذلك، أنا مسرور لأنني سأراه هنا؛ فهذا دليل على أنه لا يزال يعمل لصالح القيصر. صحيح أنها ليست المهمة الدبلوماسية الأكثر أهمية التي يقوم بها، ولكن من الممكن أن تصبح كذلك". نظر ناحية شارلوك: "أليست لديك نية بتناول الطعام؟".

"أريد أن أحتفظ بشهيتي للعشاء".

"كما تريد".

دخل الغرفة رجل أبيض الشعر ولديه شاربان منفوشان بالإضافة الى سبلتين. كانت ثيابه رسمية جداً. نظر بعجلة إلى شارلوك ومايكروفت، ثم الى السيد هولتزبرنك.

قال مايكروفت بنعومة: "فون ويبنو". وتحرك نحو الرجل قبل السيد هولتزبرنك وتابع: "سمعت الكثير عنك، اسمي مايكروفت هولمز...".

ألقى شارلوك نظرة إلى الطعام وهو يشعر بأنه منبؤذ، ولكنه لم يكن يشعر بالجوع. فكر لفترة وجيزة في أن ينضم إلى الحوار مع الممثل الألماني، ولكنه كان قلقاً لأنه قال بطريقة عرضية شيئاً استنكره مايكروفت. لذا، بدلاً من ذلك، عبر باب القاعة مغادراً. لم يكن هناك أحد حوله، ومر بجانب الآلة الغريبة ذات القوائم والعوارض الخشبية والحبال. كان المصعد لا يزال في الأعلى عند الطابق الثالث، حيث غادره كوينتلان.

حدّق شارلوك من بين العوارض الخشبية إلى المنطقة التي يشغلها المصعد عندما يعود إلى المستوى الأرضي؛ كانت هناك فجوة في الأرضية بعمق خمس أقدام. ثم نظر إلى الجهة السفلى من المصعد فوجد في قاعدتها شيئاً شبيهاً بمعدن نائى يساعد المصعد على التلاؤم مع مستوى الأرض التي يتوقف عندها، أما قاعدة الفجوة في الأرض فقد بدت وكأنها مصنوعة من ألواح من الخشب، ولاحظ شارلوك وجود مفصلات من جهة واحدة؛ ربما تقبع الآلة تحتها.

رفع نظره، وحدّق بالسقالة الخشبية، ولاحظ وجود لوحين معدنيين عند جانبي المصعد، كما لاحظ وجود حبال ترتفع منهما وتعبر سقف المصعد إلى السطح، ولاحظ أيضاً أنهما بمثابة موازين لثقل المصعد؛ فسحب المصعد إلى ارتفاع ثلاثة طوابق يحتاج إلى الكثير من الجهد، وهذا ما يجعل المصعد معرضاً لخطر السقوط أو فقدان توازنه. ولكن، إن كان هناك وزن مقابل في الطرف الآخر من الحبل فإن وزن المصعد يتوازن مع وزن اللوحين المعدنين، وبالتالي يخف مقدار الجهد المطلوب لرفع المصعد بأمان. فكر أنه عمل بارع؛ بالرغم من أنه لا يريد أن يستعمله على الإطلاق. كانت هناك عتلة في شقب إحدى الدعائم، وافترض شارلوك أنها تسحب من أجل إعادة المصعد إلى الأرض.

سمع صوتاً يقول: "أأنت خائف؟".

التفت إلى الخلف فوجد فتاة في مثل سنه تقريباً، وقدّر من لون بشرتها الداكنة أنها ربما تكون إحدى قريبات السير شادراتش كوينتلان؛ ربما هي ابنته.

كانت عيناها بنيتين ومفعمتين بالحرشية المحببة، وكان شعرها أسود ومجعداً.

قال شارلوك: "الخوف رد فعل طبيعي عندما يواجه المرء شيئاً غير معلوم أو لا تفسير له يملك طاقة قد تقتله أو تصيبه بجراح". بدا صوته كمن يلقي محاضرة، وكان يلحن في داخله في الوقت عينه. "ولكن، في حالتنا هذه". تابع حديثه كمن يلقي درساً: "إنها مجرد نظام بسيط من الأوزان التي تحافظ على التوازن، ولا يوجد شيء مفزع فيها؛ إنها مجرد ميكانيكية بسيطة".

"جرب قول ذلك وأنت في المصعد، فيما أنت ترتفع وتتنظر إلى الأرضية الحجرية الصلبة التي تبتعد وتبتعد كل ثانية، وأنت تسمع الحبال التي تحمل المصعد وهي تصر".

قال بهل: "صحيح. يمكنني أن أتخيل أن ذلك سيسبب لي القليل من الارتجاف في قلبي".

"هل أنت واحد من الممثلين الحكوميين؟".

أوماً وقال: "حسناً، أنا برفقة أحدهم. يمكنك القول إنني أحدهم. حسناً، لأسباب عملية يمكنك اعتباري واحداً منهم".

"من إنكلترا؟".

"نعم". حدق إليها قليلاً وقال: "وأنت ابنة السير شادراتش كوينتلان".

"تبدو واثقاً من ذلك". أمالت رأسها باتجاه إحدى كتفيها، وأخذت تتأمله، وتابعت: "أنت تتوقع أنني ابنته أليس كذلك؟".

"إنني لا أتوقع. ثقتك بنفسك تشير إلى أنك تعيشين هنا ولست زائرة مثل سائر الممثلين. وأنت لا تبدين خادمة، كما أن لون بشرتك وبنيتك العظمية شبيهان ببشرة السير شادراتش وبنيته العظمية. في حين أن سنك تشير إلى أنك ابنته أو ابنة أخته أو أخيه، فأنت لا تبدين أخته أو زوجته. وإذا كنت ابنة أخيه أو أخته فهذا يشير إلى وجود شقيق أو شقيقة للسير لم يشر أحد إلى وجودهما قبل الآن، لذلك أفترض بكل بساطة أنك ابنته".

"كما قلت، أنت تتوقع ذلك".

"هل أنت ابنته؟".

ألقت نظرة سريعة عليه، وابتسمت له قائلة: "نعم. أنا ابنته، وأدعى نيما والتهجئة هكذا ن - ي - م - ا، ولكن الجميع ينادونني نيف. نيف كوينتلان".

"كما قلت ابنته".

"إذا كنت محقاً فهذا لا ينفي حقيقة أنك بنيت رأيك على التوقع".
"إن كان هو سير وأنت ابنته، فهل هذا يعني أنك ليدي أو أنك ستصبحين كذلك بمرور الوقت؟".

هزت رأسها نافية: "بالطبع أنا لست ليدي. فلقب الليدي لا يكتسب بالوراثة، وهذا يعني أن اللقب يموت عندما يموت صاحبه. أنا مجرد فرد من عائلة السير، وسأبقى كذلك على الدوام".
ابتسم شارلوك رغماً عنه.

انحنت بشكل هازئ وقالت له: "أنت لطيف جداً".

"يجب أن أكون هكذا؛ فأنا أتحدث مع ابنة سير. كيف أصبح والدك سير؟ فهذا اللقب يمنح من قبل الملكة فيكتوريا".

"وهذا ما حصل بالفعل؛ نحن من باربودا، والدي...".

قاطعها شارلوك: "باربودا! لم يسبق لي أن سمعت بها من قبل؟".

"إنها جزيرة في البحر الكاريبي، بالقرب من انتيغوا. إنها جزء من الإمبراطورية البريطانية. هل يمكنني المتابعة؟".

"من فضلك".

"كان الناس هناك يعاملون كعبيد حتى أربعين سنة خلت؛ عندما أعتق والدي والتحق بالبحرية الأميرية. لا أعلم إن كان العبد السابق الأول

الذي التحق بالبحرية، ولكنه في الحقيقة كان من الأقلية. لقد خدم على متن سفينة تدعى أتش أم أس يوريالوس. كان ألفريد - الابن الثاني للملكة فيكتوريا - يخدم على السفينة نفسها، وحصل حادث بينما كانا على متن السفينة في عرض البحر، وقام والدي بحماية الأمير، وحافظ على حياته. وعرفاناً منه بجميل والدي، أقنع الأمير ألفريد والدته بمنح أبي لقب الفروسية". أظلم وجهها، ونظرت بعيداً عن شارلوك. "وكان ذاك الحادث سبب إصابة والدي بالشلل؛ فقد كسر ظهره، وقرر الإقامة هنا في إيرلندا؛ بالقرب من البلد الذي أحبه، والذي لم يكن جزءاً منه. قرر الإقامة في مكان حيث يكون باستطاعته رؤية البحر، وقد أهدها الأمير ألفريد هذه القلعة".

سأل شارلوك بلطف: "ووالدتك؟". ظن أنه يعرف الجواب مسبقاً. "لقد توفيت". كان صوت نيف هادئاً وتحت السيطرة. "بذات الرثة. لم يناسبها الطقس هنا، لم تكن ترغب بمغادرة بربودا، وكانت تعتقد أن شيئاً سيئاً سيحدث إن غادرت بربودا؛ وقد كانت محقة". "آسف".

"شكراً لك". نظرت إليه مجدداً، وتمكن شارلوك من رؤية الدموع تلمع في عينيها. "ماذا بشأنك؟ أمهلك عائلة؟". أشار شارلوك إلى غرفة الطعام، وقال: "شقيقي هناك في هذه الأثناء، وهو يملأ الوقت بين وجبتي الغداء والعشاء بتناول الطعام. والدنا في الهند مع الجيش البريطاني، أما والدتنا... فمريضة". نظر بعيداً عن نيف، ثم عاد ونظر إليها وتابع: "لم يقل أحد مما تعاني، ولكنني أظن أنها مصابة بداء ذات الرثة".

"أنا متأسفة". هزت كتفيها. "إنه يأخذ وقتاً، إنه مرض متمادٍ". كان هناك شيء يريد أن يسألها إياه، ولكنه لم يكن واثقاً إن كان يجدر به سؤالها عنه. ففي بعض الأحيان، يلاحظ أن الأسئلة المباشرة تترك الناس منزعجين أو مضطربين.

لاحظت نيف أنه يكافح من أجل منع نفسه من قول شيء ما فسألته: "ماذا تريد أن تقول؟ يبدو بوضوح أنك تريد أن تطرح سؤالاً". "والدك مهتم بالروحانيات؛ هل للأمر علاقة بوفاة والدتك؟".

"أعتقد ذلك. على الأقل، لم يظهر اهتماماً بما بعد الحياة عندما كانت لا تزال على قيد الحياة". توقفت قليلاً ثم تابعت: "نحن عائلة متدينة بوضوح، نسمع عن الجنة في العظات، أو نقرأ عنها في الكتاب المقدس.

ولكن، بعد موت والدتي أصبح والدي مسكوناً بهواجس الفكرة التي تتيح له التواصل معها مجدداً، وقام بزيارة العديد من الوسطاء لهذا السبب، ولكنه لم يقتنع بأي واحد منهم، ثم التقى السيد ألبانو...".
"إذاً، عمل السيد ألبانو على تحقيق تواصل بين والدك وروح والدتك؟".

"هذا ما قاله، وهذا ما قاله والدي". هزت كتفيها. "أنا لست متأكدة. كنت جزءاً من جلسات التحضير، ولكن الرسائل التي كان السيد ألبانو ينقلها من أمي كانت عامة دائماً؛ مثل قولها: إنها جيدة هناك في عالم الأرواح، أو إنها مشتاقة إلينا وترانا من هناك، والعديد من الأشياء من هذا القبيل".
"هذا أحد الأسباب التي تجعلني أمل أن الروحانية ليست حقيقية. فنحن نشاهد دائماً من قبل المئات من الأموات، وكل شيء نقوم به يبدو أنهم يطلعون عليه، كل شيء".
قالت: "أعتقد أن الأرواح نفسها لا تعود تهتم بالأشياء الأرضية بمجرد الموت".

"ولكنها تعود في جلسات الاستحضار، وتكتب الرسائل على الألواح، وتدور حول الطاولات".

قالت: "مهلاً". ورفعت يديها بشكل دفاعي. "أنا لم أزعم أنني خبيرة، ولكنني أنقل ما سمعته".

وفجأة، أصبح وجهها جدياً وقالت: "فضلاً عن أنني إن كنا نتحدث عن وجود خارق للطبيعة، فهناك أشياء أخرى أقلق بشأنها قبل أن أقلق من أرواح الموتى".

أسرت اهتمامه بما قالتها فسألها: "وما هي هذه الأشياء التي تقع على رأس قائمة ما تقلقين بشأنه؟".

فأجبت: "ماذا بشأن الدارك بيست؟".

فابتسم متشككاً: "وما هو الدارك بيست؟".

أجابته: "إنه نوع من المخلوقات البحرية التي تستطيع الوصول إلى اليابسة، وتقوم بخطف الماشية والخراف، وفي بعض الأحيان تقتل الناس أيضاً. فالملهريون الذين اعتادوا تهريب السلع عبر الساحل خافوا منها أكثر مما خافوا من رجال الضرائب".
"حقاً!؟".

حدقت إليه من دون أي أثر للابتسام.

"نعم". وقالت ببساطة. "وأنا شاهدتها".

الفصل الرابع

"هل أنت جدية؟! لا أظن ذلك". سأل شارلوك نيف: "أقصد بشأن الدارك بيست".

بعد أن أشارت نيف إلى الدارك بيست، ظهرت السيدة سيلمان في القاعة، وأعلنت أنها ستقود شارلوك ومايكروفت إلى غرفتيهما. ابتسم شارلوك لنيف، وهز كتفيه وذهب ليحضر شقيقه.

كانت غرفتهما في الطابق الثاني من القلعة، وكان يفترض بهما استخدام المصعد للوصول إليهما. ولما كان شارلوك مضغوطاً في زاوية المصعد بسبب حجم شقيقه الضخم، لاحظ وجود لوحة خشبية بجانب الباب، وكانت عليها خمسة مفاتيح. قام بربط ذهني سريع: خمسة مفاتيح ولكن هناك أربعة طوابق؛ الطابق الأرضي بالإضافة إلى ثلاثة طوابق في الأعلى، وقد كتب على المفاتيح الأربعة 1 2 3 G. ولم يكتب على المفتاح الخامس أي شيء.

سأل شارلوك السيدة سيلمان التي كانت تقوم بتشغيل المصعد: "لماذا يستخدم المفتاح الخامس؟ هل هناك طابق إضافي على سطح القلعة؟". أجابته بالنفي وهي تقوم بالضغط على المفتاح رقم 2. "إنه مفتاح الإنذار، ويستخدم في بعض الأحيان عندما يكون هناك عطل في المصعد، ويجد أحدهم نفسه محتجزاً داخله".

حينها سألتها قائلاً: "أليس من الحكمة الإشارة إلى وظيفة المفتاح وكتابة ذلك عليه؟".

"لا نريد أن يشعر أي كان بالقلق لمجرد معرفته بإمكانية أن يحدث عطل بالمصعد".

ما إن ضغطت سيلمان على المفتاح حتى تحرك المصعد وارتفع بحمولته. نظر شارلوك إلى الأسفل، وشاهد نيف تحديق إليه، فلوح لها ولوح له.

كانت غرفتهما غير بعيدتين عن القاعة، وكان هناك باب داخلي يصل بينهما. كانت أمتعة شارلوك التي اشترت في اليوم نفسه بعد الظهر مفكوكة، وكان المغطس جاهزاً. وبينما كان ينتظر أن تبرد المياه قليلاً، سار باتجاه النافذة وفتحها، فدخلت نسمة دافئة. لاحظ بالاستناد إلى خبرته البحرية أن الطقس في إيرلندا كثير التبدل، وأراد أن يتحقق من ذلك. طفلت الشمس، ولكن القمر كان على وشك أن يصبح بدرًا في السماء،

وعلى ضوءه استطاع أن يرى حافة الجرف والمحيط خلفه، وكان النسيم يدفع بالأمواج لتتحطم على الصخور، فيما كان نور القمر يجعل الأمواج تومض وتتلاألأ؛ فبدأ المشهد ساحراً. لقد مضى عليه وقت طويل لم يشاهد فيه الأمواج من الأعلى. ففي السنتين الماضيتين كان أقرب إلى الأمواج. أخيراً، سحب الستارة، وتجرد من ثيابه، ودخل حوض الاستحمام. كان الماء لا يزال حاراً، وهذا ما وجده مربكاً؛ وهو الذي أمضى قرابة السنة محاطاً بمياه تتراوح بين الباردة والدافئة. لقد كانت فكرة المياه الحارة غريبة بالنسبة إليه بعد كل هذه المدة.

بعد أن فرغ من الاستحمام، ارتدى ملابسه الخاصة بالمساء - وهي ملابس جديدة - وتفاجأ حين لاحظ أنه لا يزال يعلم كيفية عقد ربطة العنق. قُرِعَ الجرس بمجرد أن انتهى من عقد ربطة عنقه، فغادر الغرفة ليجد أن مايكروفت كان ينتظره في الممر.

قال له شقيقه بعد أن ألقى عليه نظرة متفحصة: "حسناً، هيا بنا". كانت غرفة الطعام خالية من المقبلات التي كانت موجودة فيها عندما أتيا، وقد جهزت الطاولة لعشاء رسمي. جلس السير شادراتش كوينتلان على رأس الطاولة، بينما جلس مايكروفت إلى يساره، والكونت شوفالوف الذي كان لا يزال يرتدي اللباس العسكري المنمق إلى يمينه. كان هناك شخص آخر يرتدي الثياب العسكرية؛ إنه ذلك الشخص الضخم بقصة شعره القصيرة، وذلك الظل الداكن على وجنتيه وذقنه الذي يفيد بأنه يفترض به حلاقة لحيته. إنه خادم السيد شادراتش. جلس خلف شوفالوف محديقاً إلى الجدار، وجاهزاً لتلبية أي طلبات لسيدة.

فون ووينو والسيد هولتزينك جلسا بعد مايكروفت وشوفالوف على التوالي، فيما وقف خادمان خلفهما، وهما على أتم الاستعداد لتلبية طلباتهما. أما شارلوك فكان التالي بعد ووينو الذي كان ينظر طيلة الوقت إلى السير شادراتش. وكان المقعد المقابل لشارلوك فارغاً، ومن المحتمل أنه خصص للمندوب الأميركي، فيما جلست نيف في الجهة المقابلة لوالدها. "أنا جدية جداً". أجابت عن سؤال شارلوك بينما كانت الخادمة تسكب الحساء للجميع. "هناك مسوخ".

"وأنتِ، هل رأيتها؟".

"أجل".

"في الواقع، وليس في الأحلام أو الرؤى؟".

تناول شارلوك رشفة من الحساء الذي بدا كثيفاً ولذيذاً، وسأل: "أي

نوع من الحساء هو هذا؟".

قالت نيف ببساطة: "إنه حساء السلاحف". وارتشفت منه هي أيضاً.
فقال شارلوك: "حقاً؟!". وارتشف رشفة أخرى، وتابع: "إنه حقاً لذيذ.
أهو مصنوع من سلاحف حقيقية؟".

"نعم، سلاحف حقيقية. إن أردت التحديد، والدي يستوردها".
قال: "كم هذا عالمي! أخبريني عن الدارك بيست".
حدقت إليه: "لن تقول إنني غبية لأنني أعتقد بوجود المسوخ أليس
كذلك؟".

"أنا أعلم أنك لست غبية". فكر هنيهة وتابع: "حسناً، إنها أمور
همجية. أياً يكن الأمر، أين شاهدت المسوخ؟".
"بالأسفل على الشاطئ. إنني أذهب إلى هناك كثيراً".
"بمفردك؟".

"بالطبع". حدقت إليه بتحدٍّ: "ومن يوجد هنا ليذهب معي؟".
"لا أعلم، أنا غريب هنا. هل هناك ممر يؤدي إلى الأسفل؟".
"ليس هناك ممر يمكنك أن تسلكه بسهولة، بل توجد بعض المناطق
التي يفترض بك اجتيازها، وإذا زلت قدمك، فسوف تسقط نحو الأسفل.
هناك ممر مستقيم نوعاً ما، إنني أسلكه بصعوبة مثل معزاة جبلية".
رفعت حاجبها. "ماذا بشأنك أنت؟".

فكّر شارلوك في المرات اللامتناهية التي تسلق فيها حبال أشعة غلوريا
سكوت وصواريخها، حتى وصل إلى القمة. فقال لها: "أستطيع".
"كنت في الأسفل ذات مساء. وبينما كنت أنسل خارج القلعة لمشاهدة
البحر تحت ضوء القمر - فقد كنت معتادة على ذلك في باربودا، حيث
كنت أجلس على الرمال وأشاهد الأمواج - سمعت صوت شيء يتحرك.
فكرت في البداية أنه صوت خنزير بري، ولكنني عندما التفت إلى الخلف
باتجاه الجرف..." نظرت إلى أسفل غطاء الطاولة، ولكن عينيها لم تكونا
مركزتين، وكان شارلوك يعلم أنها تستعيد ذكرى ما شاهدته. "هنالك الكثير
من الكهوف على الجرف تغطيها الأمواج، وقد اعتاد المهربون استخدامها
لتخبئة الأشياء المهربة. عندما التفت إلى الخلف، خرج من أحد تلك
الكهوف شيء ما. كان كبيراً كالدب، ولكن..." نظرت إلى شارلوك قليلاً مختبرة
مدى تفاعله، ثم عادت ونظرت إلى غطاء الطاولة مجدداً. "ولكنه كان
يمتلك أيدياً وأرجلاً أكثر من الدب".

سألها شارلوك بصوت منخفض: "كم يداً ورجلاً كان يمتلك؟".

"كان من الصعب عليّ التحديد؛ فنور القمر كان خافتاً، وكان المسخ يسير بين الظلال".
"إلى أين ذهب؟".

"كان يتحرك على الشاطئ بتثاقل وعلى غير هدى، ثم دخل كهفاً آخر. جلست مكاني من دون أن أقوم بأي حركة، وفكرت أن ما رأيته ربما يكون قطعة من الخشب الطافي أو شيئاً من هذا القبيل".
"هذا حكيم جداً". توقف هنيهة، ثم تابع: "هل تعلمين كيف تبدو الأمور؟".

"تبدو كالحلم، ولكنه لم يكن حلاًماً. انظر، أستطيع أن أقيم الدليل على ما أقوله".
"كيف؟".

"لأن الناس في المدينة يتحدثون عن المسوخ بشكل جيد. كل الصيادين يعلمون عنها، فحين تتمزق شبك أي منهم يقولون إن الدارك بيست هم من فعلوا ذلك. تكلمت مع إحدى الخادمت هنا في القلعة، وقد قالت لي إنها شاهدت في الليل مسخاً يدور خارج خندق الماء الذي يحيط بالقلعة".
أشار شارلوك إلى الخارج وقال: "من الصعب إثبات هذا".
"ولكنه يعني أنني لست الوحيدة التي شاهدت المسوخ".
"إلى أي فترة تعود هذه القصص؟".

فكرت قليلاً: "إنها تعود بوضوح إلى مئات السنين الماضية. ولكن هناك الكثير من المشاهدات الحديثة. ربما كانت هناك أمور تجعلها تغط في النوم لفترة، وربما هناك أمور تجعلها تغير أماكنها الطبيعية".

"أو ربما كان الجميع يتخيلونها، والحديث عنها جعلها مقبولة؛ فصار كل من يرى ظلاً يتحرك يحسبه مسخاً".
قالت بامتعاض: "كنت أعرف أنك لن تصدقني". وعاودت التركيز على طبق الحساء.

بعد بضع دقائق، رفع الخدم زبديات الحساء واستبدلوها بأطباق كدست فيها شرائح من لحم الطرائد، كما جلبوا أطباقاً من الخضار المطهية على البخار، وقام الضيوف بملء أظباقيهم منها.

بعد أن تناول شارلوك عدة لقمات من لحم الطرائد الناضج والطري، قال لها: "أنا آسف، أنا أصدق ما تراه عيناى فقط".

فأجابته قائلة: "ولكنك لا تستطيع أن ترى الريح أو حرارة الشمس".
نظر إليها وقال: "ولكننى أستطيع أن أرى تأثيرهما".

"يمكنك أن ترى تأثير الدارك بيست؛ لقد أرعبتني، وأرعبت السكان والصيادين أيضاً".

"لن أستطيع الخروج منتصراً من هذه المناقشة، أليس كذلك؟".
أجابته بحسم: "لن تخرج منتصراً".

أدرك شارلوك أن المتابعة في هذه المحادثة أصبحت من دون أفق وتافهة، ولكنه لم يجد طريقة ينقذ نفسه فيها من المتابعة. وكان على وشك قول شيء ما عندما صدر صوت رنين قطع عليه تفكيره. كان كوينتلان يدق على كأس شرابه بواسطة السكين.

قال بصوته الرخيم: "سادي، أود أن أشكركم جزيل الشكر لتكبدكم عناء التواجد هنا هذا المساء. إن توزعنا حول الطاولة على هذا الشكل حيث لا تتاح لي فرصة التفاعل المباشر إلا مع السيدين مايكروفت وشوفالوف لا تعني أن هناك أي تفضيلات، وترتيب الجلوس سوف يتغير عند تناولنا كل وجبة. إنه لمن دواعي سروري التحدث مع كل واحد منكم بشكل مباشر كي نتمكن من إنهاء أعمالنا". صمت وألقى نظرة على كل الأشخاص الجالسين إلى الطاولة. "كما أنني أعتذر على تغييب صديقنا الأميركي، إلا أنني متأكد من أنه سيكون هنا غداً. ولكن، بالرغم من ذلك، ليست لدي أي نية بانتظاره حتى يأتي. نحن لدينا جدول أعمال، وسنحافظ عليه. إنه لمن سوء حظه أنه يفوت على نفسه أحداث هذه الليلة، ولكنه بتأخيره هذا من سيفقد الأفضلية وليس أنتم".

أوماً كل من فون وبينو وهولتزينك إعجاباً بما قاله وتقديراً له.
تابع السير كوينتلان: "أنا متأكد من أنكم لاحظتم أن السيد ألبانو ليس موجوداً معنا الليلة على العشاء؛ فعندما علم بأنه سيتواصل مع أشخاص رفيعي المقام فضّل عدم تناول الطعام. فقد وجد أن الطعام سيؤثر في قدرته على التواصل مع الأرواح. السيد ألبانو الآن في جناحه، وهو يحضر لجلسة التحضير التي ستحصل الليلة من خلال قيامه بالاسترخاء والتأمل واستجماع قواه الذهنية. إن الغاية من جلسة هذه الليلة هي إعطاؤكم لمحة عن قدرات السيد ألبانو. إنني ألح عليكم بأن تنتبهوا وبكل ما لديكم من طاقات لما سيحدث. ولكن، لا تحاولوا التدخل ومقاطعته؛ فالأرواح تستثار من خلال الضجة وتتشوش؛ وهذا ما يغضبها. أرجوكم، ومن أجل مصلحتكم، حافظوا على الهدوء خلال جلسة التحضير".

تابع السير كوينتلان قائلاً: "إنني لن أسأل أياً منكم حول أي تعهدات مالية الليلة، فكل ما أريده من حضراتكم الليلة هو المراقبة والتفكير في ما

سوف تشاهدونه، وفي الغد سنبدأ المباحثات".
وفيما تابع الضيوف تناول الطعام، سأل شارلوك نيف: "هل هو حقاً
مقتنع بكل هذه الأشياء؟".

فأومأت له وقالت: "نعم، إنه حقاً مقتنع بها".
بعد قليل، قال السير كوينتلان: "ستقدم التحلية بعد وقت قصير،
وعندما تنتهون أقترح أن نذهب إلى غرفة الاستقبال لنحضر جلسة التحضير.
وبعد ذلك، أنصحكم بالسيجار والشراب".

لم يعد بوسع شارلوك الانتظار لكي يرى ما سيحدث في جلسة
التحضير. لحسن الحظ، كل من كان جالساً إلى الطاولة كانت لديه المشاعر
نفسها التي يشعر بها؛ فالرغبة في التواصل مع الأموات دفعت الناس إلى
الإسراع في إنهاء العشاء.

وعندما أنهى الجميع العشاء، ظهرت السيدة سيلمان خلف الكرسي
المدولب للسير شادراتش كوينتلان، وأمسكت بمقبضي الكرسي وسحبته إلى
الخلف، وناورت بالكرسي، وابتعدت به عن الطاولة.
قال: "أرجوكم، اتبعوني".

فتبعه مايكروفت هولمز، والكونت شوفالوف، وفون وينو، والسيد
هولتزينر؛ بعد أن أوماً شوفالوف إلى خادمه آذناً له بالانصراف.
ألقى شارلوك نظرة سريعة ناحية نيف وسألها: "هل ستأتين؟".
أجابته: "إنني لست مدعوة، ولكنني أرغب بمشاهدة ما سيحدث".

سار شارلوك ونيف في إثر ضيوف العشاء الآخرين. ساروا عبر القاعة،
وعبر ممر مقنطر، قبل أن يدخلوا غرفة مظلمة منارة بأنوار الشموع، وقد
غطيت النوافذ بستارة مخملية سميقة للحيلولة دون دخول أي ضوء من
الخارج. كانت هناك طاولة مستديرة موضوعة في وسط الغرفة أصغر من
طاولة الطعام. لم يكن عليها غطاء، وعلى حافتها نقش الحروف الأبجدية،
بالإضافة إلى الأرقام من 1 إلى 10 وكلمتي نعم وكلا. رتبت ستة مقاعد
حول الطاولة، وترك فراغ يسمح بوضع كرسي السير المدولب.

كان السيد ألبانو واقفاً أمام إحدى النوافذ، وكان يرتدي ملابس خاصة
بالمساء، ويغطي يديه بقفازين أبيضين يتناقضان مع اللباس الأسود الذي
يتسربل به. كان وميض عينه اليسرى بادياً في وهج أنوار الشموع. وقف
بعيداً بمواجهة المدخل، ولم يشعر بوصول الضيوف.

قال السير كوينتلان: "أرجوكم، خذوا أماكنكم".
جلس ممثلو الدول الأربع، بينما كانت السيدة سيلمان تقود كرسي

السير المدولب إلى المكان الفارغ المخصص له. وقد تُرك مقعدان فارغان إلى يساره؛ واحد للسيد ألبانو والآخر لممثل أميركا الغائب.

لوح مايكروفت إلى شارلوك، وقال له: "اجلس مكانك".

ألقى شارلوك نظرة سريعة نحو السير كوينتلان الذي نظر بدوره حوله إلى الممثلين الآخرين، وسأل: "هل لدى أي منكم أي اعتراضات. هز الممثلون الأربعة رؤوسهم بما يفيد بعدم وجود اعتراض. عندها، أوماً السير كوينتلان إلى شارلوك وقال له: "لا تتردد بالانضمام إلينا".

التفت شارلوك ناحية نيف وقال لها: "عذراً، ولكن الواجب يناديني".

أجابته قائلة: "سوف أشاهد من الجانب".

اتجهت سيلمان ناحية باب المدخل، وسحبت الستائر لتغلق الباب بها؛ مما حال دون دخول أي ضوء من جهة الباب، فأصبحت الغرفة أشد ظلمة. في هذه الأثناء، جلس شارلوك مكانه.

تقدم ألبانو نحو الطاولة وانضم إلى الآخرين. وما إن جلس حتى لاحظ شارلوك كيف تومض عينه في الظلال؛ وكأنها ثقب أسود في وجهه.

أخرج ألبانو من جيبه قطعة خشبية بحجم كف يده؛ مكورة من الخلف ومستدقة من الأمام، وقال بوقار: "هذه القطعة الخشبية هي التي ستتيح لقاطني البعد الآخر التواصل معنا. إذا كانت لدى الأرواح رسائل لترسلها، فعندها ستنقل القطعة الخشبية إلى الأحرف والأرقام التي تحيط بحافة الطاولة، وستقوم بشرحها بوضوح وبكل دقة. وفي ترتيب لا يمكنكم التفكير فيه، سأعالج بسرعة ما تنقله لنا هذه القطعة الخشبية، وسنضع جميعاً أيدينا عليها. لن يكون بإمكاننا نقلها بمفردي من دون معرفتكم جميعاً. ولكن الأرواح ستسمح لها بالانتقال بغض النظر عن يدي أو أيديكم الممسكة بها. ولكن أولاً...".

وبطريقة مسرحية، رفع يديه اللتين يغطيها القفازان في الهواء. وبواسطة يده اليسرى سحب كمة الأيمن تقريباً إلى حدود المرفق، وكرر الأمر عينه مع يده اليمنى وكمة الأيسر.

وصرخ قائلاً: "كما يقول لاعبو الخفة، لا يوجد شيء داخل كمي. لا

توجد حيل هنا... بل فقط تواصل حقيقي مع الأرواح".

ألقى شارلوك نظرة سريعة عبر الطاولة على شقيقه الذي بدا رزيناً، وبدا وكأنه يقول شاهد بحذر، ولا تسلّم بأي شيء على أنه حقيقي.

بدا على ألبانو أنه التقط شيئاً من التواصل الحاصل بين الشقيقين،

فألقي نظرة سريعة باتجاه مايكروفت ثم باتجاه شارلوك وبالعكس. "وعلى

أي حال، إن كان بينكم من يعتقد أنني أخفي أشياء تحت الطاولة وقد استخدمها لاحقاً، فأرجو منه أن يقوم حالاً ويتأكد". حدق ناحية شارلوك وقال له: "كن لطيفاً كما أنت فعلاً، وألقِ نظرة تحت الطاولة أيها الشاب". نظر شارلوك ناحية شقيقه الذي أوماً له موافقاً على القيام بما طلبه منه السيد ألبانو. أحنى شارلوك رأسه تحت الطاولة، كان أسفل الطاولة عبارة عن خشب عارٍ، من دون أي دعامة أو أي شيء مخفي هناك. تمدد شارلوك ولمس الخشب، ثم دق عليه برفق بواسطة براجمه. لم يكن الخشب أجوف، ولم يكن هناك ما يشير إلى أي مخابئ سرية.

عندما عاد شارلوك إلى مقعده قال: "أستطيع التأكيد على أنه لا يوجد شيء تحت الطاولة لا يفترض به أن يكون هناك".

رفع السيد ألبانو يده ونقر بأصابعه وقال: "شكراً لك". تقدمت كبيرة الخدم السيدة سيلمان منه، وهي تحمل شيئاً كبير الحجم وبسماكة كتاب. أخذه ألبانو منها، وأعطاه لشارلوك وقال له: "من فضلك، قل لنا ما هو هذا الشيء أيها الشاب".

نظر شارلوك إلى ذلك الشيء وقال: "إنه لوح للكتابة؛ وهو يشبه ذلك الذي يستخدم في المدرسة. يمكن الكتابة عليه بالطبشور".

"هل هناك طبشور هنا؟".

التفت شارلوك إلى اللوح وألقى نظرة عليه، وأجاب: "لا أستطيع أن أرى أي طبشور".

"هل هناك أي شيء آخر تريد أن نخبرنا عنه بشأن هذا اللوح؟".

"له إطار خشبي، وخلفيته خشبية". حاول شارلوك أن يحرك الخشب من الخلف، إلا أنه فشل. "يبدو متيناً جداً، لا يمكنني تحريكه أو انتزاعه".

"من فضلك، مرره عبر الطاولة، ودع كل واحد من الجالسين يتحقق منه". وابتسم ابتسامة خفيفة. "بعد كل هذا، يمكن لأي من الممثلين المتيقظين أن يكون بمثابة مساعدتي السري".

مرر شارلوك اللوح إلى مايكروفت الذي ألقى عليه نظرة، ثم سلمه مباشرة إلى فون وبينو الذي سلمه بدوره إلى الكونت شوفالوف الذي مرره إلى كوينتلان الذي مرره إلى السيد هولتزنبرك. أعاد الممثل الألماني اللوح إلى السيد ألبانو الذي حمّله بين يديه، وقال: "لنبدأ إذناً. لاحقاً سوف أبرهن القوة التي تجعلني مختلفاً عن سائر علماء النفس - قابلية التواصل مع بعض الأرواح على وجه الخصوص - ولكن، في الوقت الحالي سوف أرى ما هي أقرب الأرواح إلينا، وترغب بالتواصل وحسب". أغمض عينيه، وأرجع

رأسه نحو الخلف. "سأتواصل مع الأرواح الكبرى الموجودة في البعد الآخر، سوف أتواصل معها عبر الصدع الكبير الذي يفصل بيننا وبينها. هل من أحد هنا؟ هل من روح مستعدة للتحدث معنا؟ هل من روح هنا تريد التحدث من الجهة الأخرى؟".

ألقى شارلوك نظرة سريعة على وجوه الموجودين التي بدا عليها نطاق واسع من التعبير؛ من المستغرق في الانتباه إلى غير المصدق. كان التعبير الأخير طبعاً بادياً على وجه شقيقه.

نظر شارلوك ناحية باب المدخل؛ حيث كانت سيلمان تقف، وخلفها بدا وجه نيف من خلال عتمة القاعة، ابتسمت له. قال ألبانو: "إنني أشعر بإحدى الأرواح تقترب". التفت فون وبينو حوله بقلق.

"من البعد الآخر". همس كوينتلان، فيما ظل فون وبينو جالساً على مقعده.

اهتز ألبانو مرتعداً وهو يحاول النهوض عن مقعده كمن تلقى صدمة كهربائية، ثم عاد وجلس. كانت عيناه لا تزالان مغمضتين، ويدها اللتان يغلفهما القفازان لا تزالان تحملان اللوح، واستراحتا على حضنه. وقال بصوت متوتر: "عرّف عن نفسك".

عم الصمت للحظات، وخلال الوقت الذي كان شارلوك ينتظر فيه الاستجابة التي ربما ستكون صوتاً، أو حركة من القطعة الخشبية باتجاه حافة الطاولة، كانت النهاية مفاجأة له. فقد رفع ألبانو يديه من تحت الطاولة، وكانت لا تزالان تمسكان باللوح. ولكنه لم يكن فارغاً كما كان، بل كانت هناك رسالة مخربشة بواسطة الطباشير عليه.

رفع ألبانو اللوح، وحركه بطريقة تُمكن كل الموجودين من رؤيته، وقال بصوت متوتر: "أرجو أن يقرأ أي واحد منكم الرسالة". قرأ السيد هولتزينرك: "اسمي انفيكتوس، وقد اخترت أن أكون دليلكم لهذه الليلة".

همهم فون وبينو: "رائع!".

ألقى شارلوك نظرة باتجاه مايكروفت الذي بادله إياها ثم نظر إلى الطاولة. أحنى شارلوك رأسه تحت الطاولة؛ باحثاً عن أي دليل فاته. ربما كانت لدى ألبانو قطعة من الطباشير يحملها بين ركبتيه، أو بعض الطباشير المخفي تحت الطاولة، مما أتاح له تدوين الرسالة. ولكن، لم يكن هناك شيء. كان ألبانو يرتدي بنطالاً أسود، ولم يكن هناك أثر لغبار الطباشير

عليه. رفع شارلوك رأسه وهزه بسرعة. أوماً شارلوك بوجه عابس، وبدا عليه أنه لم يدرك كيف تمت الخدعة؛ هذا إن كانت هناك خدعة في الأساس. قال ألبانو: "هل أنت مستعد لتعمل كدليل لنا، وتناشد أرواح الأموات التي لديها رسائل للأقارب والأصدقاء الذين لا يزالون على قيد الحياة؟". أغمض عينيه بإحكام، وأدار رأسه وكأنه يبحث عن شيء ما حوله، ولاحظ شارلوك أن يديه كانتا لا تزالان على حضنه وتحملان اللوح. كان الصمت ثقيلًا في الغرفة، وكانت التوقعات عالية. بعد لحظة، ارتعش رأس ألبانو، ورفع اللوح مجددًا، وكان مغطى بخربشات من الطباشير، ولكنها مختلفة عن سابقتها.

قرأ السيد هولتزنبرنك: "أنا مستعد لكي أكون مساعدك، ولكن أرواح الآخرين ليست لديها الطاقة للكتابة كما أكتب أنا، لذا ستستخدم القطعة الخشبية". كانت الكلمات الأخيرة مكتوبة بأحرف صغيرة مضغوطة إلى بعضها بعضًا. كما لو أن الروح التي تدعى انفيكيتوس قد أدركت فجأة أنها بدأت تنفذ من الفضاء. بطريقة أو بأخرى، وجد شارلوك فكرة أن تقوم الأرواح بسوء تقدير من هذا القبيل أمرًا مضحكًا.

حمل السيد ألبانو اللوح بيده اليسرى، وتقدمت سيلمان باتجاهه كي تأخذه منه، أبدى اهتمامه بوضع رؤوس أصابعه على القطعة الخشبية التي كانت طيلة الفترة السابقة من الجلسة موضوعة على الطاولة، وقال: "أرجوكم جميعاً، ضعوا رؤوس أصابعكم فوق رؤوس أصابعي". فعل الأشخاص الستة الموجودون حول الطاولة ما طلبه منهم السيد ألبانو، وبدا لشارلوك أن القطعة الخشبية تهتز برفق. نظر حوله ليرى إن كانت يد أحدهم تهزها، ولكنه لم يستطع رؤية أي حركات غير عادية. سأل السيد ألبانو: "هل هناك أحد هنا؟".

لم يحدث شيء لفترة بدت طويلة، طويلة كفاية؛ لدرجة أنها جعلت شارلوك يظن أن شيئاً لن يحدث، إلا أن القطعة الخشبية تحركت فجأة عبر الطاولة باتجاه كلمة نعم ساحة الأيدي معها. حبس الكونت شوفالوف أنفاسه، في الوقت الذي ارتفع فيه حاجبا فون وبينو من هول المفاجأة. "هل هناك رسالة من أحدهم هنا؟".

اتجهت القطعة الخشبية ناحية وسط الطاولة، قبل أن ترجع عائدة إلى كلمة نعم .

"لمن الرسالة؟".

مجددًا، اتجهت القطعة الخشبية باتجاه وسط الطاولة، ثم ارتجت

وهي تتجه إلى حافة الطاولة. ولكن، بدل أن تتجه هذه المرة ناحية كلمة نعم، اتجهت ناحية الزاوية؛ إلى حيث تصطف الأحرف والأرقام. وبجهد، أشارت القطعة الخشبية إلى الأحرف ه - و - ل - ت - ز. همهم شارلوك هولتزينر، إلا أن القطعة تابعت الإشارة إلى الأحرف حتى وصلت للحرف ك.

ألقى هولتزينر نظرة خاطفة حول الطاولة وقال: "اعتذاراتي". وهمهم: "ليست لدي أي فكرة".

سأل ألبانو: "من أنت؟ عرف عن نفسك".

ارتعشت القطعة الخشبية، ثم دارت حول حافة الطاولة، وخلال ثلاثين ثانية أشارت إلى الأحرف التالية على التوالي ف - ر - ي - ت - ز. التفت ألبانو باتجاه هولتزينر وسأله: "هل يعني لك هذا الاسم شيئاً؟".

أجاب الممثل الألماني: "فريتز هو شقيقي". كان صوته المرتجف دليلاً على مدى تأثره العاطفي. "وهل هو ميت؟".

أوما هولتزينر مرة: "لقد غرق قبل خمس سنوات في حادث مركب". أعاد ألبانو انتباهه مجدداً إلى الهواء فوق الطاولة وقال: "ما هي رسالتك يا فريتز هولتزينر؟".

تحركت القطعة الخشبية مجدداً؛ من حرف إلى آخر، ووجد شارلوك نفسه يرتج عبر الطاولة كما تريد القطعة الخشبية لتجد الأحرف، وتمكن من رؤية الآخرين وهم يسحبون في الاتجاه نفسه الذي تسلكه القطعة الخشبية. حاول أن يكتشف إن كان أحدهم يدفع القطعة بترو - ألبانو أو أي شخص من بين الآخرين - ولكن، كان من المستحيل اكتشاف ذلك، فقد بدا له أن القطعة الخشبية تتحرك من تلقاء نفسها.

كانت الرسالة تقول: أنا سعيد هنا، لا تندبوني. يجب على هيلغا أن تتوقف عن الحزن عليّ، وتبدأ حياة جديدة خاصة بها.

قال هولتزينر بهدوء: "هيلغا هي زوجة فريتز. كانا قد تزوجا قبل شهرين من وفاته. كانت ولا تزال - لا أعرف كيف يمكنني قول ذلك - مذهولة مما حصل". ثم نظر إلى الهواء فوق وسط الطاولة وسأل: "أين أنت يا فريتز؟". كان هناك تعبير متوسل على وجهه.

ألقى شارلوك نظرة خاطفة على مايكروفت. كان بإمكانه توقع ما كان شقيقه يفكر فيه؛ إن الألماني وجد نفسه متورطاً في هذا العرض المسرحي.

كتبت القطعة الخشبية رسالة جديدة: خلف الحجاب.
تشدق مايكروفت وقال لشارلوك: " ملغز جداً ". ثم التفت حتى واجه
ألبانو، وقال بصوت مرتفع: " الرسالة باللغة الإنكليزية؛ هل لاحظت ذلك؟!
هل هذا طبيعي بالنسبة للأرواح الألمانية؟ " .

أجابه ألبانو بنعومة: " اللغة في عالم الأرواح عالمية، وعندما نقيم
جلسة التحضير بالإنكليزية تظهر الرسائل باللغة نفسها ". ثم استدار ناحية
هولتزينك قبل أن يطرح مايكروفت سؤالاً آخر، وسأله: " هل تريد توجيه
رسالة أخيرة إلى شقيقك؟ " .

تحركت القطعة الخشبية مجدداً، وحاول شارلوك توقع مضمون الرسالة
من أحرفها الأولى، ولكن الأمر استغرق منه بعض الوقت لمعرفة ما أرادت
الروح كتابته - هذا إن كانت روحاً - لا تندبونا، ولكن افرحوا لأجل
أرواحنا.

كانت أنفاس هولتزينك ثقيلة في الوقت الذي كانت فيه الرسالة
تكتمل، وكانت الدموع تتلأأ في عينيه، وهمهم قائلاً: " أرجوك، لا تذهب! "

عندها، أعلن ألبانو: " تأخرت كثيراً، روح أخيك عادت إلى الفراغ عديم
الشكل الذي تأتي منه كل الأشياء وإليه تعود ". توقف، ثم قال: " هناك
روح أخرى تقترب هذا ما يقوله لي انفكتيوس " .

نظر شارلوك إلى القطعة الخشبية، وبدلاً من أن يلقي ألبانو رأسه إلى
الخلف ويحدق إلى السقف، أعلن: " أستطيع أن أشعر أن هناك روحاً
تعبرني. إنها روح قوية جداً، وهي تتمنى أن تتجلى في هذه الغرفة، وأن
تصبح مرئية من قبلنا! " .

نظر شارلوك والآخرين الجالسون حول الطاولة حولهم، متوقعين أن
يروا شيئاً يتحرك عبر الغرفة. ولكن، بدلاً من ذلك، اهتز ألبانو على كرسيه
مجدداً، وطوق جسده بيديه، وقبض على نفسه، وسعل مرة، ثم سعل مرة
أخرى. أصبحت يده على رأسه، وبعد ذلك فتحهما وقبض على الهواء، ثم
قرب كوباً من فمه، ثم سعل فيه وكأنه يريد أن ينفث شيئاً من رثيته.

بدا الأمر بالنسبة إلى شارلوك مذهلاً، إذ إن شيئاً أبيض وضبابياً بدأ
ينبثق من فم ألبانو، وبدا وكأنه يزفر بعض المواد البخارية في وسط
الغرفة. ولكن، بدلاً من أن تتلاشى، كانت تأخذ شكلاً وتتمدد فوق الطاولة،
حتى بدت ككفن يخفي وجهاً.

لوحّت يدا ألبانو في الهواء؛ كما لو أنه يحاول احتواء المادة حتى

تتوقف عن الانتشار. وحين ركّز شارلوك، كان بإمكانه أن يرى قسماً امرأة جميلة وصغيرة في السن، تبدو وكأنها مرسومة في لوحة زيتية.

شعر بقلبه ينبض بسرعة، وبالرعب يسيطر على أفكاره؛ إذ لم يكن هذا ما توقعه. فقد توقع كتابات على حافات الطاولة ورسائل. لكنه بالتأكيد لم يتوقع روحاً تتجسد في وسط الغرفة.

حاول التركيز على شكل الروح، ولكن كان من الصعب تبين التفاصيل، فقد كانت تتبدل وتتحرك. كانت بيضاء وتبدو كالدخان، وكانت تتألق وكأنها رطبة، وتتحرك كما لو أن لها عقلاً خاصاً بها.

تنهد فون ويينو وقال: " اكتببلازم! " [1] .

وهمهم مايكروفت: " بوبيكوك " [2] .

حدق شارلوك بالنمساوي وسأله بسرعة: " ما هو بالضبط الاكتببلازم؟ "

" إنها المادة التي تستخدمها الروح لتعطي نفسها شكلاً ". وبدأ على وجهه الاستغراق في التفكير. " إنها شكل من المادة بخلاف أي شيء رأيناه على الأرض. الوسطاء يمكنهم أن يصنعوا أشكال أجسادنا، وبإمكانهم أن يفرزوها من مسامنا " .

" أيعقل أن شخصاً مثلك يعتقد بكل هذا؟! " .

ألقى فون ويينو نظرة على شارلوك وسأله: " وكيف لا يمكن أن تصدق ذلك عندما ترى وتسمع ما رأيناه وسمعناه؟! " .

نظر شارلوك ناحية الكونت شوفالوف الذي حافظ على صمته خلال جلسة التحضير وسأله: " وماذا بشأنك؟ " .

نظر شوفالوف من فوق شارلوك، وهز كتفيه وقال ببساطة: " أنا روسي، وأصدق ما أراه وألمسه، ومن أتحدث إليه ". وأوماً باتجاه الكتلة الاكتببلازمية من البخار الأبيض التي كانت لا تزال معلّقة فوق الطاولة، وقال: " هذا خارج نطاق تجاربي وخبراتي. أنا شاهدت فعلاً، ولكن هل يمكنني أن ألمس وأتحدث، لا أظن ذلك " .

عندها، نظر شارلوك ناحية ألبانو الذي كان شبه واقف، وكانت يدها اللتان يغطيها قفازان تمسكان بذراعي الكرسي. كان فمه مفتوحاً، وكانت عيناه تحدقان إلى الكتلة الاكتببلازمية وهما مفتوحتان على وسعهما، وكان متفاجئاً وكأن هذه الكتلة لم تخرج من جسده قبلاً.

خف الضوء، وفجأة اختفى.

وحين غرقت الغرفة بالظلام، سمع شارلوك همساً حول الطاولة، ثم

سمع صوت سقوط ألبانو على كرسيه.
فجأة، عاد الضوء مجدداً، وتوهجت مصابيح الغاز الموزعة في أرجاء
الغرفة، وتدفق النور. أغمض الحاضرون عيونهم بعد أن شعروا بالتشوش،
واختفت كتلة الاكتوبلازم.

الفصل الخامس

بعد أحداث الليلة السابقة، كان الفطور أمراً لطيفاً. كل الممثلين - باستثناء الأميركي - كانوا جالسين بهدوء وهم غارقون في أفكارهم. كان السير شادراتش كوينتلان جالساً في مكانه على رأس الطاولة، وبالطبع كان السيد ألبانو متغيباً، فيما السيد شوفالوف يُخدم من قبل خادمه الخاص، بينما كان الخدم الذين يعملون في القلعة يخدمون الآخرين.

كانت أفكار شارلوك أيضاً منصبة على كيفية إنجاز المؤثرات في جلسة التحضير. في الواقع، لم يكن قادراً على حمل نفسه على الاعتقاد بأن الأرواح قادرة على العبور من البعد الآخر من أجل زيارتهم. كان مقتنعاً إلى حدٍّ ما أنه لا وجود للبعد الآخر. جلس يفكر في أن ما شاهده مجموعة من خدع الشعوذة؛ كان متأكداً من ذلك.

مايكروفت بدوره كان مقتنعاً أنها خدعة. كان قد تحدث مع شارلوك في وقت لاحق من ليلة أمس بعد انتهاء جلسة التحضير، وقد لخص الأمر بقوله: "أنا أعلم أن الأمر برمته خدعة، ولكنني لست متأكداً تماماً من كيفية إنجازها. هنالك احتمالات كثيرة. ولكن، لكي نكون متأكدين، يجب أن نثبت من التقنيات التي استخدمت.

إن ما رأيناه بقدر ما يُعيني على اتخاذ القرار هو إلى حدٍّ ما معياري بالنسبة لجلسات التحضير. لم يعرض السيد ألبانو أي أحداث لم أكن أتوقعها".

سأله شارلوك: "وماذا بشأن سائر الممثلين؟ هل يعلمون أنها كانت خدعاً وشعوذة؟".

هز مايكروفت كتفيه وقال: "الكونت شوفالوف شخص ذكي، وأنا أعتقد أنه مثلنا يعلم أن الحيل التي تحمل على الوثوق بها يجري تكديسها واحدة فوق الأخرى. أما السيد فون وبينو فبالرغم من سمعته كإحصائي ومفكر منطقي، يبدو أنه علق في خطاف الخدعة. أعتقد أن هناك سبباً لرغبته بالتصديق؛ ألا وهو موت زوجته وتفجعه عليها، وربما رغبته بالتواصل معها مجدداً. أما هولتزنرك فيمكنه أن يسلك كلا الدربين. أعتقد أن اختياره ليكون الشخص الذي يتلقى الرسالة من الجانب الآخر طريقة ذكية؛ كان السيد ألبانو واضحاً باستهدافه باعتباره الشخص الذي يتأرجح بين التصديق وعدمه. أعتقد أنه سيتجرأ أكثر لاحقاً، وسأكون والكونت شوفالوف موضوع حيله في الليالي القادمة.

"وماذا سيحدث إن صدق واحد من الحاضرين أو أكثر أن ما يحدث حقيقي؟".

سأله مايكروفت: "ماذا تريد أن تقول؟".

"حسناً، مهمتك هنا هي تقييم طاقات السيد ألبانو بالنيابة عن الحكومة البريطانية. وإذا قررت أنه يستطيع التواصل مع الأشباح، فعندها يفترض بك المزايدة على خدماته مع سائر الممثلين. ولكن، إذا قررت أنه مخادع، فعندها يفترض بالحكومة البريطانية أن لا تهتم إن قامت حكومات أخرى بشراء خدماته؛ فهي بذلك سوف تهدر مالها لا أكثر".

أجابته مايكروفت: "هذه هي الحقيقة الكاملة". وأوماً برأسه الكبير. "وهذا يظهر أنك تطور فهماً جيداً للأعمال الدبلوماسية الدولية. في الحقيقة، إنني أفضل أن تقوم الحكومات الأجنبية بهدر أموالها على عالم نفسي مخادع بدل إنفاقها على التسليح والجيوش. ومع ذلك، أريد أن أضيف أمرين إلى ما قلته. الأول، أنا شخص يكره أن يحصل المحتالون على مكافأة على جهودهم؛ ولو أنها لم تكن من حكومتنا. والثاني أنه ليس من الصحي والوضع السويّ بالنسبة إلى الحكومات التي لديها جيوش كبيرة أن توجه من خلال رسائل كاذبة من الأشباح. إنني أفضل كثيراً أن تتخذ الحكومات قراراتها بالاستناد إلى المنطق والوقائع، وهكذا سنتمكن من توقع ما ستقدم عليه".

دافع شارلوك عن رأيه: "من وجهة نظر أخرى، أليس من المهم أن إبداء الحكومات اهتماماً بعالم نفس كاذب يتيح لكم تزويدها بالأمور التي تريدون أن تصدقها كرسائل كاذبة، إذا أردتم ذلك. إذا افترضنا أن عالم النفس الكاذب يأخذ المال من إحدى الحكومات من أجل أكاذيبه وخدعه فهو سيأخذ المال من أخرى".

دمدم مايكروفت: "هذه الفكرة غير أخلاقية، ولا يمكنني القيام بها".
سأله شارلوك وهو يفكر في نيف شادراتش: "ماذا بشأن السير شادراتش؟ هل هو متورط؟".

"من المؤكد أن السيد ألبانو يحتاج إلى مساعد حتى يتمكن من إحداث بعض التأثيرات". زم مايكروفت شفثيه وتابع: "وإذا لم تأتته المساعدة من كوينتلان أو على الأقل من أحد أتباعه فيفترض بها أن تأتي من مكان ما". ألقى نظرة خاطفة على شارلوك وتابع: "أفترض أنك فكّرت في كل الطرق الممكنة لكيفية ظهور رسائل الطباشور، وتنقل القطعة الخشبية، والتجسيد المادي للاكتوبلازم، أليس كذلك؟".

قال شارلوك بسرعة: "صحيح". ولكن الآن، وبينما هو جالس إلى مائدة الفطور، وجد نفسه جذلاً. لقد افترض أن القطعة الخشبية دفعت بسهولة إلى حدّ ما بواسطة أصابع ألبانو، ولكن رسائل الطبشور والاكوتوبلازم كانت لا تزال تريبكه. كيف تم ذلك؟ فقد تحقق من أسفل الطاولة ولم يجد شيئاً مخفياً.

كانت نيف تجلس قبالتها، وكان ينظر إليها، وقد ابتسم لها وبادلتها الابتسامة. تمنى لو تتاح له الفرصة ليتكلم معها لاحقاً. فهي على حدّ علمه شاهدت كل شيء، ولكن من زاوية مختلفة. لقد افترض أن جلسة التحضير قد أُعدت لكي تقنع الناس الجالسين حول الطاولة، وربما تمكن الواقفون عند الباب من رؤية شيء ما لم يتمكن الباقون من رؤيته.

أو تساءل وهو ينظر إليها: هل هي على علم مسبق بكيفية حصول كل هذا. إذا كان كوينتلان متورطاً في هذه الحيل، فهل ابنته متورطة أيضاً؟ ماذا إن كانت جزءاً من المؤامرة؟ تمنى أن لا تكون كذلك.

أراد أن يسألها إن كانت تريد أن تريه المزيد من القلعة والأرض المحيطة بها لاحقاً، إلا أن إحدى الخادمت أوقعت بشكل غير متوقع طبقاً من البيض المخفوق أرضاً. أجفل الجميع لدى سماعهم صوت التحطم المفاجئ، فيما أسرعت الخادمة في مغادرة الصالة وهي تنشج بشكل هستيري. في تلك الأثناء، أسرع الخدم الباقون لتنظيف الأرض.

غادرت نيف كوينتلان كرسيها، وركضت خلف الخادمة. ولاحظ شارلوك أنها الوحيدة التي اهتمت بمشاعر الخادمة.

وبينما كان شارلوك ينتظر عودة نيف، أخذ يمضغ قطعة من التوست. وعندما عادت في النهاية، ألقى عليها والدها نظرة مستفهمة، فأومأت له مطمئنة إياه.

ما إن جلست حتى سألها شارلوك: "ما الخطب؟".

"إنني لا أومها. مسكينة ماري، إنها لا تزال قلقة مما رأيته من نافذة غرفة نومها في الليلة الماضية".

رفع شارلوك حاجبه وسألها: "لا تقولي لي إنها رأت الدارك بيست!".

أجابته قائلة: "بالفعل، هذا بالضبط ما رأيته".

"أنت تمزحين، أليس كذلك؟".

"إنني لا أمزح على الإطلاق. قالت إنها أرادت أن تأوي إلى فراشها قرابة الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل؛ بعد أن أنهت تنظيف الأرضيات ومسحها. وفيما كانت تلقي نظرة سريعة عبر النافذة قبل أن

تستلقي على فراشها، رأت ضباباً في الخارج؛ غالباً ما يأتي الضباب من البحر. لقد قالت الخادمة إنها وبينما كانت تغلق الستارة رأت شيئاً. ظنته في البداية أحد الضيوف، لكنه كان كبيراً وضخماً جداً. وما لبثت الرياح أن شتت الضباب بعيداً، فرأته بوضوح". كان وجه نيف جدياً. "قالت إنه كان كبيراً وأسود. كان أكبر من رجل. ثم ما لبثت الرياح أن هبت عبره فاختمى".

سألها شارلوك: "وماذا فعلت؟".

"ماذا كان بوسعها أن تفعل؟ تأكدت من أن النافذة مغلقة، ثم أوت إلى سريرها، ولكنها لم تستطع النوم. لذا، استلقت على سريرها، وأخذت تحديق إلى السقف مرتجفة من شدة الخوف، وهي تفكر في ما رأته. وبقيت على هذه الحال حتى الصباح. مستنزفة القوى من قلة النوم، نزلت لتحضير الفطور، ولكنها لا تزال تتذكر ما رأته".

"هل تصدقينيها؟".

"أنا أصدقها. فهي متيقنة من أنها رأت شيئاً ما". ألق نيف نظرة خاطفة باتجاه باب المدخل. "بدا عليها الهلع جلياً. ولكن، إن كنت تسألني: هل رأت بالفعل الدارك بيست، أو شيئاً مثل غزال في الضباب، أو حلمت أنها رأت شيئاً ما؟ فأنا لا أعلم. بصدق، لا أعلم. طلبت منها أن تذهب إلى المطبخ، وتشرب كوباً من الماء، وتجلس لبضع دقائق حتى تشعر بأنها أصبحت أفضل حالاً".

سألها شارلوك: "على أي جهة من القلعة تطل نافذتها؟".

ابتسمت وسألته: "لماذا؟ أتريد أن تذهب وتقتفي الأثر؟".

"إن أردت فعل ذلك، فهل ترغبين بمرافقتي؟".

ضحكت: "نافذة غرفتها تطل على الأرض الداخلية، وسوف أريك إياها عندما نغادر إلى الخارج".

قال شارلوك: "إنه... اتفاق". أوقف نفسه قبل أن يقول كلمة موعد. "ولكن، أيمكننا الانتظار إلى وقت قريب من موعد الغداء؟ لأن والدك أخبرني أنني أستطيع أن ألقى نظرة على الكتب في مكتبته، وأنا أنوي التوجه إليها مباشرة بعد الانتهاء من تناول الفطور".

بعد الفطور، توجه شارلوك إلى المكتبة، بينما أمسك شقيقه ذراع الكونت شوفالوف وجره إلى محادثة خاصة يفترض بها أن تكون حول أسرار الدولة الكبرى. عندما دفع شارلوك باب المكتبة الخشبي الكبير المصنوع من خشب السنديان، بدت له المكتبة خالية من الناس. في الداخل، وجد

خزانات الكتب تغطي الجدران من الأرض حتى السقف، وكانت النوافذ الطويلة مغطاة بستائر من النسيج الأخضر؛ للحيلولة دون دخول ضوء الشمس الذي قد يؤدي إلى بهتان لون الكتب. كانت هناك سلام مدولبة على طول خزانات الكتب، وكان كل إنشٍ خالٍ مغطى بمجلدات مغلقة بالجلد الأسود الباهت والأحمر. وفي وسط الغرفة، كان هناك كرسيان جلديان منتفخان وطاولة جانبية، وإلى جانبها كانت هناك طاولة أكبر يمكن استخدامها لفتح المجلدات الكبيرة أو الخرائط.

استغرق شارلوك بضع دقائق كي يجول بناظره على تشكيلات الكتب التي اختلفت مواضيعها: التاريخ المحلي، تاريخ العالم، الجغرافيا، الأدب الخيالي، بالإضافة إلى أقسام كبيرة مخصصة لغرب الأنديز، وأيضاً للروحانيات والظواهر النفسية.

متذكراً ما قالته نيف حول ما رآته الخادمة ليلة أمس، نظر شارلوك إلى خارج إحدى النوافذ. كانت للمكتبة إطلالة على الجروف. كانت هناك خمسون قدماً من العشب قبل أن يختفي المنظر العشبي وتبدأ حافة الجرف. ظن شارلوك أن باستطاعته رؤية البحر من هذه المسافة في يوم صافٍ. ولكن، كان لا يزال هناك الكثير من الضباب الآن. وكل ما استطاع شارلوك رؤيته كان فراغاً عديم الشكل ورمادي اللون.

بدا الضباب إلى حدٍّ ما شبيهاً؛ حتى في ضوء النهار. وأدرك شارلوك كيف يمكن لشخص ما يحدق عبر هذا الضباب الملتف أن يظن أنه يرى أشكالاً موجودة. حتى إن شجرة ينظر إليها عبر هذا الضباب يمكنها أن تأخذ شكل مسخ.

سار بين الرفوف المخصصة للروحانيات والظواهر النفسية. كان هناك قسمان كاملان يرتفعان من الأرض إلى السقف، وكانت الكتب مرتبة من الأحدث نشراً إلى الأقدم، ويعود تاريخ نشر بعضها إلى مئات السنين. جال شارلوك بناظره على العناوين بسرعة، إلا أنه لم يبحث كثيراً عن كتاب يتحدث عن الظواهر النفسية التي تبدو كما لو أنها حقيقية، بل بحث عن واحد للحيل والتقنيات كافة التي يمكن استخدامها لتكوين تأثيرات زائفة، وكادت نتائج بحثه تصيبه بالإحباط.

لقد بدا منطقياً ما افترضه. فإذا كان السير شادراتش كوينتلان جزءاً من عملية خداع تهدف لإحداث تأثير في نفوس متلقيها، فإنه على الأرجح سيخفي الكتب التي تتحدث عن الموضوع بعيداً عن المتناول.

وإذا كان يمتلك مثل هذه الكتب - وهو يشبهه بأنه يمتلكها - فما

من شك في أنه يخفيها في مكان ما. ففكر شارلوك في أنه سيبحث عنها لاحقاً في شتى أنحاء القلعة؛ حتى في غرف السير شادراتش الخاصة، فهو يعمل مع ممثل الحكومة البريطانية!

وبما أنه الآن في بلد غريب، افترض أن ما يقوم به يمكن أن يوصف في جزء منه بأنه عمل تجسسي؛ وقد وجد الفكرة مثيرة. ربما كان يبحث بشكل خاطئ. فبدلاً من البحث عن كتب تعنى بالظواهر النفسية الخادعة على وجه الخصوص، ربما يجدر به البحث على نطاق أوسع عن كتب الأوهام والحيل السحرية. لقد تجول في شتى أنحاء المكتبة، واستخدم السلام للتحقق من الرفوف العليا، ولكنه لم يعثر على شيء.

في النهاية، استسلم وتخلّى عن فكرة البحث عن كتب الأوهام والحيل السحرية، وعبر إلى القسم الذي يغطي التاريخ المحلي، وبحث عن أي كتب تسرد أخبار الأساطير المحلية أو القصص. كان هناك كتابان على رفين. سحب أحدهما وأخذه، ثم جلس على كرسي. جلس وأخذ يتصفحه ليرى إن كان قد ذكر فيه أي شيء عن الدارك بيست.

استغرب عندما عثر على فصل كامل مكرس للمخلوقات الخارقة للطبيعة، ووجد أنها ظهرت في الأنحاء منذ مئات السنوات، وأنه ما من أحد قد شاهدتها بوضوح، وأنها تظهر عادة في الليل، أو عندما يكون الطقس ضبابياً.

تعب من الجلوس والقراءة، فراح يسير في أرجاء المكتبة. كان قد سمع عن ممرات سرية في القلاع القديمة، تخفيها في بعض الأحيان رفوف من الكتب تتحرك من خلال مفصلات مخفية. وعلى سبيل التجربة، حاول سحب رفين من الرفوف، إلا أن شيئاً لم يحدث، سوى أنه تسبب بسقوط بعض الكتب على السجادة، وشعر بأن تصرفه سخيف. تذكر الأشياء التي علمه إياها أستاذه الأميركي غروي حين لفت انتباهه إلى ضرورة البحث عن علامات صغيرة، ومسارات، وممرات، وأي أشياء أخرى تبدو غير متناسبة مع المكان، أو خارجة عن المألوف. فإذا كانت هناك أبواب مخفية خلف الرفوف، فإن فتحها سيترك أثراً على السجاد. لذا، سجد شارلوك على الأرض باحثاً عن أي دليل يشير إلى أن أحد رفوف الكتب قد حرك وترك أثراً على السجاد، ولكنه لم يجد شيئاً، وشعر بالسخافة مجدداً.

" ماذا تفعل؟ "

نظر إلى الأعلى محاولاً أن يبدو طبيعياً بدلاً من أن يبدو متفاجئاً أو

مخرجاً، ورسم ابتسامة مرتبكة على وجهه. كانت نيف تقف عند الباب المفتوح، وتحقق إليه. فأجابها قائلاً: " أسقطت قطعة من النقود ".
" ماذا كنت تفعل بالنقود هنا في المكتبة؟ الكتب هنا مجانية ".
أجابها بنعومة: " لم أستطع تحديد الموضوع الذي أريد البحث عنه، لذا استعنت بقطعة من النقود لتساعدني على الاختيار ".
" حسناً ". أمالت رأسها جانبياً باتجاه إحدى كتفيها، وحدقت إليه بصمت لوقت طويل، وبدا واضحاً أنها لم تقتنع. " أنا أشعر بالملل، أتريد أن نذهب إلى الخارج؟ ".

خاطبها قائلاً: " في الواقع، إنني أفضل القيام بجولة داخل القلعة أولاً ". توقف قليلاً قبل أن يتابع: " أنت تعيشين في القلعة، لذا أنت معتادة عليها وتجدينها مملة، أما أنا فلم يسبق لي أن عشت في قلعة، وأشعر بالفضول حيالها، وأرغب في استكشافها ".
كما توقع، أثار بكلامه هذا فضول نيف فقالت له: " حسناً، لنبدأ من الأعلى، ثم نتابع باتجاه الأسفل، سأكون بمثابة دليلك الشخصي في هذه الجولة ".

سارت أمامه عبر القاعة الرئيسية. تجاهلا المصعد، وأخذا يصعدان الدرج حتى وصلا إلى الطابق الأعلى. سارا عبر أحد ممرين يقودان باتجاهين متعاكسين.

كانت القلعة كما يتذكر شارلوك ذات شكل مربع غير دقيق. وكان البرج حيث يقيم السير يتوسط أحد أضلع المربع. وكانت أسوار القلعة تشكل في الوقت عينه أضلع المربع الذي تتكون منه القلعة. كان الممر الرئيس في القلعة يقع في الوسط بين الغرف، وكانت الأبراج تتمركز في زوايا القلعة الأربع، وقد كانت هناك ثلاثة أبراج صغيرة، أما الرابع فقد كان كبيراً. استغرق مشيهما على طول أسوار القلعة والعودة إلى القاعة الرئيسية نحو 15 دقيقة. كانت معظم الغرف التي رآها أثناء الجولة إما مخصصة للنوم أو للتخزين، فيما كانت الغرف الباقية فارغة.

سألها شارلوك: " هل يمكننا الخروج والسير على سطح القلعة ".
أجابته نيف بابتسامة: " بالطبع ". وقادته إلى باب صغير في أحد جوانب القاعة، ومن هناك صعدا درجاً حجرياً لولياً يؤدي إلى الأعلى، وينتهي ببابين ثقيلين متقابلين، دفعت نيف أحدهما وأومات إليه.
وجد شارلوك نفسه على سطح حجري أملس وطويل ورطب، تغطيه بقع من الطحالب، وتحده شرفة. بدت رائحة السطح كرائحة سن متعفنة.

في الجهة البعيدة من السطح رأى برجاً آخر. وكان لديه باب ثقيل خاص به. صفت الريح عبر السطح منتزعة الحرارة من جسده، وأرسلت قطرات باردة من المطر تناثرت على وجهه. أتاح له موقعه المرتفع ذاك أفضلية في الرؤية. كان الريف الإيرلندي يمتد أسفله؛ من تلال شاسعة وشجيرات تحيط بالقلعة؛ حيث أيكات الأشجار الخضراء الداكنة. وكانت الغيوم في الأسفل تلامس أعالي الهضاب.

في المسافة التي ترتفع فوق أجمة الأشجار رأى برجاً حجرياً بعيداً عن القلعة، وكان المعلم الوحيد المسيطر على المنظر الطبيعي. سجل ملاحظة في ذهنه لكي يزوره؛ إن تمكن من إيجاد ممر له من الطابق الأرضي. أغلق الباب خلفه بعنف. وحين التفت، وجد نفسه وحيداً على السطح. بعد ثوانٍ، سمع صوت رتاج معدني يغلق من الداخل. لقد أقفل الباب.

خاطبته نيف من خلف الباب قائلة: " سوف ألتقيك في الجانب الآخر. سأبقي الباب مفتوحاً لعشر ثوانٍ، وإذا لم تستطع الدخول في الوقت المحدد، فسوف تبقى في الخارج ". قبل أن يتمكن من قول أي شيء، سمع وقع خطواتها على الدرج الحجري.

كانت تعدو على طول الممر الذي يربط المبنى الرئيس بالبرج التالي. يفترض به أن يصل في الوقت نفسه معها أو أن يسبقها؛ إن أراد التخلص من الرياح الباردة.

شعر بومضة من الانزعاج جعلته يشعر بأن وجهه حار، بدت وكأنها تحب تحديه واللعب. حسناً، إن كان هذا ما تريده.

بدأ يركض على طول سطح القلعة، ولكن قدمه انزلقت على بقعة من الطحالب وسقط جانباً. واصطدمت كتفه بإحدى دعائم درابزين الشرفة العفنة، وشعر بالألم يندفع في جسده قبل أن يتلاشى ويتركه واهناً. توازن مجدداً، وهو يعرف أن نيف تسبقه في الطابق السفلي.

الآن، أصبح يعرف كيف يتجنب بقع الطحالب. ولكن النتيجة بدت وكأنه يؤدي رقصة غريبة، ويتحرك بسرعة ذات اليمين وذات اليسار، ويقفز قفزات طويلة. لم تكن الأرض الحجرية العارية آمنة، فقد تركها المطر زلقة، كما أن نعل حذائه الجديد كان ناعماً جداً، وقد وجد نفسه ينزلق مرتين باتجاه الدرابزين، فاستخدم يديه للتخفيف من حدة الصدمات. شكر الله لأن أحداً لم يشاهده على هذه الحال؛ فقد بدا كمن أصابه مس من

الجنون. بالطبع، أدرك أن نيف أرادت أن تراه على هذه الحال، وهذا يفسر سبب إغلاقها الباب وجعله يركض؛ لقد سعت وراء التسلية، وأرادت أن ترفّه عن نفسها.

كان الباب أمامه مفتوحاً، واستطاع رؤيتها وهي تقف في الظلام وتقهقه وتسخر منه. في النهاية، زاد سرعته مجبراً، وغير عابئ بالطحالب، وواثقاً من أن سرعته ووزنه سيتيحان له تجاوزها. وكان يحصي في رأسه الثواني العشر التي تحدثت عنها نيف. وعندما وصل إلى الرقم ثمانية وجدها تستعد لإغلاق الباب. قفز وجعل قدمه تنزلق على الطحالب؛ مما قذفه باتجاه الباب. أصدر صوتاً مكتوماً حين اصطدم به؛ في الوقت عينه الذي كانت نيف تغلقه فيه. فما كان منه إلا أن دفعها فاتحاً الباب، فسقط داخل الغرفة المظلمة في أعلى بيت الدرج. قال وهو يلهث ويتكئ على الجدار محاولاً التقاط أنفاسه: " ماذا تريد أن تثبتي؟ ". أجابته: " أنك تستطيع أن تركض أسرع ".

" أسرع منك؟ " .

" تذكر أنني وصلت قبلك " .

استقام في وقفته وقال لها: " لكنك لم تركضي على أرض رطبة تغطي الطحالب معظمها " .

لوت شفيتها بخيبة أمل وقالت: " حسناً، إن وضعت الأمر في هذا السياق. حسناً، أنت فزت هذه المرة ". ثم ابتسمت له وسألته وهي تنتظره كي ينزل الدرج: " أتريد أن نعيد السباق؟ " .

خاطبها قائلاً: " لقد كانت الجولة السابقة سيئة، ولكنني رأيت ما يكفي من السطح. دعينا نستكشف بعض الطوابق السفلى " .

أخذته في جولة من الأعلى إلى الأسفل؛ عبر الطابق الثاني فالأول، وصولاً إلى الطابق الأرضي. ولكن الطوابق كانت شبيهة ببعضها إلى حد كبير، والغرف بالحجم نفسه. كان بعضها غرف نوم، أما بعضها الآخر فكان للتخزين. وحدها قاعة الرقص في الطابق الأرضي من البرج الآخر بدت مختلفة. فقد كانت كبيرة وفارغة، وتغطي جدرانها الستائر، وكانت هناك منصة عند نهايتها مخصصة لفرقة موسيقية صغيرة.

ما إن وقفا هناك حتى قالت نيف بسرعة: " لا أذكر أننا استعملناها في أي وقت مضى. فكما يمكنك أن تلاحظ، لا علاقة لوالدي بالرقص " .

وعندما كانا يستديران لمغادرة القاعة، كان لدى شارلوك انطباع بأن الستائر ترتعش عند المنصة. ولهنيهة ظهر شكل داكن وكبير جداً - أكبر

من حجم رجل - قبل أن يختفي مجدداً. استدار شارلوك محدقاً بالستارة؛ ظناً منه أنه يوجد شخص آخر سواهما في القاعة؛ ربما كان أحد الخدم، لكنها لم تتحرك مجدداً.

سألته نيف: "أرأيت شيئاً؟"

"لست متأكداً".

"هل كان دارك بيست؟"

ضحك وأجابها: "لا أظن ذلك". استدار مجدداً، وتبع نيف.

سألها وهما لا يزالان يقفان في القاعة الرئيسة حيث كانا يحدقان: "ماذا بشأن السرايب؟"

أجابته: "لدينا سرايب في الأسفل".

"كم هذا ممتع!"

"إنها تستخدم من قبل الخدم بشكل أساسي، ومن أجل الطهو، أتريد رؤيتها؟"

نعم، ولكنني أخشى أن تحبسيني فيها. وإن فعلت ذلك فستكون تلك نهايتي".

ابتسمت له: "ربما هي فكرة جيدة. ما رأيك بالخروج الآن؟"

"أجل، من فضلك". نظر إلى الساعة المعلقة بسلسلة تتدلى من صدرته وسألها: "في أي ساعة تقدمون الغداء؟"

"عند الواحدة تماماً".

"لدينا ساعة وربما أقل من ذلك؛ إن كنا سنتسخ أو نبتل، ونحتاج إلى تبديل ملابسنا عندما نعود".

رفعت حاجبها: "أتخشى القليل من البلل أو الاتساخ؟"

"لا، على الإطلاق. ولكنني أخشى أن يفوتني الغداء". أوقف نفسه عن المتابعة وضحك: "لا أريد أن يوبخني أخي. معاذ الله".

"هل تسير الأمور بينكما على ما يرام؟"

"إنك تطرحين سؤالاً سهلاً طرحه، ولكن تصعب الإجابة عنه". أجابها وهو يشعر بعدم الارتياح من السؤال، ولكنه أراد أن يجيبها بصدق. "كنا بعيدين عن بعضنا لفترة. حسناً، أنا كنت بعيداً؛ كنت مسافراً. لقد تغيرنا كلانا منذ أن سافرت، وأظن أننا نحاول معاً العمل على استبعاد كل ما من شأنه أن يؤثر على علاقتنا الآن. إنني لا أحتاج إليه في ما أقوم به، ولكنه يحتاج إلى أن يدرك أننا أصبحنا ندين الآن". صمت رغباً في تغيير الموضوع، ولكنه لم يكن متأكداً من كيفية القيام بذلك. "ماذا بشأنك أنت؟"

رفعت حاجبها: "أتخشى القليل من البلل أو الاتساخ؟"

"لا، على الإطلاق. ولكنني أخشى أن يفوتني الغداء". أوقف نفسه عن المتابعة وضحك: "لا أريد أن يوبخني أخي. معاذ الله".

"هل تسير الأمور بينكما على ما يرام؟"

"إنك تطرحين سؤالاً سهلاً طرحه، ولكن تصعب الإجابة عنه". أجابها وهو يشعر بعدم الارتياح من السؤال، ولكنه أراد أن يجيبها بصدق. "كنا بعيدين عن بعضنا لفترة. حسناً، أنا كنت بعيداً؛ كنت مسافراً. لقد تغيرنا كلانا منذ أن سافرت، وأظن أننا نحاول معاً العمل على استبعاد كل ما من شأنه أن يؤثر على علاقتنا الآن. إنني لا أحتاج إليه في ما أقوم به، ولكنه يحتاج إلى أن يدرك أننا أصبحنا ندين الآن". صمت رغباً في تغيير الموضوع، ولكنه لم يكن متأكداً من كيفية القيام بذلك. "ماذا بشأنك أنت؟"

"إنك تطرحين سؤالاً سهلاً طرحه، ولكن تصعب الإجابة عنه". أجابها وهو يشعر بعدم الارتياح من السؤال، ولكنه أراد أن يجيبها بصدق. "كنا بعيدين عن بعضنا لفترة. حسناً، أنا كنت بعيداً؛ كنت مسافراً. لقد تغيرنا كلانا منذ أن سافرت، وأظن أننا نحاول معاً العمل على استبعاد كل ما من شأنه أن يؤثر على علاقتنا الآن. إنني لا أحتاج إليه في ما أقوم به، ولكنه يحتاج إلى أن يدرك أننا أصبحنا ندين الآن". صمت رغباً في تغيير الموضوع، ولكنه لم يكن متأكداً من كيفية القيام بذلك. "ماذا بشأنك أنت؟"

وهو يشعر بعدم الارتياح من السؤال، ولكنه أراد أن يجيبها بصدق. "كنا بعيدين عن بعضنا لفترة. حسناً، أنا كنت بعيداً؛ كنت مسافراً. لقد تغيرنا كلانا منذ أن سافرت، وأظن أننا نحاول معاً العمل على استبعاد كل ما من شأنه أن يؤثر على علاقتنا الآن. إنني لا أحتاج إليه في ما أقوم به، ولكنه يحتاج إلى أن يدرك أننا أصبحنا ندين الآن". صمت رغباً في تغيير الموضوع، ولكنه لم يكن متأكداً من كيفية القيام بذلك. "ماذا بشأنك أنت؟"

كلانا منذ أن سافرت، وأظن أننا نحاول معاً العمل على استبعاد كل ما من شأنه أن يؤثر على علاقتنا الآن. إنني لا أحتاج إليه في ما أقوم به، ولكنه يحتاج إلى أن يدرك أننا أصبحنا ندين الآن". صمت رغباً في تغيير الموضوع، ولكنه لم يكن متأكداً من كيفية القيام بذلك. "ماذا بشأنك أنت؟"

من شأنه أن يؤثر على علاقتنا الآن. إنني لا أحتاج إليه في ما أقوم به، ولكنه يحتاج إلى أن يدرك أننا أصبحنا ندين الآن". صمت رغباً في تغيير الموضوع، ولكنه لم يكن متأكداً من كيفية القيام بذلك. "ماذا بشأنك أنت؟"

ولكنه يحتاج إلى أن يدرك أننا أصبحنا ندين الآن". صمت رغباً في تغيير الموضوع، ولكنه لم يكن متأكداً من كيفية القيام بذلك. "ماذا بشأنك أنت؟"

الموضوع، ولكنه لم يكن متأكداً من كيفية القيام بذلك. "ماذا بشأنك أنت؟"

ولكنه لم يكن متأكداً من كيفية القيام بذلك. "ماذا بشأنك أنت؟"

هل لديك إخوة أو أخوات؟ " .

قالت: " يبدو أنه كان لدي أخ أكبر، ولكنه مات عندما كان رضيعاً. مات قبل أن أولد ". بدت على محياها تعابير الجدية وتابعت: " الكثير من الرضع يموتون في البلد الذي جئت منه " .

قال شارلوك: " يموت عدد لا بأس به من الأطفال الرضع في البلد الذي أتيت منه أيضاً ". كان يفكر بالكوليرا وغيرها من الأمراض التي تنتشر بسرعة عبر المناطق الفقيرة في المدن الكبيرة. " إنني لا أحاول القيام بأي مقارنة بين خلفيتك وخلفيتي، فأنا أعرف أن الأفضلية كانت لي " .

" مهلاً، لقد عشت طفولتي في مكان تنتشر فيه الشواطئ الجميلة، وغروب الشمس فيه لا يضاهى، وحيث يمكنك الحصول على وجباتك مباشرة من الأشجار؛ قبل أن أعيش هنا في هذه القلعة. صدقني؛ أنا أشعر بأن الأفضلية لي " .

لمست يده وقالت: " هيا بنا، لنباشر جولتنا خارج القلعة. لن نبتعد كثيراً، سنترك ذلك لوقت لاحق " .

تبعها عبر الباب الذي يؤدي إلى خارج القاعة الكبرى. كان الباب نصف مفتوح، فانسلت عبره. تبعها شارلوك إلى وسط الساحة التي تقع بين أسوار القلعة. في ضوء النهار، وهو ينظر إلى الخارج وليس إلى الأبواب كما فعل في الأمس عندما دخل القلعة برفقة شقيقه، رأى أن الساحة مبلطة بالكامل، وتتخللها بعض بقع الأعشاب، ويتوسطها تمثال جندي مدرع يمتطي صهوة حصان ويده مرتفعة ويحمل بها سيفاً.

سارت نيف أمامه باتجاه المدخل المقنطر، وعبرت الخندق المائي بسرعة. ولكن شارلوك توقف حتى ينظر إلى الأسفل؛ إلى مياه الخندق المظلم، فلم يستطع أن يرى ما هو أبعد من مسافة قدم بسبب الوحل والنباتات المنتشرة في العمق. ولكنه رأى أشكالاً ملتوية تسبح هناك، ربما كانت أسماكاً أو أنقليسات، لم يكن متأكداً.

كانت القلعة تحميها من الرياح الباردة التي اختبرها شارلوك على السطح. حدى نحو الخارج؛ إلى المنظر الطبيعي الإيرلندي، لم يكن للغيوم المنخفضة أثر عند هذا المستوى من القلعة، ولكنه استطاع أن يرى الهضاب المنخفضة التي رآها من شرفة السطح. نظر شارلوك حوله؛ محاولاً إيجاد البناء البرجي الذي رآه من السطح أيضاً. ولكنه استنتج أنه لا يستطيع رؤيته من هذه الجهة من القلعة بل من الجهة الأخرى. وجّهته نيف بالاتجاه المعاكس وقالت له: " لننظر إلى البحر، أنا لا أتعب ولا أمل من

النظر إليه. في الجزيرة التي كنت أعيش عليها، كان البحر دائماً أزرق اللون أو أخضر. لكنه هنا رمادي على الدوام. كما أن البحر هنا ثائر على الدوام، وأمواجه تتحطم بصخب على الشاطئ بدل أن تأتي لطيفة وادعة ". فكر شارلوك بالطرائق المختلفة التي شاهد فيها المحيط عندما كان على متن السفينة في طريق الذهاب والإياب من الصين. فقال لها مغامراً: " البحر كالناس؛ فبالرغم من حقيقة أننا جميعاً نبدو متشابهين؛ حيث لدى كل منا رأس ويدان وساقان، إلا أن هناك نطاقاً واسعاً من الشخصيات لدى الأشخاص المتشابهين في الشكل. والبحر بالرغم من بساطة تكوينه - بخلاف البشر - يمكن أن يبدو مختلفاً بالنظر إلى حالة الطقس والوقت ". اختفت نيف عند زاوية أحد الأبراج وتبعها شارلوك. وجدها تسير فوق العشب الممتد الذي رآه من نافذة المكتبة؛ ذلك العشب الذي يفصل القلعة عن الجرف. أسرعت الخطى قبل أن تتوقف عند حافة الجرف، وقد دفعت الرياح شعرها إلى الخلف. انضم شارلوك إليها عند حافة الجرف، وأخذا يحدقان معاً، وبصمت إلى عظمة المحيط الأطلسي. بدت الأمواج وكأنها تشكل وبشكل سريع سلسلة من الجبال الرمادية الكثيرة التي يعلوها الزبد الأبيض. وكانت النوارس التي تحلق فوق الأمواج هي التي أعطتها حجمها الحقيقي.

حدقت نيف بشارلوك بجرأة، وهدق بها بدوره. ولم يكن متأكداً من الرسالة التي أرسلها، ولكنه كان متأكد من أن الرسائل كانت متبادلة. فتحت نيف فمها لتتكلم، ولكن شيئاً ما شتت انتباه شارلوك؛ فقد رأى شيئاً ناتئاً من الأجمة التي كانت نيف تقف بالقرب منها. كان ما رآه قدماً؛ قدماً عارية.

قال شارلوك: " مهلاً " .

" ما الأمر؟ " .

هدق شارلوك بالقدم، وقال بتجهم: " أظن أننا بحاجة إلى الحصول على مساعدة شخص من القلعة " .

ألقت نيف نظرة على القدم الناتئة من الأجمة، ثم ركضت مسرعة باتجاه القلعة بأسرع ما استطاعت، فيما تقدم شارلوك نحو الأجمة ودفع الأوراق بحذر.

كان هناك جسد ممدد أسفل الأجمة، وكان يعود لإحدى الخادمت في القلعة؛ إحدى الخادمت كانت متمددة على ظهرها، وتحديق إلى السماء، وبدا على وجهها تعبير رعب محض. تفحص شارلوك نبضها من الرقبة

والمعصم، ولكنه لم يجد أثراً للنبض. كانت بشرتها باردة، وكانت طبقة رقيقة من الغبار المائل إلى اللون الأصفر تغطي عينيها. كانت ميتة.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها شارلوك جثة، ولكنه شعر بالقلق، وتعجب من حقيقة أن الخط الذي يفصل بين الحياة والموت رفيع جداً. وما أثار تعجبه أكثر هو سهولة عبور هذا الخط الرفيع، ولكن باتجاه واحد. أدرك أنه يعرف هذه الفتاة جيداً، فهي الخادمة التي أوقعت الأطباق وركضت ناشجة في أثناء تقديم الفطور.

ومن دون أن يلمس جسدها، تفحصها شارلوك بعينه. لم تكن هناك دماء أو جروح أو كدمات ظاهرة. وبدت كما لو أنها سقطت أرضاً وماتت. كان هناك شيء يعتمل في الجزء الخلفي من رأسه، لذا عمل على تهدئة أفكاره ليتيح له فرصة التقدم إلى الأمام. كان ذلك الشيء مرتبطاً بما شاهده أولاً. خطأ إلى الخلف، وترك عينيه تجولان فوق الجثة؛ من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، محاولاً أن يتبين الشيء الذي يزعجه. القدمان! هذا هو السبب؛ كانت الخادمة عارية القدمين.

سمع نيف تعود من القلعة برفقة الآخرين، فالتفت إليهم عندما وصلوا. كانت سيلمان موجودة ومعها عدد من الخدم، وكانوا يلهثون عندما وصلوا، وأخذوا يحدقون بالفتاة المتمددة أرضاً أمامهم.

انحنت سيلمان فوق جسد الفتاة لتتفحص نبضها؛ وهذا ما كان شارلوك قد قام به سابقاً، ثم استقامت في وقفها وهزت رأسها: "المسكينة، يبدو أنها كانت تعاني من مرض ما. ليرحمها الله، كان يفترض بي أن أعلم أن هناك خطباً ما في الصباح؛ عند تناول الفطور، ربما كان قلبها ضعيفاً "

" ربما قادتها رؤية الدارك بيست إلى الجنون وتسببت بموتها ". همس أحدهم. استدارت سيلمان لتحقق بحشد الخدم قائلة: " أحضروا ملاءة لنلف بها جثمانها، ونعود بها إلى داخل القلعة. وليذهب أحدكم ويجلب رجل الدين. أما الطبيب فهو في طريقه إلى هنا؛ ولكن لسبب لا علاقة له بموت هذه المسكينة. وحين يصل إلى هنا سيفحصها، وسيصدر إفادة بوقاتها. وإذا وجد أثراً لمرض ما فسيفرض حجراً صحياً على القلعة، وهذا ما سيكون مربكاً للسير شادراتش ". التفتت سيلمان نحو شارلوك ونيف. " سيدتي نيف وسيدي شارلوك، إنني آسفة لأنكما شاهدتما هذا، وشكراً لكما لأنكما أعلمتما. سوف أقوم بإعلام السير شادراتش، وسنقوم بالترتيبات الضرورية. لا أعتقد أن هناك أموراً أخرى تستطيعان القيام بها هنا، لذا

أقترح عليكما أن تذهبا إلى حيث كنتما ذاهبين، وأن تتابعا ما كنتما تقومان به قبل أن تجدا جثة هذه المسكينة " .

أومأت نيف وقالت برزانة: " شكراً سيلمان. من فضلك، أعلمينا إن كان هناك شيء آخر يمكننا القيام به ". توقفت قليلاً قبل أن تتابع كلامها، وسألته: " هل لديها عائلة؟ " .

أجابت سيلمان متنهدة: " أظن أن لديها أمّاً وشقيقاً؛ ولكنهما لا يقيمان في هذه المنطقة. أظن أنهما يقيمان بالقرب من كورك. سوف أكتب لهما وأعلمهما بما حدث. إن موت الشبان مأساة؛ أياً يكن سبب الموت " .
كانت نيف لا تزال مصدومة، وقالت: " لقد تحدثت إليها صباحاً... كيف يمكن لأمر كهذا أن يحدث؟ " .

قال شارلوك وهو مستغرق في التفكير: " ما لا أستطيع فهمه هو: لماذا كانت في الخارج حافية القدمين؟! فقد كانت تنتعل حذاء في الصباح. وإلى أين كانت ذاهبة؟ " .

فجأة، تعجبت سيلمان بصمت، ولطمت وجنتيها بكفيها وقالت: " سامحني يا سيدي، ولكن صدمة رؤيتي للمسكينة ماري مسجاة هنا أنستني أنني كنت أبحث عنك عندما أتت سيدي للبحث عني وهي تجري " .
" ماذا كنت تريدني مني؟ " .

" لست أنا من يريدك، بل شقيقك يا سيدي " .
شعر شارلوك بقلبه يقفز من مكانه فجأة، وسألها: " ما به مايكروفت؟ " . وأخذ يعدو باتجاه القلعة.

تمهلت سيلمان في الإجابة؛ وهي تحاول أن تصيغ جملتها بوضوح: " إنه يعاني من إصابة في رأسه... " .

الفصل السادس

متجاهلاً نيف وسيلمان، أخذ شارلوك يعدو عائداً إلى داخل القلعة، وقد تركته فكرة إصابة شقيقه مرتعباً. إذ لم يكن قد مر وقت كافٍ على عودته إلى بريطانيا لملاقاة شقيقه مجدداً. أياً يكن الشيء الذي حصل لشقيقه، فهو بالتأكيد أمر لم يكن يتصوره. لقد كان وجوده في حياته على الدوام ثابتاً.

عبرَ الجسر فوق الخندق المائي، واجتاز الممر المقنطر الذي يفضي إلى الساحة المركزية في القلعة. كان المدخل المؤدي إلى البناء الرئيس إلى يساره. وعبره برشاقة من دون أن يبطئ من خطواته عند الحجر المنحدر. في القاعة، كان الخدم متجمعين قرب مدخل غرفة لم يدخلها شارلوك من قبل، وتوقع أن يكون مايكروفت في الداخل. لذا، دفعهم شارلوك ومر بينهم.

كانت الغرفة غرفة الاستقبال، وكانت تحتوي على كراسٍ مريحة وبعض الأرائك حولها، وكان مايكروفت يجلس على واحدة من تلك الأرائك. لقد تخطى جسده الضخم ذراعي الكرسي الذي كان ينوء تحت ثقل وزنه بقوائمه الرفيعة. بدا شاحباً مثل الشكل الاكتوبلازمي الذي أظهره ألبانو ليلة البارحة. استغرقه الأمر هنيهة ليتبين حقيقة الأمر، بالرغم من أنه رأى جرحاً ضخماً على جبهته.

كان السير شادراتش بجانب مايكروفت، على كرسيه المدولب. بالطبع، لم تكن سيلمان موجودة، وكانت إحدى الخادמות تقف خلف الكرسي مستعدة لدفع الكرسي متى أراد السير ذلك. وكان الكونت شوفالوف كعادته يقف خلف كرسي مايكروفت، ويضع يده على كتفه.

كان مايكروفت مغمضاً عينيه، ويده مرفوعة باتجاه جبينه. وما إن أحس بقدم شارلوك حتى فتح عينيه، ولوح بأصابعه التي تشبه الملقاق وقال بصوت ضعيف: "آه يا شارلوك، أعتذر لأنني عكرت صفو نزهتك".

سأله شارلوك بإلحاح: "ما الخطب؟".

"كنت بمفردي في المكتبة؛ فقد كان السير شادراتش لطيفاً جداً حين أذن لي بالقيام ببعض الأبحاث فيها. أعلم أنك كنت تفكر بالأمر عينه باكراً، وأعتذر لأنني نسيتك. ولكن، كما يبدو، هناك شخص لم ينسني، وقام بضربي من الخلف؛ أعتقد أنه فعل ذلك بواسطة شمعدان. لحسن الحظ، دخلت إحدى الخادמות لترى إن كنت بحاجة إلى كوب من الشاي،

فوجدتني ملقى على الأرض".

سأله شارلوك: "هل أغلقت الباب خلفك عندما دخلت المكتبة؟".
"أجل".

"وعندما دخلت الخادمة المكتبة هل كان الباب مغلقاً؟".

نظر السير شادراتش ناحية مايكروفت، ثم ناحية إحدى الخادمت التي انحنت قليلاً قبل أن تقول: "أجل، كان الباب مغلقاً".
فقال شارلوك مشيراً إلى الباب: "إن الباب يقود مباشرة نحو القاعة. وأي شخص يدخل أو يخرج من المكتبة، يكون عرضة لكي يراه أحدهم؛ ما لم تكن هناك طرق أخرى للدخول والخروج". وفكر كما فكر سابقاً بالممرات السرية.

قال السير شادراتش كوينتلان بتصنع: "لا علم لدي بوجود طرق أخرى للدخول والخروج من المكتبة سوى عبر الباب. كما أن النوافذ كانت ولا تزال مغلقة بإحكام". وكشر قبل أن يتابع: "هذا من جهة. أما من جهة أخرى، فهناك أشخاص يهرون عبر القاعة على الدوام، ولم ير أي منهم شخصاً يدخل أو يخرج من المكتبة خلال الوقت الذي دخل فيه شقيقك إلى المكتبة، أو عند العثور عليه فاقداً وعيه".

سأل شارلوك شقيقه وهو راكع إلى جانبه: "كيف تشعر الآن؟".

"أظن أن ألم الرأس الطفيف الذي أشعر به طبيعي بعد احتسائي الكثير من الشراب في الأمس، كما أن معدتي تشير إلى أنه ما من سبيل لتناول الغداء اليوم". ابتسم بوهن وتابع: "فضلاً عن ذلك، لا أزال على قيد الحياة؛ وهذا وحده يدعو إلى الابتهاج".

قال السير شادراتش: "لقد أعلمنا الطبيب، وهو في طريقه إلى هنا لتتأكد أنه ما من ارتجاج في الدماغ؛ فمن الواضح أنه ما من كسر في الجمجمة".

قال الكونت شوفالوف بلهجته الروسية الثقيلة: "ولكن السؤالين المهمين اللذين يطرحان نفسيهما هنا هما: من هاجم السيد مايكروفت؟ ولماذا؟".

قال السير شادراتش مجيباً عن السؤال الثاني: "من الواضح أن أحدهم أراد أن يوقف ممثل الحكومة البريطانية عن المشاركة بالمزايدة على خدمات السيد ألبانو. وهذا تصرف حقير وبائس، ولن أتسامح معه في كلون أرد كاسل".

ردّ الكونت شوفالوف على السير شادراتش بهدوء قائلاً: "يبدو الأمر وكأنك تشير إلى أن الفاعل واحد من ثلاثة: أنا أو فون وبينو أو السيد

هولتزينرنا. وأنا أرفض هذا الاتهام، وأنكر أي تورط لي في الموضوع، كما أنني متأكد من أن السيدين الآخرين لا علاقة لهما بالموضوع مثلي". قال مايكروفت بوهن شديد وهو يلوح بيده مجدداً: "هدثوا من روعكم يا سادة. هناك احتمال آخر، ربما كان الهدف من الهجوم لفت النظر إلى أن خدمات السيد ألبانو على قدر من الأهمية إلى حد أن القتل يصبح مبرراً. وهذا من شأنه أن يدفع باتجاه رفع سعر هذه الخدمات". حينها، قال السير كوينتلان شادراتش بتشاؤم: "بقولك هذا، أنت تحملني والسيد ألبانو المسؤولية ربما. وأنا -".

قاطعها مايكروفت قائلاً: "إنني لا أقصد اتهام أحد، بل أريد الإشارة إلى وجود العديد من التفسيرات الأخرى التي قد تقود إلى اتهام أي شخص متواجد في القلعة، بمن فيهم شقيقي الشاب شارلوك - فقد كانت لديه في الماضي أسباب لإيدائي - بالرغم من أنه كان موجوداً في الخارج. ما من اتهامات في الوقت الراهن، وأقترح أن نعتبر أنه ما من جريمة قد ارتكبت؛ لأن الألم الذي أشعر به في رأسي لن يسمح لي بالبداة بالنقاش الآن، ولأنه من شأن ذلك أن يؤدي إلى توتر في العلاقات الدولية، ولأن لدي تعليمات حاسمة بوجود تفادي مثل هذه الأمور مهما كان الثمن".

أوماً كوينتلان قائلاً: "أنت محق. إنك تتفوه بكلام حكيم ومسؤول. يفترض بك الآن أخذ قسط من الراحة يا سيد هولمز. أترغب بأن نقوم بنقلك إلى غرفتك كي تستلقي منتظراً قدوم الطبيب؟".

في تلك اللحظة، التقت عينا شارلوك عيني مايكروفت الذي قال: "الآن، أفضل البقاء هنا لفترة. حتى أستعيد نشاطي وقوتي. وبعدها، بإمكان شقيقي مساعدتي على الوصول إلى غرفتي. ربما سيكون كوب من الشاي مفيداً الآن؟".

قال السير شادراتش: "بالطبع". وحدث إلى الخادمة التي بدأت تحرك كرسيه وتدفعه باتجاه الباب. "إن أردت أي شيء آخر فلا تتردد في طلبه، أرجوك".

ما إن غادر كوينتلان حتى قال مايكروفت بأمل: "أريد طبقاً من البسكويت، هل هذا ممكن؟".

ربت الكونت شوفالوف على كتف مايكروفت وقال له: "صديقي القديم، -".

عندئذ، قال مايكروفت محاولاً إيقاف الروسي عن المتابعة: "لا تقل المزيد. أنت تعلم كما أعلم تماماً أنك لو أردتني أن أموت لكنت ميتاً

الآن؛ ولكن بطريقة أكثر ابتكاراً من الضرب بواسطة شمعدان. سوف نتحدث لاحقاً؛ عندما أشعر بأنني أصبحت أفضل حالاً".

أوما شوفالوف لشارلوك وغادر، فتوجه هذا الأخير نحو الباب وأغلقه. كان الخدم لا يزالون متجمعين في القاعة. ملح شارلوك نيف تدخل القاعة، ولكن لم يكن لديه وقت ليوضح لها ما حدث.

ما إن عاد إلى شقيقه حتى سأله: "كيف تشعر الآن، بصراحة؟".
"أفضل قليلاً مما يبدو عليّ، ولكنني لست على خير ما يرام". لمس جبينه بحذر شديد. "لقد تمكنت خلال سني خدمتي الطويلة في الحكومة البريطانية من النجاة من التعرض لأي هجوم مباشر؛ حتى اليوم. لم أتوقع أن يحصل لي ما حصل اليوم، فقد كنت دائماً على الجانب الآخر من الجسر؛ الجانب الآمن. ولكنني أعتقد أن ما حصل قد منحني معرفة عملية بما يتعرض له عملائي ويواجهونه من أخطار". عبس وتابع: "أفترض ذلك".
"هل تتذكر أي شيء آخر غير ما صرحت به أمام الجميع؟".

"لا شيء على الإطلاق. مر عليّ وقت من التبدل؛ مباشرة قبل أن أضرب إلى لحظة العثور عليّ".

"وهل لديك فكرة عن سبب تعرضك للهجوم؟".
"لا شيء غير الذي قلته سابقاً. فيما أن يكون الهدف إنقاص عدد المزايدين، أو رفع السعر. المشكلة تكمن في أن المهاجم لم يترك لنا مجالاً لاستبعاد أحد من دائرة الشبهات".

انحنى شارلوك فوق جبين شقيقه وقال: "حسناً، وماذا سنفعل الآن؟".
"علينا القيام بالعديد من الأشياء. أولاً، يجب علينا الاعتماد عليك للمشاركة في الجلسة. يجب عليك أن تتأكد إن كانت هناك حيل. وإن لم تستطع إقامة الدليل على وجودها، وكان ما تراه مقنعاً لك، إذاً يجب عليك المزايدة بالنيابة عن الحكومة البريطانية، والحيلولة دون رسو المزايدة على الروس أو الألمان أو النمساويين والهنغار".

"أو على الأميركيين إن أتوا".
قال مايكروفت: "الأميركيون يأتون متأخرين دائماً. إن التأخير سمة أمتهم".

"هل بإمكانني طرح سؤال؟".
"هل استطعت في يوم من الأيام منعك من طرح أي سؤال تريد طرحه؟".

"ألبانو ليس عالم النفس الوحيد في العالم. وإذا لم تتمكن الحكومة

البريطانية من الفوز بالمزايدة على خدماته، فمن المؤكد أنها تستطيع الاستعانة بخدمات عالم غيره؟".

وافق مايكروفت شقيقه الرأي قائلاً: "نقطة جيدة، وقد خطرت في بالي. ولكن المسألة تكمن في أن السيد ألبانو يزعم أنه لكي تستهدف أرواح محددة يُفترض بك جلبها من البعد الآخر حيث تتواجد إلى العالم الأرضي؛ حتى يتم التواصل معها. ولكن العلماء الآخرين على حدّ علمي يقولون إنهم لا يملكون القدرة على السيطرة على الروح التي قد تظهر، وعلى التحكم بها؛ فقد تكون روح شخص تحبه في بعض الأحيان، وقد تكون في أحيان أخرى روح موزارت مثلاً".

"حسناً، سأشارك في الجلسة، وسأتابع التقصي كما فعلت سابقاً. هل هناك شيء آخر؟".

"أريد منك أن ترسل لي برقية (تلغراف)".

"من أين؟".

"هناك مكتب للبرق والبريد في المدينة. سأعطيك العنوان الذي يجب أن ترسل إليه البرقية، ولكن الرسالة التي سأرسلها ستكون مشفرة، وأنا أعرف أنك ستشعر برغبة ملحة لفك الشيفرة. ولكن، صدقني، لن تتمكن من فك الشيفرة ما لم يكن كتاب الشيفرة معك. وهو موجود مع الشخص الذي سأرسل له الرسالة. وإنني أؤكد لك أنك ستهدر ساعات قيمة من حياتك من دون جدوى إن حاولت فك الشيفرة".

"فهمت ما ترمي إليه".

"الآن، من فضلك، أعطني ورقة وقلماً وسوف أبدأ بكتابة الرسالة".

بحث شارلوك في أنحاء الغرفة حتى وجد في أحد الأدراج ورقة ومغلفاً، بالإضافة إلى قلم ومحبرة. جلب الأغراض المطلوبة إلى شقيقه، بالإضافة إلى كتاب ليستخدمه كمسند أثناء الكتابة. كتب مايكروفت بسرعة مجموعات من الكلمات التي تتألف كل واحدة منها من أربع كلمات. نظر إليه شارلوك وهو يكتب، ولكنه لم يتمكن من إيجاد الإيقاع أو السبب الكامن وراء مجموعات الأحرف هذه، فقد بدا له ما يكتبه شقيقه كلمات عشوائية.

في النهاية، كتب مايكروفت العنوان في أسفل الورقة، وقد بدا مستنزف القوة بوضوح. كان العنوان في لندن، ولكن المكان لم يكن مألوفاً بالنسبة إلى شارلوك. طوى مايكروفت الورقة ووضعها في المغلف، وأحكم إغلاقه، وأعطاه إلى شارلوك وقال له: "من فضلك، خذ الرسالة إلى مكتب

البرق والبريد في المدينة، واطلب منهم إرسالها". وربت على محفظته قائلاً: "أعتقد أنه يتوجب علي...".

قاطعته شارلوك: "لا تقلق يا شقيقي، أستطيع تغطية التكاليف".
"أقدر ذلك يا شارلوك. شكراً لك لوجودك هنا. لم أكن في يوم من الأيام أتوقع أن يتوافر لي شخص أهل للثقة، ومساعد مؤهل مثلك عندما أحتاج إليه".
حمل شارلوك المغلف وقال: "في هذه الحال، لماذا تطلب المساعدة من الخارج؟".

رفع مايكروفت حاجبه إلى حد أنه كاد يلامس حافة شعر رأسه وقال: "شارلوك، لن تستطيع فك شيفرة الرسالة؛ فهذا مستحيل".
أجابه شارلوك: "أنت محق". وقد بدا حزيناً وفرحاً في آن معاً وهو يقول: "لن أسعى إلى فك تشفير الرسالة، ولكن رد فعلك يؤكد لي أنني استطعت تخمين المضمون".

ارتاح مايكروفت في جلسته وقال: "أنت ذكي جداً. عقلك يتقد ذكاء يا أخي". أخذ نفساً وتابع: "الآن، أنا أشعر بالتعب. إذا ساعدتني، فسأسعى لإيجاد طريقي إلى السرير، وليرسلوا الطبيب إليّ عندما يأتي، بالإضافة إلى الشاي والبسكويت".

عندما ذكر مايكروفت الطبيب تذكر شارلوك أن هناك شيئاً مهماً نسيه، فقال فجأة: "وجدت إحدى الخادמות ميتة في ساحة القلعة الخارجية".

حدق مايكروفت إلى أخيه باهتمام: "من وجدها؟".
"أنا".

"حسناً، بالطبع أنت". في تلك الأثناء، أجفل مايكروفت فجأة من ألم شعر به في رأسه قبل أن يتابع: "هل هناك مسببات مشتبه بها؟".
"لم أستطع أن أثبت أي سبب للوفاة. تبدو وكأنها قد سقطت وماتت". هز كتفيه من دون مبالاة وتابع: "ربما عانت من نوبة قلبية".
قال مايكروفت وهو مستغرق بالتفكير: "هناك أمور غريبة تحصل. ولكن، ما من شك في أن التوقيت غريب".
"فضلاً عن أنها لم تكن تنتعل حذاء".

"هذا مثير للاستغراب حقاً". أجفل مايكروفت من الألم مجدداً وقال: "ولكنني لا أستطيع التفكير بوضوح الآن، أريد الاستلقاء. هل يمكنك مساعدتي في الوصول إلى غرفتي من فضلك؟".

بعد أن أوصل شارلوك أخاه إلى غرفته، نزل الدرج الحجري اللولبي. كان يتوقع أن تكون نيف كوينتلان في انتظاره عندما يصل إلى نهاية الدرج. ولكن، عندما وصل إلى الأسفل كانت القاعة فارغة. كان شارلوك يحمل المغلف بيده، وقد طلب منه مايكروفت أن يقوم بإرسال الرسالة مباشرة. افترض أنه يجدر به التوجه إلى المدينة لإرسالها، وكان باستطاعته أن يطلب من أحد خدم القلعة القيام بذلك، ولكنه كان يعلم أن مايكروفت يتوقع منه القيام بالعمل بنفسه؛ لكي يتأكد من أن الرسالة قد أرسلت. ما من شك في أن المسافة إلى المدينة طويلة. فكر في طلب عربة من السيد شادراتش، ولكنه شعر بأنها فكرة خرقاء، كما فكر بأن المشي يجعله يشعر بأنه أفضل حالاً.

إذ إن السير خارج أسوار القلعة سيجعله يشعر بمتعة الاستكشاف؛ حيث سيكون بعيداً عن الغيوم المنخفضة التي تخيم على القلعة، وستتاح له فرصة النظر إلى السماء الزرقاء؛ لا سيما وأن المطر الخفيف قد توقف. وهذا ما جعله متأكداً من أن طقس هذه المنطقة شديد التغيير؛ ما من شك في ذلك.

سار بالاتجاه المعاكس للطريق الذي سلكته العربة بعد ظهر أمس؛ حين أحضرته وشقيقه من غالوي إلى القلعة. كان الطريق بأكمله منحدرات هضبية، وهذا طبيعي؛ فالقلعة تقع على قمة الجرف، والمدينة تقع عند مستوى البحر. استساغ المشي؛ حيث كانت أشعة الشمس تنبعث من السماء الزرقاء الصافية، وترافق ذلك مع عبق رائحة العشب في الأجواء. ولكنه كان قلقاً من طريق العودة؛ لأنه سيكون بمجمله صعوداً بعكس حاله الآن.

لقد استغرق اجتياز الطريق من سالتهيل إلى وسط غالوي قرابة الساعتين. من جهة، تمنى لو كانت نيف معه؛ حيث كانا سيمضيان الوقت بطرح الأسئلة على بعضهما وألعاب التخمين. ولكنه من جهة أخرى كان مدركاً أن وجودها أصبح مزعجاً. كان هناك شيء يأسره فيها، ولكنه لم يكن يأسره لفترة طويلة.

مر بالفندق الذي تناول فيه وشقيقه الغداء في أمس. كان يعلم أن مكتب البرق والبريد يجب أن يكون في مكان ما في وسط المدينة، ويجب أن يكون بادياً للعيان. أخيراً، وجده؛ فقد كان في نهاية الشارع الرئيس المبلط؛ بالقرب من الميناء. دخل، ووجد المسؤول فيه منحنيًا فوق آلة معقدة تتكون من تشكيلة من الأسلاك والمغناطيسات التي تنتهي بعتلة بسيطة تنقر بشكل منتظم. كان الرجل المسؤول يرتدي قميصاً قصير الكمين،

ويضع أربطة تبقي كميته بعيدين عن مرفقيه، ويضع غطاء أخضر مرناً فوق العينين ويثبته بواسطة رباط مرن.

"كيف يمكنني مساعدتك أيها الشاب؟".

"لدي برقية أريد إرسالها إلى لندن".

رفع الرجل حاجبه وسأله: "وهل لديك فكرة عن الكلفة؟".

"لدي فكرة". ورفع المغلف بإحدى يديه، والمال بالأخرى وقال: "الرسالة

يجب أن ترسل بشكل طارئ".

قال الرجل: "غريب! كم هم قليلون أولئك الناس الذين يأتون إلى

هنا ويقولون: لا تقلق، إنها رسالة مبتذلة، وأنا أستطيع الانتظار لبعض الوقت".

أوما شارلوك: "لقد أخذت هذه النقطة بعين الاعتبار".

"سترسل بسرعة. ولكن، ماذا لو كان هناك ردّ عليها؟".

"أنا في الأعلى، في القلعة عند سالتهيل".

"هل أنت ضيف لدى السير شادراتش كوينتلان في كلون أرد كاسل؟

". تبدل صوت الرجل وأصبح ينطق بنغمة مختلفة، ولكنها نغمة حذرة. "

هل تقيم هناك؟".

"أنا هناك مع شقيقي".

أوما الرجل وقال: "سوف أوصل لك الرسالة إلى هناك إن كان هناك

رد". توقف عن الكلام، وبدا بجلاء أنه يريد قول شيء ما. "سيدي

الشاب، هل يمكنني أن أطرح سؤالاً؟ هل رأيت شيئاً هناك في الأعلى عند

القلعة؟".

شعر شارلوك بالحيرة، فقد رأى أشياء كثيرة. لذا، سأل الرجل: "ماذا

تقصد بقولك شيئاً؟".

"حسناً...". احتار الرجل مجدداً ثم قال: "هناك إشاعات بأن الدارك

بيست قد ظهرت مجدداً. هل هذا صحيح؟".

قال شارلوك: "لم أر شيئاً". بدت الكلمات وهي تخرج من بين

شفتيه صادقة، ولكنه فجأة تذكر الشكل الأسود الذي شاهده في قاعة

الرقص بالقلعة، خلف الستائر. من المؤكد أن المسخ لن يختبئ خلف

الستائر. كم الأمر مبتذل.

"وهل صحيح أن الدارك بيست قد قتلت أحد الأشخاص؟". همس

الرجل وهو يلقي نظرة سريعة حول المكان، ويرسم إشارة أمام وجهه

وصدره لعلها تحميه.

استغرب شارلوك من سرعة وصول الأخبار إلى المدينة، وأجابه بشكل حازم: " مات أحدهم. ولكن الأمر لا يعدو عن كونه حادثاً عرضياً، ولا علاقة له بما تقوله " .

" ولكن الفتاة ماتت، ليرحمها الله. لقد رأيت الفتاة الدارك بيست، أليس كذلك؟ وهذا سبب موتها " .

أجابه شارلوك: " لقد ماتت من جراء نوبة قلبية على الأرجح، وليس هناك شيء خارق للطبيعة في ما يتعلق بموتها " .

قال الرجل وقد بدا الإحباط عليه جلياً: " حسناً، ولكن الناس يتكلمون " .

أوماً شارلوك وقال: " حقاً؟! شكراً لك لأنك أخبرتني " .

قبل عودته إلى القلعة، أراد تناول الغداء في أحد المحلات، فالمشي كل تلك المسافة جعله يشعر بالجوع. لذا، اشترى فطيرتين وبعض الفاكهة، وتناولها في طريق عودته.

أمضى الوقت في طريق العودة وهو يتأمل المناظر الطبيعية الخلابة؛ من التلال المنخفضة إلى السهول والوشيعات... بدت المناظر غريبة ومختلفة عن المناظر الطبيعية المألوفة بالنسبة إليه في الريف الإنكليزي، والذي لا تزال صورته مطبوعة في ذاكرته منذ آخر زيارة قام بها إليه.

وعندما أصبح قريباً من القلعة، لفت نظره شيء طويل ورفيع يرتفع فوق الأشجار؛ كان البرج الذي شاهده من السطح صباح اليوم. وتذكر أنه كان ينوي زيارته، وسجل ملاحظة في ذهنه لكي يزوره في القريب العاجل؛ ما إن تتاح له الفرصة للقيام بذلك.

لقد استغرق عثوره على الدعامتين الحجريتين اللتين تحددان المدخل إلى القلعة نحو الساعة. وما إن اقترب حتى سمع قعقة عجلات على الحجارة وصهيل جياد.

لاحظ أن مجموعة من الأشخاص كانت تقف في الجانب الآخر من الخندق المائي الذي يحيط بالقلعة. كان السير شادراتش هناك، واستطاع تمييزه بسرعة بفضل الكرسي المدولب الذي يجلس عليه. وبدت سيلمان وهي تقف خلفه. وكان فون وبينو هناك أيضاً، وهولتزبرنك، وألبانو الذي كان يرتدي معطفاً طويلاً ويعتمر قبعة، وقد بدا وكأنه خرج لكي يتمشى. كان ألبانو يتناقش مع السير شادراتش وهو يلوح بذراعيه. وعبر تلك المسافة، استطاع سماعه وهو يصرخ بصوته الرفيع؛ بالرغم من أنه لم يتمكن من فهم الكلمات التي كان يصرخ بها. وقد بدا أن وبينو وهولتزبرنك يعملان

على تهدئته، وقد لاحظ شارلوك الكثير من الإيماءات وحركات الأيدي، وأدرك أن هناك الكثير من كلمات تطيب خاطر التي لم يتمكن من تبين معانيها من حيث يقف. أوماً ألبانو بيده بشكل مفاجئ وابتعد عن المجموعة، وعبر الخندق باتجاه شارلوك. استمر شارلوك بالسير على ممر الحصى الذي يقود إلى الخندق والقلعة. بعد ذلك، التقيا في منتصف الطريق. كان ألبانو يسير بسرعة ويحدق بالحصى ولم ير شارلوك.

سمع شارلوك جلبة خلفه عند مدخل القلعة، فاستدار. كانت هناك عربة سوداء رباعية العجلات يجرها حصانان تندفع عبر الفجوة بين الدعامتين. قام الحوذي الذي كان يغطي وجهه بلفاح بكبح العربة بطريقة عنيفة وخطرة، حتى يتيح لها الانعطاف. توجهت العربة من جراء ذلك الكبح مباشرة ناحية شارلوك الذي تنحى جانباً في محاولة منه للحيول دون أن تصدمه. ثم تدحرج جانباً، وحاول أن يبقي العربة تحت مرمى نظراته، واسترق نظرة إلى داخلها عبر النافذة، فوجد ثلاثة رجال جالسين. كان اثنان منهما ينظران إلى الأمام، وواحد ينظر إلى الخلف.

في هذه اللحظة بالذات، رأى ألبانو العربة، أو ربما تنبه للصراخ الآتي من المجموعة التي تقف عند الخندق، فتوقف وحدق إلى العربة السوداء التي كانت تندفع نحوه.

كان ألبانو على بعد لحظات من أن يدهس بواسطة حوافر الأحصنة وعجلات العربة. لكن الحوذي لَوَّح بسوطه، وهوى به على رأسي الحصانين. كانت العربة على وشك أن تدهس كلا من شارلوك وألبانو. ولم يتمكن الحوذي من استعادة سيطرته على العربة إلا بعد أن اجتازت الممر المغطى بالحصى بعدة أمتار.

كان هناك نوع من السباق بين محاولة شارلوك الوقوف، ومحاولة عقله إيجاد تفسير لسلوك الحوذي الغريب. ولكن، قبل أن يتمكن من الوصول إلى أي تفسير، فتح بابا العربة بقوة من كلتا الجهتين، وقفز منها رجلان يغطيان وجهيهما أيضاً. بالكاد لمح شارلوك شخصاً ثالثاً في الداخل؛ إلا أنه لم يكن يتحرك. ولم يلبث الرجل الذي قفز من العربة من جهة شارلوك أن التحق برفيقه، حيث انقضاً على ألبانو ودفعاه أرضاً، وأخرج أحدهما كيساً من جيبه، وغطى به رأس ألبانو، بينما قام الآخر بضربه حتى أفقده وعيه، وربما قتله. كل ما لاحظته شارلوك هو أن ألبانو كان فاقد القدرة على الحركة.

وقف شارلوك مندهشاً مما يحدث، ثم ما لبث أن أخذ يركض باتجاه

ألبانو وهو يصيح: " أنتما، توقفا، دعا الرجل وشأنه! ".
في هذه الأثناء، ركض كل من فون وبينو وهولتزينك من القلعة
باتجاه العربة، ولكنهما لم يكونا أسرع من شارلوك، فضلاً عن أنهما كانا
أبعد، وقد استغرق وصولهما وقتاً. في تلك الأثناء، كانت غريزة القتال لدى
شارلوك قد تحركت.

جر قاطعا الطريق ألبانو عديم الحركة، ورفعاه وألقيا به داخل
العربة، ثم قفزا إلى داخل العربة وأغلقا البابين. وما إن أصبحت داخل
العربة حتى جلد الحوذي الذي كان ينتظرهما الحصانين معيداً الحياة إلى
جسديهما، فانطلقا يعدوان بأقصى سرعتهم.

مرت العربة مجدداً من أمام شارلوك الذي بالكاد استطاع التنحي
جانباً مرة أخرى قبل أن تنطلق في ظلام الليل الدامس.

وقف شارلوك، وأخذ ينفذ الغبار عنه وهو يرى العربة تبتعد.
ابتعدت العربة بسرعة، حيث أصبح من المتعذر على أي كان اللحاق بها.
ركض كل من فون وبينو وهولتزينك ناحيته وهما مقطوعا الأنفاس.

سأله النمساوي وهو يلهث: " هل أنت بخير؟ " .

فأجابه: " نعم، أنا بخير. ولكن، ما الخطب؟ " .

قال هولتزينك: " كما رأيت، لقد خطف السيد ألبانو " .

" ولكن، لماذا؟ " .

هز فون وبينو كتفيه وقال: " ليست لدينا أي فكرة " .

في الوقت الذي كان فيه الرجال الثلاثة يحدقون بالعربة المنطلقة،
حدث أمر غير متوقع؛ فقد بدا وكأن العربة تنحرف عن خط سيرها، وتميل
على عجلتين من عجلاتها الأربع، وترتج بشكل مرعب. بطريقة ما، يبدو أن
الحوذي قد فقد السيطرة على الحصانين. أياً يكن السبب، اندفع الحصانان
بعيداً ساحبين سير اللجام والعنان الجلديين معهما، واختفيا خارج القلعة
والطريق المؤدي إليها. أصبح الحوذي الآن من دون عمل، كما أن الخطر
كان يحدق بحياته، لذا قفز من العربة، وسقط على جانبه، ومن خلال
الحكم على الطريقة التي ترنح بها على قدميه قبل أن يبدأ بالعدو هارباً
بدا أنه لم يتأذى.

لم تكن العربة محظوظة، فقد تدحرجت وتحطمت على يسار الدعامة،
وصدر عنها صوت تحطم رهيب. فقد انهارت العجلتان اللتان كانتا في
الجهة اليمنى، وأرسلتا العربة بشكل مائل إلى الأمام. أما عجلتا الجهة
اليسرى فقد غزلتا على محوريهما وطارتا بعيداً خلف السور.

تشارك كل من شارلوك وفون وبينو وهولتزنبرك المشهد المروع، ثم ركضوا بأسرع ما استطاعوا باتجاه موقع التحطم.

وقبل أن يصلوا إلى هناك، خرج ثلاثة رجال من تحت حطام العربة، ونفضوا كسرات الخشب عن ثيابهم. كانوا جميعهم يغطون وجوههم بلفاحات سوداء؛ الرجلان اللذان خطفا ألبانو بالإضافة إلى الرجل الذي رآه شارلوك في العربة. وحين شاهدوا شارلوك ورفيقه يندفعون نحوهم أصيبوا بالهلع، وأطلقوا سيقانهم للريح، وهربوا عبر الفجوة بين الدعامتين. وفي غضون لحظات، أصبحوا خارج مرمى البصر.

انتابت شارلوك مشاعر رهيبة حين أدرك ما سيجدونه تحت أنقاض العربة المحطمة. لم تكن هناك أي دلائل تشير إلى أن ألبانو قد يخرج سليماً من هذه الحادثة. فقد قدر أن يكون قد أصيب بشكل خطير؛ هذا إن لم يكن قد فارق الحياة.

وصل الثلاثة إلى ركام العربة السوداء، وبدأوا برفع الخشب ورميه بعيداً في محاولة لإنقاذ ألبانو؛ إلا أنه لم يكن تحت الأنقاض.

ولما وصلوا إلى العشب والحصى من دون أن يجدوا له أثراً، استقاموا وأخذوا يحدقون حولهم، ويبحثون عن قطعة من الحطام تكون كبيرة كفاية لإخفاء جسد ألبانو. ولكنهم لم يجدوا شيئاً، فقد حركوا كل قطعة من الحطام من دون أن يجدوه.

سألها شارلوك: " كم رجلاً يركض هارباً من العربة شاهدتما؟ ". كان متيقناً من العدد، ولكنه لم يصرح به أمامهما، فقد أراد أن يسمع منهما من دون أن يؤثر عليهما بما يذكره هو.

قال هولتزنبرك: " هرب الحوذي أولاً، ثم تبعه الرجال الثلاثة الذين كانوا داخل العربة؛ الذين كانوا يغطون وجوههم بلفاحات سوداء ".
أوما فون وبينو: " الحوذي أولاً، والرجال الثلاثة الذين كانوا داخل العربة لاحقاً ".

تساءل شارلوك: " بمعزل عن الحوذي، كم رجلاً كان داخل العربة قبل اختطاف ألبانو؟ ". كان هذا هو السؤال الأساسي. لقد رأى ثلاثة رجال؛ اثنين ترجلا من العربة وخطفا السيد ألبانو، فيما الثالث لم يبارح العربة. ولكن، ربما كان مخطئاً، وكانا رجلين وليس ثلاثة.

قال فون وبينو بشكل حازم وحاسم: " كانوا ثلاثة، اثنان منهما ترجلا من العربة وخطفا السيد ألبانو. ولقد شاهدت رجلاً ثالثاً في الداخل، لقد شاهدته بوضوح، إنه لم يخرج من العربة على الإطلاق ".

أوما هولتزنبرك مؤكداً ما قاله فون وينو: " كانوا ثلاثة. ظل واحد داخل العربة، فيما خرج اثنان منها " .

" إذًا، أين السيد ألبانو؟ وماذا حل به؟ " .

قال فون وينو بكآبة: " ربما عبر إلى البعد الآخر، وربما أنقذ من قبل روح صديقة " .

" في المقام الأول، السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ماذا كان يفعل خارج القلعة؟ " .

" قال إنه قلق من الهجوم الذي تعرض له شقيقك، وأراد المغادرة. وحاول السير شادراتش تهدئته وحمله على البقاء عندما - " .

قاطعهم صوت يقول: " ما الذي يحدث هنا على وجه التحديد؟ كاد رأسي يقطع بواسطة عجلات غزلت بالقرب منه، وكاد حصانان يدهسانني، ثم مر بالقرب مني أربعة رجال مقنعين. لم أكن أتوقع هذا النوع من الاستقبال على الإطلاق " .

بعث الصوت - العميق وذو النبرة - رجفة في عمود شارلوك الفقري، فالتفت إلى الطريق خارج البوابات. كانت هناك عربة متوقفة، وكان يترجل منها رجل ضخم ووقور يرتدي بذلة بيضاء ويعتمر قبعة بيضاء ذات حافة عريضة. كان وجهه مسفوحاً بأشعة الشمس ومجعداً. أما عيناه فكانتا زرقاوين باهتتين.

قال شارلوك: " سيد غروي، لم أكن أتوقع أن ألتقيك هنا؟ " .

" وأنا أيضاً، على الإطلاق " . وتقدم ناحية شارلوك، ولمس كتفه قبل أن يتصافحا بكل وقار. " كان يفترض بي أن أتوقع وجودك هنا ما دام مايكروفت هنا. إنني سعيد برؤيتك " .

" ماذا تفعل هنا؟ " .

" أنت رجل ذكي. أكنت تعمل معه؟ " .

غمر نور المنطق الساطع عقل شارلوك، وكشف عن الجواب الواضح، فقال: " أنت الممثل الأميركي المكلف بالمزايدة على خدمات السيد ألبانو " . " بالضبط. أقدم اعتذاري على التأخير " . وأشار إلى العربة خلفه بإبهامه. " لقد فاتتنا المعدية لأن ابنتي كانت تتسوق " .

حدق شارلوك من فوق كتف أميوس غروي باتجاه العربة التي أتت به من المدينة. للحظة، كل ما استطاع رؤيته كان العربة والحوذي والحصانين والأمتعة.

ثم ما لبثت فرجينيا أن ظهرت من خلف الحوذي، وانفطر قلب

شارلوك مجدداً.

الفصل السابع

قال أميوس غروي وهو يريح جسده على الكرسي: "حسناً، لم أكن أتوقع أن ألتقيك مجدداً في مثل هذه الظروف". في تلك الأثناء، أصدرت نوابض الكرسي صريراً وهي تعاني من ثقل وزنه.
ردّ شارلوك: "وأنا أيضاً".

كانا يجلسان في قاعة الاستقبال في القلعة؛ القاعة ذاتها التي تكلم فيها شارلوك سابقاً مع شقيقه المصاب. في الدقائق العشرين السابقة، كان السيد أميوس غروي منشغلاً في عرض أوراق اعتماده على السير شادراتش كوينتلان، ثم عرفه إلى ابنته، والتقى الممثلين الآخرين، وراقب عملية تفريغ الأمتعة. تجنبت فرجينيا شارلوك طوال تلك المدة. وكان مدركاً للألم الذي يسببه له تواجدها. عندما عُرض عليهم بعض الطعام الخفيف قبل السيد أميوس العرض، أما فرجينيا فقد تذرعت بالتعب الذي ألمّ بها من جراء الرحلة واعتذرت، وتوجهت إلى غرفتها لكي تستلقي. وتذكر شارلوك كيف أثر فيها السفر عبر البحر في طريق قدومها من نيويورك.

ربما كانت فرجينيا متعبة حقاً، أو إنها تتحاشى التحدث إليه؛ هذا ما حلله في جزء من دماغه الثائر.

سأل السيد غروي: "أين السيد مايكروفت هولمز؟".

"إنه يستريح في غرفته بعد الاعتداء الذي تعرض له صباح اليوم في المكتبة".

"اعتداء! ". تجعد وجه السيد غروي، وأخفت التجاعيد الجلدية عينيه.
"هل هو اعتداء له علاقة بما حصل مع ألبانو؟ أم إنه مجرد اعتداء عرضي؟".

هز شارلوك كتفيه وقال: "ربما الاحتمال الأول؛ ولكن الدافع غير واضح. ربما أراد أحدهم تحسين حظوظه في المزايدة من خلال استبعاد المنافس الأوفر حظاً، أو أراد أحدهم أن يدفع بالسعر نحو الأعلى من خلال إظهار أن السيد ألبانو يستحق المحاربة من أجله. وهذا يعني أن الشبهات تدور حول جميع الموجودين من دون استثناء".

أوماً غروي: "هذا تحليل محكم وبلغ للوضع. وربما ستخبرنا الأحداث القادمة بالتحليل الصحيح".

"كيف؟".

"حسناً، إذا كان الاعتداء بهدف استبعاد المنافسين، فعلى الأرجح ستطال

اعتداءات أخرى ممثلين آخرين. فإذا أردت أن تقلص دائرة المنافسين، فلن يقتصر الأمر على استبعاد واحد فقط من الممثلين". ابتسم وتابع: "بالطبع، لن تستهدف الاعتداءات الجميع؛ لأنها إذا استهدفت الجميع باستثناء شخص واحد فعندها سيكون هو المسؤول".

"ولكن، ماذا لو كانت الاعتداءات قد أعدت بهدف جعل خدمات السيد ألبانو سلعة قيمة تستحق القتال من أجلها؟".

فقال غروي: "عندها، يفترض بالسيد ألبانو الظهور من جديد، وإلا لما كان هناك سبب للمزايدة على شيءٍ مختفٍ. سوف يعود ويروي لنا قصة حمقاء حتى يبدو مهماً وذا نفوذ". توقف هنيهة وسأل شارلوك: "كيف حال شقيقك؟ هل يتعافى؟".

"بدا جيداً عندما تحدث بعد أن استعاد وعيه. لا تبدو إصابته خطيرة. لقد استدعوا الطبيب لكي يعاينه، ولا أعلم إن كان قد أتى أم لا؛ فقد كنت في المدينة أرسل برقية بالنيابة عنه".

"لا بد أنها كانت عبارة عن أسطر يطلب فيها زجاجات من الشراب وكعكاً بالقشدة، مدعياً أن الضيافة هنا ليست مثالية".

ابتسم شارلوك وقال: "في الواقع، الضيافة هنا جيدة جداً. ما من شك في أن الوجبة مساء أمس نالت استحسانه".

"إذاً، هل التقيت السيد ألبانو؟ وهل هناك احتمال بأنك شاهدت عرضه؟".

كان شارلوك على وشك الإجابة عندما انتبه فجأة إلى أنه لا يتحدث مع صديق، بل يتحدث مع منافس محتمل. وقد التمع في ذهنه تساؤلات عما قد يرغب مايكروفت في أن يصرح به: قل الحقيقة، لا تقل شيئاً، أو قل إن السيد ألبانو يبدو محتالاً لكي تخفف من احتمال تقديم السيد غروي عرضاً جدياً بالنيابة عن الحكومة الأميركية. هز رأسه. الأمر معقد. فكر بالشيء الأفضل الذي يفترض به القيام به.

أخيراً، قرر أن الشيء الأفضل الذي يفترض به القيام به هو قول الحقيقة من دون أن يهتم بالنتائج؛ فهو يعرف السيد غروي ويثق به، وكذلك شقيقه. كما أن السيد غروي يمكنه أن يتساءل إن كان شارلوك يقول الحقيقة أو يكذب. أياً يكن الأمر، سيقول شارلوك الحقيقة؛ على أساس أن كل ما قد يقوله يمكن أن لا يصدقه أحد.

قال غروي بنعومة: "هذا تصرف حكيم. قل الحقيقة دائماً إن كنت تستطيع. فبذلك ستربك أعداءك، وأنت تعلم أنني لست عدواً".

سأله شارلوك: "كيف عرفت ما أفكر فيه؟".

"الأمر في غاية البساطة بالرغم من أنه يبدو حيلة جيدة من حيل المجالس. حيرتك بعد طرحي السؤال عليك أشارت إلى أنك محتار في ما يجب عليك أن تخبرني إياه، فقد نظرت إلى الأعلى حيث أفترض أن غرفة مايكروفت تتواجد، وقد بدوت وكأنك تريد أن تعرف ما الذي يريد منك قوله. ثم نظرت إليّ، ولكنك لم تركز نظراتك على وجهي؛ وهكذا يبدو مظهر الأشخاص الذين يتذكرون شيئاً ما؛ أفترض أنك تذكرت شيئاً ما قمت به معك. ثم نظرت إلى الأسفل باتجاه اليمين، وهذا ما يشير إلى أنك ترتب أفكارك بشكل منطقي قبل أن تخبرني. الأشخاص الذين يكذبون ينظرون غالباً إلى الأسفل نحو اليسار. إنه شيء غريب ولكنه يستحق المعرفة؛ شيء تقوم به بإحدى جهتي دماغك. إنني أعتقد أنها الجهة التحليلية أو الجهة التي تستخدمها لبناء قصة".

"إنه أمر ينم عن الذكاء، وسوف تعلمني كيفية القيام بذلك؟".

أجابه غروي وفي صوته نغمة حزينة لم يستسغها شارلوك: "إن كانت لدينا فرصة للدراسة مجدداً". ثم تابع بخفة قائلاً: "والآن، ما رأيك بالسيد ألبانو؟".

قال شارلوك بشكل مباشر: "إنه محتال. لم أتمكن من معرفة كيفية قيامه بحيله حتى الآن، ولكنني متأكد من أنه يقوم بالحيل".

"ما هي الأمور التي يقوم بها؟".

"رسائل مكتوبة بالطبشور تظهر على لوحة خشبية، بالإضافة إلى قطعة خشبية تتحرك وتشير بالتسلسل إلى أحرف تتيح تهجئة كلمات الرسالة، كما أنه ينتج مادة تسمى الاكتوبلازما ويمكنها أن تتخذ شكل روح مفترضة...".

"إنها الأمور المسرحية المعيارية، ولا شيء أذكى من ذلك".

"بالتأكيد".

"وهل يوافقك شقيقك الرأي؟".

"نعم".

أوماً غروي ببطء وقال: "كما توقعت، مايكروفت وأنا في الموقع نفسه. تبدو الأقل اقتناعاً من بين سائر الممثلين. ومما قلته، لا أستطيع تخيل أنني سأكون أكثر اقتناعاً عندما أشاهد عروضه بنفسه".

عندئذ سأله شارلوك: "إذاً، كيف أصبحت ممثل أميركا؟".

"أخبرني أنت يا فتى".

فكر شارلوك هنيهة ثم قال: "لقد وصلت الدعوة متأخرة، حيث لم

يكن باستطاعة الحكومة الأميركية إرسال شخص من أميركا. أو ربما فكرت الحكومة أنه لا يجدر بها أن تكبد شخصاً من أميركا عناء القدوم إلى هنا لمشاهدة شيء يبدو أنه خدعة، فتم البحث عن شخص قريب من هذا المكان من الناحية الجغرافية، ربما يكون أحد أفراد السفارة في لندن، ولكن لسبب ما تم اختيارك بدلاً منه". أغمض شارلوك عينيه لفترة وجيزة ليساعد نفسه على التركيز، ثم تابع: "أفترض أنهم بحثوا عن شخص يثقون به، ولديه سمعة طيبة بأن الخدع لا تنطلي عليه، وهذا ما قادهم مباشرة إليك".

"بالضبط".

فكر شارلوك بما كانا يتحدثان عنه قبل فترة، فسأل غروي: "برأيك، كيف دبرت عملية الاختطاف؟".

"لا أعرف يا بني، فأنا لم أكن هنا، بل أنت. أخبرني، ماذا رأيت؟". أغمض شارلوك عينيه مجدداً مستعيداً الأحداث، وواضحاً إياها في تسلسل منطقي، مدركاً أن السيد غروي أشار منذ قليل إلى أن إغماض العينين إشارة على التذكر. "بالكاد كنت قد عدت من المدينة، فشاهدت الأحداث من الخارج بالقرب من الطريق. الجميع كانوا على مقربة من القلعة. كان ألبانو خارج القلعة، ومن الواضح أنه كان مغادراً. وكان هناك نوع من المشاجرة بينه وبين السير شادراتش. واستناداً إلى تجاربنا السابقة، توقعت أن للأمر علاقة بالاعتداء الذي تعرض له مايكروفت. ربما كان خائفاً. أياً يكن الأمر، كان يسير باتجاهي، عندئذ وصلت العربة وتوقفت أمامه، وقفز منها رجلان. ولكنني لاحظت وجود رجل ثالث في الداخل. كانوا جميعاً يغطون وجوههم بلفاحات، وكان الحوذي رابعهم. الرجلان اللذان قفزا من العربة أوقعا ألبانو أرضاً، وقام أحدهما بإقحام كيس في رأسه، ثم حملاه وألقيا به داخل العربة، وبعد ذلك صعدا إليها وانطلق الحوذي بالعربة، ولكنها انحرفت عن مسارها وتحطمت. لقد هرب أربعة رجال منها، وهم الرجال الذين يغطون وجوههم. طيلة هذا الوقت، كانت العربة تحت مرمى ناظري؛ أي منذ بدء عملية الخطف وحتى تحطم العربة. ولكن السيد ألبانو لم يظهر، ولم يغادر مع الهاربين. وعندما وصلت إلى العربة مع الآخرين كانت خالية ولا أثر له فيها".

أوماً غروي بهدوء: "هذا سرد جيد وموجز أيها الشاب. لم يصب دماغك بالركود من جراء سفرك الطويل. هناك شيئان يلفتان نظري. أولهما أن أولئك الخاطفين محظوظون لأنهم وجدوا السيد ألبانو خارج القلعة في

الوقت الذي وصلوا فيه. فلو كان في الداخل، ماذا كانوا سيفعلون؟ هل كانوا سيدخلون ويبحثون عنه!؟".

قال شارلوك: "تحليل جيد. هذا يعني أنهم كانوا يعلمون أنه في الخارج في تلك اللحظة بالذات. والشخص الوحيد الذي يعرف أنه سيكون في الخارج في ذلك الوقت هو السيد ألبانو نفسه".

"أما النقطة الثانية فهي أنه من حسن الحظ أن الجميع كانوا في الخارج وشاهدوا السيد ألبانو يبتعد، والجميع شاهدوه يختطف، والأكثر أهمية أنهم شاهدوا اختفاءه؛ إن في الأمر حيلة، وكل حيلة تحتاج إلى حشد من الجمهور ليشاهدها".

قال شارلوك: "مجدداً، كان ألبانو هو من افتعل المشاجرة. وإذا كان قد بدأها في الداخل فسيلاحظ الموجودون ما يحصل، وسيتخلون عن فكرة تقصي حقيقة الأمر. ولما كان يريد أن يشاهد الجميع ما سيحدث في الخارج فقد غادر، وحين تبعه السير شادراتش والجميع صار لديه حشد مثالي". أخذ نفساً عميقاً وتابع: "إذاً، هي حيلة، وقد دبرها السيد ألبانو، أو على الأقل دبرت بعلمه ومساعدته. وهذا يعني أنه يمكننا توقع ظهوره مجدداً خلال فترة وجيزة، كما تقول".

أضاف غروي: "هناك نقطة أخرى".

"ما هي؟".

"أخبرني بها أنت".

فكر شارلوك قليلاً ثم قال: "إذا كنا محقين، وإذا كان ألبانو هو من دبر عملية الاختطاف ثم الاختفاء، أو على الأقل كان على علم بما حدث، فهذا يعني أنه كان من المهم أن يحدث التحطم داخل أسوار القلعة؛ فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن نعلم فيها أنه اختفى. فلو حصل التحطم على بعد نصف ميل مثلاً، ولم يحدث هنا، كنا سنعتقد عندما نصل إلى هناك أن السيد ألبانو يهيم في المكان. لا يمكن للاختفاء أن يكون غامضاً إلا إذا حصل أمام أعيننا؛ وهذا يعني أن التحطم قد تم التحضير له لكي يحصل حيث حدث. ولكن، كيف؟".

"أوه، بطرق عدة".

"ولكن، ماذا بشأن الاختفاء من العربة؟ كيف دبر ذلك؟".

عبس غروي مستنكراً: "إنك تفاجئني يا شارلوك. إنه الأمر الأكثر

بساطة في كل ما نتحدث عنه، وهناك جواب واحد له. فكر به".

قال شارلوك مبدلاً الموضوع: "أوه، نسيت أن أخبرك، إحدى الخادמות

ماتت اليوم. لا أعلم إن كان هناك رابط بين موتها وبين أي شيء آخر يحدث هنا، أو إن كانت تلك مجرد صدفة مأساوية، ولكنني أنا من عثر عليها في الخارج. لم تكن هناك أي علامات على جسدها، ولكن ارتسمت على وجهها تعابير شخص مرتعب، ولم تكن تنتعل حذاءً.

"من الصعب العثور على رابط بين ما تقوله وأي شيء آخر. فالتعبير المرتعب المرتمس على الوجه يمكن أن يكون من جراء الوفاة بسبب ضعف في القلب، وقد شاهدت حالات من هذا القبيل سابقاً. دعنا ننحي ذلك جانباً الآن". وحدثني إلى شارلوك بتمعن قائلاً: "ولكنني أعتقد أن هناك سؤالاً تجنبت طرحه طوال الوقت خلال محادثتنا. أتريد أن تطرحه الآن أم إنك تريد أن تتظاهر بأن كل شيء على خير ما يرام؟".

شعر شارلوك فجأة باختناق في حنجرته؛ مما حال دون أن يتفوه بأي شيء لبعض الوقت. أراد أن يسأل عن فرجينيا، ولكنه لم يكن متأكداً من أنه يريد أن يعرف الإجابة. هل من الأفضل أن يتظاهر بأن كل شيء على ما يرام، ويتابع مع ابتسامة تملو وجهه؟

قرر أنه من الأفضل على الدوام أن يعلم المرء الحقيقة؛ مهما كانت مؤلمة، لأن الألم دليل على أن الجرح بدأ يندمل. سأل شارلوك بهدوء: "كيف حال فرجينيا؟".

"الجواب المختصر: إنها تكبر. فهي لم تعد تلك الفتاة التي عرفتها منذ سنة أو سنتين. اللعنة، إنها ليست الفتاة التي عرفتها أنا قبل سنة أو سنتين؛ أنا والدها". وهز رأسه بحزن. "إنني على علم بما كنت تكنه تجاهها من مشاعر. حتى إنني أعرف أنك لم تكن تعرف مقدار المشاعر التي تكنها تجاهك، وأعرف أنها كانت تبادلك المشاعر نفسها؛ على الأقل بطريقتها. ولكن المشكلة تكمن في سفرك لمدة سنة. وقد تراقق سفرك مع نموها. فقد أصبحت تفكر في الفتيان، والزواج، والمستقبل، ولم تكن أنت موجوداً. هناك مثال متداول منذ القدم بين الناس مفاده عصفور باليد خير من عصفورين على الشجرة. وهذا يعني أن الأشياء التي تمتلكها أفضل من الأشياء التي تكون أفضل منها ولكنك لا تمتلكها. أعتقد يا شارلوك أنها فكرت في انتظارك، ولقد فكرت في ذلك جيداً. ولكنها في النهاية توصلت إلى خلاصة؛ وهي أنها غير واثقة من أنك ستعود يوماً ما. كان عليها الاختيار يا بني؛ إما أن تنتظر وتبقى محافظة على الوعد والعهد، أو ترتبط بمن هو متوافر أمامها".

"وقد التقت أحدهم، وهذا كل ما في الأمر، أليس كذلك؟".

عبس غروي وقال: "لم يكن الأمر على هذا النحو يا بني، لقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً. لقد التقت فرجينيا ترافيز بشكل طبيعي؛ تماماً كما التقيتما، في المنزل. إنه يمطي الحصان كمن ولد على صهوته. لقد تحدّثا لوقت طويل. إنه جيد ومستقيم ووسيم، ولم يكن من الممكن أن لا تعجب به. لقد أبقتة بعيداً عنها لسته أشهر، ولكن في النهاية أتت إليّ ذات ليلة، وسألتنني إن كنت أظنك ستعود". توقف قليلاً قبل أن يكشر ويتابع: "أريد أن أكون صادقاً معك يا شارلوك. لقد قلت لها إن هناك احتمالاً كبيراً بأن تلتقي شخصاً آخر خلال مغامراتك، أو أن تقرر البقاء في إحدى الدول التي زرتها، أو ربما تذهب إلى الهند لتبحث عن والدك، كما يمكنك أن تلتقي فتاة أخرى وتقع في غرامها. وحتى لو عدت بعد سنة أو أكثر، فمن الممكن أن تكون قد غيرت رأيك. لقد فكرت فرجينيا في كل ما قلته لها، وأعتقد أنها اتخذت قرارها. فعصفور باليد خير من عشرة على الشجرة. في تلك الأثناء، أضحت علاقة ترافيز وفرجينيا أكثر جدية، وتقدم لطلب يدها". تنهد غروي بعمق وتابع: "لم أكن أفكر، كما أنني لم أكن أتمنى أن تأخذ الأمور المنحى الذي اتخذته. ولكن تمني أمور يعرف المرء أنها لن تحدث أمر سخيّف. لذلك، علينا أن نتقبّل العالم بالحالة التي هو عليها؛ من دون محاولة التأثير في الأحداث".

وجد شارلوك نفسه رافضاً لهذه الفكرة؛ فهو يرفض تقبّل العالم كما هو، ويريد أن يُغيّر العالم.

لم يكن ما يفكر فيه شارلوك منصفاً بحق فرجينيا؛ فقد اتخذت قرارها. ومحاولة الظفر بها مجدداً تبدو استخفافاً برأيها وقرارها. ولكن ما يهمه هو ما يرغب به ويتوق إليه. ولكن بالطبع لم تكن تلك هي الرسالة الضمنية التي يود أن يرسلها لها. لقد أراد أن تتخذ قرارها بنفسها. في تلك الأثناء، سأل شارلوك السيد غروي: "هل هناك فرصة بأن تغير رأيها بما أنني قد عدت؟". قال ذلك وهو يشعر بثقل المشاعر التي تعتمل في صدره.

هزّ غروي كتفيه وقال له: "أنت تعرف يا بني كم هي عنيدة. وما من شخص قادر على حملها على تغيير رأيها ما لم تقرر هي ذلك. إن أفضل شيء يمكنك القيام به هو البقاء بالقرب منها كصديق، والتكلم معها. وفي النهاية، دعها تقرر ما تريده". عبس وتابع: "ولكن، ليس الوقت في صالحكما، فعلينا الذهاب إلى الولايات المتحدة ما إن ينتهي الأمر الذي نحن بصدده هنا، لسببين. الأول، لأن الحكومة تريد تقريراً شخصياً مني عن

السيد ألبانو. أما السبب الثاني فهو أن البنكرتون لديهم عمل لي. فبعد موت بروس سكويل لم يعد هناك ما يهدد حياتنا".

همس شارلوك: "هل ستغادر؟". وأحس بالثقل الذي شعر به في قلبه سابقاً، ولكن هذه المرة بدا له وكأن قلبه يغرق في صدره.

أجابه أميوس غروي ببساطة: "إن الأمور تتغيّر يا شارلوك".

"عندما كنت أصغر سنّاً، لم أكن أرغب في أن تتغير الأمور، بل كنت أفضل أن تبقى على حالها من الاستقرار. ولم أكن أريد أن يتغير أصدقائي أيضاً". كان يعلم أن ما يقوله قاسٍ، ولكن لم يكن في وسعه إلا قوله.

"لقد شعر شقيقك بالشيء نفسه، ولهذا السبب يمضي معظم وقته في نادي دياغيز؛ لأن ذلك المكان لم يتغير منذ أن شيد ولن يتغير". توقف هنيهة ثم قال: "أخبرني عن شقيقك، يفترض بي عيادته والاطمئنان عليه. ولكن، قبل أن أقوم بذلك، أخبرني عن الصين، كيف هي؟ لقد سمعت إشاعة عن الأمور العظيمة التي قمت بها للبحرية الأميركية عندما كنت هناك، وإنني أتوق لمعرفة المزيد عن ذلك".

أمضى شارلوك الساعة التالية، أو نحو ذلك، وهو يخبر السيد أميوس غروي تفاصيل مغامراته في شانغهاي وعلى متن غلوريا سكوت. كان غروي مهتماً بشكل خاص بالغريب السيد أرينيوس وابنته المتوحشة، وقام شارلوك بشرح تفاصيل مؤامرة نفس السفينة يو أس أس مونوكاسي وبدء الحرب، وكيف أنه اكتشف مكان القنبلة والمفجر وكل ما له علاقة بالقصة. وفي النهاية، صفق غروي معجباً.

"من المؤكد أن حياتك ليست سهلة. إنني أحسدك على مغامراتك التي قمت بها. كما أنني فخور بالطريقة التي استخدمت بها دماغك لإيجاد حل للمشاكل، وتخطي المخاطر. في الحقيقة، إنني ممتن لك بالنيابة عن حكومة الولايات المتحدة لما بذلته من جهود. قد تكون للحرب في الشرق الأقصى فائدة لبعض رجال الأعمال، ولكنها ليست شيئاً يرغب الرئيس بحدوثه. وهذا الأمر ينطبق أيضاً على الأشخاص ذوي المناصب العليا في الحكومة. ولكنني قلق من احتمال تورط بارادول تشامبر. هل أنت ومايكروفت متأكدان من وجود رابط بين بارادول والأمر؟".

هز شارلوك كتفيه: "ما من دليل حسيّ، ولكن المؤشرات تشير إلى أن بارادول تشامبر تريد حرباً في الشرق الأقصى أكثر بقليل مما يريده رئيسك".
أوماً غروي وقال: "يبدو الأمر شديد التعقيد، أمل أن أرى نهاية لبارادول تشامبر، ولكنني أشك في الأمر". عندئذ، بدأ يحرق نفسه من

الكرسي الذي كان صغيراً جداً مقارنة بجسده الضخم. ونظراً لانحشار وركيه فيه، كاد يسحبه معه عندما هم بالنهوض. "سأذهب لعيادة شقيقك. ماذا عنك يا بني؟".

نظر شارلوك حوله، محاولاً التأكد من أنه ما من أحد يقف عند الباب وقال: "سأذهب لاستقصاء غرفة السيد ألبانو بأمان ما دام مختفياً. أريد أن أرى إن كان باستطاعتي معرفة الطريقة التي ينفذ بها حيله. كما أنني أريد التفكير لبعض الوقت في طريقة اختفائه".

"فكرة سديدة يا بني. أعلمني بالنتائج التي ستوصل إليها".

غادرا معاً قاعة الاستقبال متجهين إلى المصعد، وشرح شارلوك للسيد غروي كيفية عمل المصعد، وصعدا معاً إلى الطابق الثاني. ترك شارلوك السيد غروي أمام غرفة شقيقه، وتوجه إلى الطابق الثالث، وسار على طول الممر الذي يفضي إلى البرج الثاني حيث تقع غرفتا السيد ألبانو والسير شادراتش كوينتلان. كانت نيف قد أعلمته أين تقع غرفة ألبانو في أثناء الجولة التي قاما بها معاً بعد الفطور. وقف شارلوك أمام باب الغرفة، وأدار مقبض الباب، ودخل بسرعة. كان يقف في وسط الغرفة عندما فكر أنه من الممكن أن يكون السيد ألبانو قد تسلل عائداً إلى غرفته بعد عملية الخطف المفبركة؛ هذا إن كانت مفبركة حقاً.

لحسن الحظ، كان ما فكر به في غير محله، وكانت الغرفة فارغة. جال ببصره في أرجاء الغرفة، وفهرس في ذهنه كل ما هو موجود فيها؛ فقد أراد أن يغادر الغرفة بعد أن ينتهي من عملية البحث من دون أن يترك أثراً يشير إلى دخوله أو إلى عملية البحث التي قام بها. فقد كان السيد ألبانو مثال الدقة والترتيب. وقد لاحظ أن كل شيء كان موضوعاً في الغرفة في المكان المخصص له ومرتب بعناية. بدأ شارلوك عملية البحث في خزانة الثياب، حيث يعلق ألبانو ثيابه، وبحث في كل الجيوب، وتأكد من أنه ما من شيء مخفي خلف حواشي الثياب؛ ولكنه لم يتمكن من العثور على أي شيء. ثم بحث في جوارير المنضدة، وبعد ذلك انحنى وبحث أسفل السرير؛ ولكنه لم يجد هناك شيئاً باستثناء بعض الأحذية الملمعة بشكل ممتاز. ثم بحث خلف اللوحات المعلقة على الجدران، قبل أن ينتقل للبحث في أعلى الخزانة؛ ولكنه لم يجد شيئاً هناك أيضاً، فعاد إلى المنضدة، وأبعدها عن الحائط، لكنه لم يجد خلفها أكثر من خط من الغبار. ذهبت كل جهوده أدراج الرياح.

تذكر تلك المرة التي قام فيها بالبحث في غرفة السيدة اغلانتين مدبرة

المنزل في بيت عمه وعمته في عزبة آل هولمز، حيث وجد ضالته مخفية في الخارج؛ متدلية من الحبل، فقام بفتح نافذة الغرفة، ونظر خارجها ليرى إن كان ثمة شيء مخفي عند حافة النافذة، أو متدلٍ منها، ولكن حجارة القلعة لم تظهر أي شيء مخفي عليها، فعاد ونظر إلى أسفل السجادة التي تتوسط الغرفة، لكنه لم يجد أي أوراق أو أي دليل على وجود ممر سري أسفلها. وقف في وسط الغرفة مجدداً، وجال بنظره محبطاً في أرجائها، وكانت أفكاره على وشك النفاد. وعندها، ألقى نظرة خاطفة مجدداً على السرير، فوجد ستارة قصيرة مزخرفة تحيط بحافة الفراش مطوية عند نصف المسافة التي تفصلها عن الأرض. لم يكن قد انتبه إليها عندما بحث أسفل السرير.

سجد مجدداً على ركبتيه، ورفع الستارة المزخرفة كلياً، ثم نظر أسفل السرير مجدداً. هذه المرة، ركّز اهتمامه على البحث أسفل الفراش. كانت هناك عبة معلقة أسفل الفراش، وكانت معلقة بخطافات موجودة في زواياها الأربعة بالنوابض المعدنية للسرير. أولاها شارلوك عنايته قبل أن يأخذها، حتى يتمكن من إعادتها إلى مكانها مجدداً؛ في الحالة التي كانت عليها تماماً. بعد ذلك، قام بسحبها بلطف. كانت العبة بحجم صندوق حذاء. وضعها على السجادة، ثم حل الرباط الذي يثبت الغطاء ورفعها.

في الداخل، كانت هناك مواد بيضاء نظيفة جداً وخفيفة جداً. كان وزن الغطاء يدفعها إلى الأسفل، ولكنه عندما رفع الغطاء انتفتحت، ورفعت معها شيئاً آخر كان موجوداً في العبة؛ وكأنه كان يراد من ظهورها على هذا النحو لفت انتباهه.

استغرق الأمر منه لحظات ليتبين حقيقة الأمر، ويعرف ما هو هذا الشيء. فقد كان أبيض وصغيراً، وكان له طرفان؛ أحدهما مدبب وينتأ منه شيء حاد، أما الآخر فمسطح، وبدا وكأنه مغطى بالقطن وينتهي بخطاف صغير. حمله شارلوك بحذر شديد، وعندها أدرك أن ما ظنه لوهلة مسطحاً كان في الحقيقة أجوف. ومن خلال حجمه تمكن مباشرة من معرفة ما هو، وما هي وظيفته. كان كشتباناً؛ وهو عبارة عن قطعة معدنية توضع في أعلى البنان، وكان النتوء الحاد الخارج منه عبارة عن كسرة من الطباشير. وما ظنه في البدء قطناً كان عبارة عن مطاط؟

شمّ شارلوك الكشتبان وأوماً برأسه؛ فخلال جلسة التحضير كان ألبانو يضع قفازين. وإذا كان الكشتبان مخفياً تحت الكمين أو داخل السترة،

فباستطاعته إخراجه وإدخال بنانه فيه من دون أن ينتبه إليه أحد؛ وهذا ما مكّنه من كتابة الرسائل على اللوح الخشبي عندما كان يحمله أسفل الطاولة. وعندما كان ينتهي من الكتابة، فكل ما كان عليه فعله هو نزع الكشتبان من بنانه، وعندئذٍ تسحبه القطعة المطاطية وتعيده إلى الخلف. إنها فكرة مبدعة، وما يزيد من إبداعها هو بساطتها.

وضع الكشتبان على أحد جانبيه، وتفحص المادة التي كان يشك في ماهيتها، ولكنه لم يكن متأكداً منها. أخرجها من العلبة. لم يكن لها وزن يذكر، إذ كانت خفيفة جداً إلى درجة أنها كادت تطفو على يديه. تفحصها عن قرب، ووجد عدة قطرات صغيرة عليها.

ما من شك في أنها الاكتوبلازما التي انبثقت من فم ألبانو أثناء جلسة التحضير. كانت لينة جداً إلى درجة أنه يمكن تكويرها لتصبح كرة صغيرة، بالكاد أكبر من الكشتبان، ويمكن إخفاؤها في أي مكان.

شم المادة بحذر شديد. كانت قد غسلت منذ فترة قصيرة بمادة كربوليكية. وهذا شيء جيد، ويؤكّد له أن المكان الذي يشتبه بأن السيد ألبانو قد أخفى فيه المادة صحيح. فقد كان يشك بأنه أخفاها في فمه بين خده وأسنانه. لم تكن مبتلة بفعل اللعاب؛ إذ ربما عولجت بمواد كيميائية مانعة للرطوبة. وكان باستطاعة ألبانو إخراج هذه المادة بسهولة حين تظاهر بأنه يختنق. لقد توقع أن تكون قد نعتت بمادة كيميائية تتوهج في الظلام؛ مما يعطيها مظهراً شبيهاً في الظلال التي تكتنف ظلام جلسة التحضير.

لم تكن فكرة مبدعة فقط، بل كانت لامعة ومبتكرة. كانت فكرة بسيطة ولكنها فعالة.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف استطاعت المادة أن تتمدد إلى الخارج وتطفو في الهواء؟ وماذا بشأن الوجه الذي بدا وكأنه يتجسد داخل الكفن؟ كان هذان السؤالان لا يزالان بحاجة إلى إجابتين. ولكن، في الوقت الحالي كون شارلوك فكرة عامة عن الحيلة والخدعة. إنه عبقرى.

بعناية، أعاد شارلوك المادة إلى العلبة، ثم وضع الكشتبان أعلاها، وأحكم إغلاق الغطاء، وأعاد الصندوق إلى مكانه أسفل الفراش، وأعاد الستارة المزخرفة إلى الحالة التي كانت عليها.

وقف، وألقى نظرة بطيئة حوله في أرجاء الغرفة، وبقدر المستطاع حاول أن يتأكد من أنه لم يترك أي أثر خلفه.

غادر الغرفة بسرعة؛ إذ لم يكن يعرف إن كان أحد الخدم سيدخل الغرفة للقيام بأمر ما، ولكنه في النهاية غادر ولم يصادف أحداً في طريقه. غادر الغرفة، وأغلق الباب خلفه بحرص، عائداً إلى المبنى الرئيس في القلعة، ثم توجه إلى الطابق الأرضي من دون أن يصادف أحداً في طريقه. وقف في القاعة متردداً لبعض الوقت، ثم توجه إلى الخارج؛ إلى الهواء الطلق، إذ لم يكن يستطيع البقاء في مكان مغلق لوقت طويل. كانت السماء صافية أكثر مما كانت عليه قبلاً. ابتعد شارلوك عن القلعة، وسار عبر البوابة الرئيسة، وعبرَ الجسر المتحرك. لم تكن لديه فكرة مسبقة عن المكان الذي سيتجه إليه. ولكن موقع تحطم العربة التي استخدمها الخاطفون جذب اهتمامه، فراح يتجول هناك. كان مدركاً لحقيقة أن القلعة خلفه، وقد أدرك ببالغ الأسى أن فرجينيا كانت تقف خلف إحدى النوافذ. وهذا ما جعله يتنبه، ووجد نفسه يسير بتكبر مصطنع. قال مخاطباً نفسه: كم هذا سخيف! يفترض بي أن أكون نفسي. عندما وصل إلى حطام العربة، توقف عن التفكير في فرجينيا، وأجبر نفسه على التفكير في كومة الحطام بدلاً منها. انحنى وبدأ يفرز قطع الحطام. في الحقيقة، لم يكن في البداية يعرف عما يبحث بالتحديد. كان الحطام منتشراً في اتجاهات متعددة وبشكل عشوائي نتيجة البحث غير المثمر عن السيد ألبانو. وبعد مرور بضع دقائق، وجد نفسه بشكل غير واعٍ يقوم بإعادة تركيب الشكل العام للعربة.

الباب الأيسر هنا، والدولاب الأيمن الخلفي هنا، منصة الحودي هنا في الأمام، ورف المتاع في الخلف، وهذه القطع من الخشب لم يجد لها مكاناً. سحب قضيباً طويلاً كان من دون شك المحور. ولم تكن هناك طريقة لمعرفة ما إذا كان المحور الأمامي أو الخلفي. أما المحور الثاني فقد كان محطماً إلى أكثر من قطعة. لا بد أنه تحطم من جراء الاصطدام. وعندما قام بجمع قطعه ومقارنتها بالمحور الأول وجدتهما بالطول نفسه، وقد لاحظ أن مكان تثبيت إحدى العجلتين كانت تظهر عليه آثار احتكاك العجلة بالمحور.

نظر إلى المحور، وأمعن النظر إليه للحظات، فيما دارت في رأسه بعض الأفكار. فقد بدا له أن المحور قد تعرض للتخريب المتعمد، وبدأت عليه آثار نشر بواسطة منشار، ولكنه لم ينشر بشكل نهائي؛ بل كان الهدف أن ينهار المحور تحت ضغط وزن العربة بعد فترة من السير. ما من شك في أن ألبانو قد أعطى الحودي تعليمات صارمة حول كيفية القيادة؛ حيث

يتحطم المحور في الوقت المحدد، وبالتالي تنجح الحيلة.

الفصل الثامن

صعد شارلوك الدرج متجهاً إلى غرفة شقيقه لعيادته والاطمئنان عليه، ولكن مايكروفت كان نائماً، فلم يود إيقاظه. وبدا له شاحباً وواهنأ وهو متمدد على السرير وتحيط برأسه تلك الضمادة. كان السير كوينتلان قد رتب أمر وجود خادم يقف أمام باب غرفة مايكروفت طيلة الوقت، أو بالأحرى خادمة - فالمعايير مقلوبة هنا - حيث يتأكد من أن أحداً لن يحاول الاعتداء عليه مجدداً. كانت شبهات شارلوك تحوم حول خدم القلعة، وكانت هناك فكرة تجول في رأسه؛ فكرة لم يكن واثقاً إن كانت صائبة أم لا. وهي تتمثل بأن يقوم كل من السيد غروي ومايكروفت بحراسة بعضهما بعضاً في نوبات حراسة متناوبة ليلاً ونهاراً. ولكن الشبهات التي فكر بها شارلوك تجاه الخدم سرعان ما دحضاها عندما أخذ بالحسبان أن السير يريد أن يتجنب حصول أي مكروه لشقيقه. وبالتالي شقيقه بأمان؛ على الأقل هذا ما تمناه شارلوك.

سأل شارلوك الخادمة التي كانت تقف بانتباه أمام غرفة شقيقه: "هل أتى أحد سواي للاطمئنان على شقيقي؟".

أجابته الخادمة وهي تحديق إلى مكان ما في أعلى رأسه: "الطبيب يا سيدي، بالإضافة إلى رجل ضخم يرتدي بذلة بيضاء ويتحدث بلكنة غريبة". جعلته لهجتها الإيرلندية يشعر بالمرح لبعض الوقت.

ما من شك في أن الرجل ذا البذلة البيضاء هو أميوس غروي.
"هل زاره أي شخص سواهما؟".

"لا يا سيدي".

استدار شارلوك للمغادرة، لكن الخادمة تنحنت كما لو أنها أرادت قول شيء ما. حينها، استدار شارلوك نحوها مجدداً ورفع حاجبه مستعلماً.
"سامحني سيدي، ولكن هل ما يقال صحيح؟".
"وماذا يقال؟".

نظرت بسرعة يميناً ويساراً للتأكد مما إذا كان هناك أحد يسترق السمع، ثم قالت: "يقال إن السيد القابع في الداخل قد تعرض للاعتداء".
"نعم، لقد تعرض لاعتداء".

"هل حصل ذلك من قبل الدارك بيست؟". أخفضت نظراتها كي تتمكن من النظر إليه، وتابعت: "أهو الدارك بيست نفسه الذي قتل المسكينة ماري ليرحمها الله. إن هذا ما يتم تداوله في الأسفل؛ في منطقة الخدمة".

لم يتمكن شارلوك من كبح ضحكاته: "لا، ليس الدارك بيست من اعتدى عليه. وزميلتك قد توفيت نتيجة عارض صحي؛ ربما نوبة قلبية. هذا كل ما في الأمر، ولا جود للدارك بيست".

"ولكن، أليس صحيحاً أنه ما من أحد يعلم من اعتدى على السيد القابع في الداخل؟".

"بلى، هذا صحيح".

"إذاً، ربما يكون الدارك بيست هو الفاعل".

"أشك في ذلك".

"ولكن الدارك بيست شوهد مراراً. لقد لمحّه ثلاثة من الخدم وهو يتحرك خارج القلعة، وماري شاهدته أيضاً، وهي ميتة الآن، ليرحمها الله".
أجابها شارلوك: "لا يعدو الأمر عن كونه تضليلاً بصرياً. ربما شاهدوا أو شاهدت حيواناً كبيراً يتحرك في الضباب؛ هذا كل ما في الأمر".
"حسناً، سيدي". كان هناك شيء في نبرة صوتها يشي بأنها لم تصدقه. وحين سار مبتعداً، تذكر الظل الذي شاهده يتحرك خلف ستارة قاعة الرقص. ما من شك في أن شيئاً ما كان يتحرك في الظلال. وإذا كان داخل القلعة الآن فمن المؤكد أنه حيوان، ولكن هذا منافٍ للتفكير المنطقي والحس السليم.

كان الوقت بعد الظهر الآن، وكان قد مر وقت على موعد الغداء، أما العشاء فلا يزال بعيداً. عاد شارلوك إلى غرفته لتغيير ملابسه المملطخة بالطين والمجعدة بعد ما قام به من مغامرات في الخارج. وما إن دخل غرفته حتى وجد مغلفاً على وسادته يحتوي ملاحظة كتبت بخط اليد من السير شادراتش كوينتلان تفيد بأن موعد العشاء عند الساعة الثامنة. ونظراً لاختفاء السيد ألبانو فإن جلسة التحضير ستعلق. ولكن، بالاستناد إلى النقاش الذي دار بينه وبين السيد غروي، افترض شارلوك أن السيد ألبانو المختفي سيعاود الظهور عند موعد العشاء، وأن جلسة التحضير ستجري مع المزيد من الإثارة؛ ولكن الوقت كفيل بإظهار ما إذا كان هذا الافتراض صحيحاً أم لا.

نزل الدرج مجدداً شاعراً بالحيرة تجاه ما يجب عليه القيام به. فقد تفحص غرفة ألبانو، وحطام العربة، وليس لديه ما يقوم به الآن. فكّر أنه يفترض به الجلوس في مكان ما هادئ، ومحاولة التفكير بالطريقة التي دبر ألبانو فيها اختفائه، أو أن يحاول استنباط الطريقة التي تعرض فيها مايكروفت للاعتداء في المكتبة.

قرر شارلوك أن يهتم بأمر الاعتداء الذي تعرض له شقيقه أولاً؛ فهو يتطلب بعض العمل، كالبحث عن مداخل سرية، أو دليل على وجود شخص آخر في المكتبة. أراد القيام بنشاط ما، وليس مجرد الجلوس والتفكير. فالتفكير موطن قوة شقيقه، وليس موطن قوته.

كانت المشكلة تكمن في أنه قام مسبقاً بالبحث عن ممرات سرية في المكتبة، ولكنه لم يعثر على شيء. لذا، تساءل إن كان يجدر به بدلاً من البحث داخل المكتبة أن يبحث خارجها عن تناقضات، ولكن مثل هذه العملية ستستغرق وقتاً طويلاً، وقد تكون عرضة لبعض الأخطاء. كما أن الخدم سيتساءلون عما يقوم به. إن فكرة البحث عن ممرات سرية من الخارج كانت أقرب إلى الواقعية. وعلى كل حال، الممرات السرية تحتاج إلى معبرين؛ أحدهما داخل المكتبة، والآخر في مكان من القلعة. ربما إن بحث في جميع الأماكن المحتملة فسيتمكن من العثور على المعبر الثاني.

تحمس للفكرة، وأمضى نصف الساعة التالية بالبحث في الممرات والغرف المحيطة بالمكتبة عن أشياء قد تخفي ممرات سرية مثل الستائر والخزائن والمكاتب، ولكنه لم يعثر على شيء، وعاد أدراجه ليقف أمام باب المكتبة، واضعاً يديه على وركيه بإحباط.

ربما ليست هناك ممرات سرية، وإنما هناك أدراج سرية أو سلام سرية؛ فهي تتطلب وجود مساحة أصغر خلف الجدران.

باتجاه الأعلى أو الأسفل؟ فكر شارلوك هنيهة. أخيراً، قرر البدء بالبحث أسفل المكتبة. كان قد أمضى وقتاً كافياً وهو يتجول في ممرات القلعة من دون أن يلتقي أحداً، وكان يعلم أن هذا الحظ الجيد لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية. فكر بالتوجه إلى الأسفل عبر قبو؛ على أمل أن يبقى بعيداً عن أعين الناس، فضلاً عن أنه لم تتسنَّ له بعد فرصة إلقاء نظرة على الطوابق السفلى، وكان يشعر بالفضول حيالها.

وقف في القاعة محاولاً إيجاد ممر يقوده إلى القبو. وفي أثناء وقوفه هناك سمع صوتاً خلفه. بدا الصوت كصوت جر جلد على الأرض، فاستدار بسرعة.

كان خادم السيد شوفالوف قوي البنية يقف في الظلال، ويحدق إلى شارلوك بوجه خالٍ من التعابير. وعندما رأى أن شارلوك قد رصد وجوده، أوماً برأسه مرة واحدة وسار مبتعداً.

عندما رآه شارلوك يبتعد أحس بعدم الارتياح. ما الذي كان هذا الرجل يريده يا ترى؟

هز رأسه في محاولة منه لطرد الأفكار المقلقة. إذ إن لديه ما يكفي من الأمور لكي يقلق بشأنها. كان يعلم أن بيت الدرج لا يصل إلى الطابق الموجود تحت الأرض، ولكنه كان قد لاحظ وجود باب في الخلف. دفعه بقصد فتحه، فوجد مجموعة من الدرجات الحجرية التي تقود إلى الأسفل. في أسفل الدرج، وجد شارلوك ممرًا يقود إلى اليسار ثم إلى اليمين. كان هناك فانوس معلق في خطاف على الجدار، يزود الممر بضوء أصفر خفيف، ولكن فرعي الممر كانا يتلاشيان في الظلام بعد عشرين قدمًا أو نحو ذلك. كان السقف منخفضاً كثيراً؛ إلى درجة أن شعره كاد يلامسه، أما الجدران فكانت حجرية جرداء. حاول أن يحدد مكان المكتبة مقارنة بالمكان الذي يتواجد فيه الآن، واعتقد أنها يجب أن تكون إلى اليسار. انتزع الفانوس وحمله، ثم توجه في ما ظن أنه الطريق الصحيح، وعبر مجموعة من المداخل المقنطرة؛ بعضها لديه أبواب خشبية، وبعضها الآخر من دونها، ويبدو أنها كانت في السابق غرف تخزين.

ثمة شيء على الأرض عند مدخل إحدى الغرف جذب انتباهه فتوقف ليتأمله مليًا.
إنه حذاء.

انحنى ليتفحصه، كان حذاء نسائيًا أسود، وكان جلده ممزقًا بسبب قدمه. يبدو أنه كان جيدًا في ما مضى، ولكن هذا كان منذ وقت طويل جدًا؛ فمن الواضح أن مالكة الحذاء فقيرة، ولم تكن لديها القدرة على شراء حذاء جديد، ولكنه على ما يبدو كان مهمًا لها، ولهذا كانت تعتني به. تذكر الخادمة الميتة، فقد كانت حافية القدمين. أين حذاؤها؟ إذا كان هذا حذاءها، فهل هذا يعني أنها ماتت هنا في القبو، وأن جثتها قد نقلت وتركت في ساحة القلعة؟ افترض شارلوك أن حذاءها قد سقط منها في أثناء جرها. ولكن، لماذا سيسعى أحدهم إلى إخفاء مكان تعرضها لنوبة قلبية من دون أن يسعى إلى إخفاء الجثة؟! هذا أمر لا تفسير ولا معنى له.

ترك الحذاء حيث وجدته، وتابع طريقه وهو يفكر بأن هذه القلعة مليئة بالأسرار والغموض.

فجأة، ظهر حائط أمامه؛ حيث انعطف الممر نحو اليمين. تابع التقدم نحو الأمام مدركًا أنه يتعد شيئًا فشيئًا عن موقع المكتبة. ولكنه كان مهتمًا بمعرفة المكان الذي سيقوده إليه هذا الممر. انعطف الممر إلى اليسار، ثم مجددًا إلى اليمين. سار شارلوك في الممر من دون أن يتمكن من

تحديد سبب واضح لهذه الانعطافات. وبعد بضع دقائق من المسير، حلت محل الجدران الحجرية جدران من الطوب القديم المتفتت، وتحول السقف فوق رأسه من أملس إلى مقنطر، كما ظهرت بقع من الطحالب الخضراء. تحت ضوء المصباح، ظهرت على الجدران بقع داكنة. وعندما ألقى شارلوك نظرة أكثر قرباً عليها، وجد أنها عبارة عن بقع من الطحالب التي تنتشر على كامل الجدران والأرضية. احتار في أمره؛ هل يفترض به أن يخطو عليها أم لا؟ ولكنه أدرك أنه الآن أسفل خندق القلعة المائي، وأن الطحالب تنمو هنا بسبب الرطوبة التي تنتشر بسرعة نتيجة تسرب المياه عبر الطوب؛ مما جعله يشعر بالأمان ويتابع طريقه.

سار وهو يعلم أنه أصبح خارج ساحة القلعة. لقد أصبح الممر أكثر من مجرد نفق الآن، وافترض شارلوك أنه يقوده إلى حيث لا يعلم، وظن أنه سيقوده إلى الريف. كان من الصعب عليه حفظ المسار لأن الممر انعطف أكثر من مرة، ولكنه فكر في أنه يقوده بشكل مواز للجروف. بدأت أنفاق أخرى تظهر، وكانت تقود إلى دروب مظلمة. لم يشعر شارلوك أنه يريد اكتشافها؛ على الأقل ليس الآن. تابع السير في النفق الذي كان يسير فيه، وكان محظوظاً لأنه لم يضع. فلو استسلم لإغراء استكشاف الأنفاق التي ظهرت لكان من الممكن أن يفقد الاتجاه الصحيح. وقد أحس أن هواء بارداً يلامس جلده، ويهب من أحد تلك الأنفاق. واعتقد أنه لو سلك أحد الأنفاق فسيقوده إلى المغارات على الشاطئ، ولكنه لم يكن متأكداً.

في المرة القادمة التي سيأتي فيها إلى هنا، يفترض به أن يجلب معه أوراقاً وقلماً ليرسم خريطة للمكان. كان من الواضح بالنسبة إليه على نحو متزايد أن القلعة كانت نوعاً من الممرات السرية التاريخية لمهربي البضائع. فقد كانوا ينزلون بضائعهم المهربة على الشاطئ، ثم يخزنونها في الكهوف والمغاور.

أما السكان المحليون فكانوا يستخدمون هذه الأنفاق لينقلوا البضائع إلى الداخل، وكانوا يبقون في سرايب القلعة إن كان هناك ما يشير إلى أن الشرطة تبحث عنهم. ولكن السؤال الأهم هو: هل كان مالكو القلعة متورطين في هذا الأمر أم الخدم فقط؟ ظن أن الخدم على الأرجح متورطون، وأنهم قاموا بحفر هذه الأنفاق من أجل تجارتهم غير الشرعية في أسفل القلعة من دون معرفة المالكين؟ لكن، لسوء الحظ، ما من طريقة لمعرفة الحقيقة.

تابع شارلوك السير مبتعداً عن القلعة.
انتهى النفق فجأة؛ فقد لاحظ شارلوك على ضوء المصباح حائطاً أمامه.
لماذا بنى أحدهم حائطاً هنا؟! وجود حائط هنا لا معنى له؛ إلا إذا كان
قد بنى على عجل لإخفاء النفق عن أعين الذين في الخارج، وللحيلولة
دون دخول أحدهم إليه.

كان الحائط غريباً. في البداية، لاحظ أنه مبني من مواد مختلفة عن
المواد المستخدمة في بناء الجدران والسقف، فقد كان مبنياً من نوع
مختلف من الحجارة، ولكنه ليس النوع الفاتح الغرائتي الذي بنيت منه
القلعة. وكانت حجارة الحائط رمادية داكنة. وعندما مرر أصابعه على إحدى
كتل الحجارة تلك أحس بأنها ذات ملمس خشن. وعندما نظر إليها عن
قرب أكثر، لاحظ أنها تحتوي على ثغرات صغيرة. كانت ثغرات طبيعية
وليست من صنع الإنسان، ولم يسبق له أن رأى مثلها.

تفاجأ شارلوك عندما لاحظ أن الحائط متقوس بشكل تدريجي. ويبدو
أنه شيد على هذا النحو بناء لتخطيط مسبق. ولكن، لماذا؟ ما هي الغاية
من أن يكون الحائط متقوساً؟

لاحظ شارلوك أن الطوب الذي بنيت منه جدران النفق كان يجمع
بينها الملاط. ولكن كانت هناك فجوة بين الطوب وبين حجارة الحائط
الرمادية الداكنة، وقد تبين له أن هذه الفجوة تسمح بمرور نسمة خفيفة،
ومن خلالها يمكنك شم رائحة البحر. انحنى ليدقق النظر إلى الرباط الذي
يجمع بين حجارة الأرض والحائط فوجد شيئاً غريباً. فقد كانت حجارة
الأرضية مقطوعة بطريقة تبدو فيها ملتفة وصاعدة باتجاه الحائط، والأمر
نفسه بالنسبة للسقف؛ وقد بدا له واضحاً أن الحائط يتابع طريقه إلى
أسفل الأرضية وأعلى السقف.

لم تكن هناك طحالب على الحائط، وهذا ما استوقف شارلوك باعتباره
أمراً غريباً. فقد كانت جدران النفق وسقفه المقنطر تشوبها بقع من
الطحالب الخضراء، ولكن حجارة الحائط الداكنة كانت خالية من البقع
بشكل كامل؛ ربما كان هذا الأمر يتعلق بنوع الحجارة بحد ذاتها، وربما
كان هناك نوع من الفطر لا يحب النمو عليها.

توقف شارلوك هناك لبعض الوقت واضعاً يديه على وركيه وهو
يشعر بالإحباط. في الحقيقة، لم يكن باستطاعته الماضي قدماً. أخيراً وعلى
مضض استدار وقرر أن يغادر. ولكن، ما إن وضع يده على الحائط حتى
اهتز هذا الأخير.

كان الشعور بالاهتزاز ضعيفاً جداً، ولكنه كان واضحاً بما يكفي كي يتوقف ويضع كلتا يديه على الحائط؛ ما من شك في أنه شعر باهتزاز ما هنا، ولكن لم تكن لديه فكرة عن سببه.

بدا محبطاً أكثر من السابق، واستدار عائداً إلى القلعة.

استغرقت منه رحلة العودة إلى الدرجات التي تقود إلى الأعلى ثلاثين دقيقة. مر بكل الأنفاق التي أغرته باكتشافها، ولكنه كان دائماً مدركاً للاتجاه الذي يفترض به أن يسلكه للعودة من حيث أتى. ألقى نظرة إلى حيث عثر على الحذاء فوجده لا يزال مكانه، وهذا ما فاجأه؛ فنظراً إلى الأشياء الغريبة التي تحصل في القلعة، كان مقتنعاً أن الحذاء سيختفي.

عندما وصل إلى الدرجات نظر إلى الظلام؛ باتجاه الباب المغلق في الأعلى، ولكنه هز رأسه رافضاً الفكرة؛ فلا يزال يفترض به اكتشاف الفرع الآخر من الممر السفلي، وهو يعرف أنه إنه لم يبق بذلك الآن، فإن أمره سيظل يشغل تفكيره. لذا، لم يكن منه إلا أن اتجه نحوه.

في الدقائق الأولى لمسيره في الممر الأيسر، بدا له نسخة طبق الأصل عن الممر الأيمن، وتساءل إن كان سيهدر نصف ساعة من وقته ليجد نفسه في النهاية خارج القلعة أمام حائط متقوس من الحجارة الداكنة. وفجأة، انعطف الممر إلى اليمين، ووجد نفسه في ممر مقنطر آخر ينتهي بباب خشبي. كان الباب أكبر من الأبواب السابقة. حاول شارلوك فتحه، وكانت مفاجأته كبيرة عندما فتح. كانت الغرفة التي وجد نفسه يحدق إليها كبيرة، وذات سقف مقنطر حجري، وكانت الإنارة الوحيدة صادرة عن الفانوس الذي يحمله. كانت الغرفة عبارة عن غرفة تخزين أخرى ممتلئة من الأرض إلى السقف برفوف تحتوي زجاجات شراب. أدرك شارلوك أن معظم هذه الزجاجات موجودة هنا منذ زمن بعيد؛ فقد كانت أنسجة العناكب المغبرة تغطي كل شيء. بدا المنظر غريباً؛ تماماً كما بدا منظر الاكتوبلازما التي أنتجها ألبانو غريباً في جلسة التحضير في الليلة السابقة.

لم يكن الشيء الذي لفت انتباه شارلوك الزجاجات أو الرفوف أو نسيج العناكب، بل الفطريات السوداء. فهي لم تكن طحالب خضراء كالتي شاهدها في النفق السابق، بل كانت شيئاً داكناً أكثر وأكثر حياة. لم تكن الفطريات كائنات متمسكة بطرف الحياة، بل كانت كائنات تنبض بالحياة، وكانت تملأ زوايا قبو الشراب بالطريقة نفسها التي تغطي بها أعشاب البحر الصخور على الشاطئ، أو يغطي بها الثلج الأرض في الشتاء، وهي تتدلى من السقف كستارة سوداء. وأينما أدار شارلوك وجهه في الغرفة وجدها،

كانت تشع قليلاً تحت ضوء الفانوس؛ مما يشير إلى أنها رطبة، وتخيل أنه إن قام بلمسها بأصابعه، فستنصر تحت أصابعه، مع احتمال أن تفرز سائلاً أسود ساماً، ولكنه لم يجرؤ على محاولة القيام بما فكر فيه. أخيراً، انتبه إلى أن وقت العشاء قد حان، فغادر قبو الشراب متوجهاً إلى الدرجات التي تقود إلى القاعة.

كان متجهاً إلى غرفة مايكروفت ليرى كيف أصبحت حاله عندما سمع أصواتاً خارج الباب الأمامي المفتوح. ألقى نظرة عبره، فلاحظ أن السيد شوفالوف وخادمه صاحب البذلة العسكرية يجلسان هناك ويتناقشان. أو بالأحرى، كان شوفالوف يتكلم بسرعة وغضب بينما كان خادمه يحاول مقاطعته. أخيراً، هز شوفالوف رأسه وانصرف وهو يسير بسرعة؛ فيما خادمه يحدق إليه والرعب مرتسم على وجهه الذي يكون جامداً عادة. سعد شارلوك الدرج متجهاً إلى غرفة مايكروفت. كانت هناك خادمة تقف عند باب الغرفة، ولكنها لم تكن الخادمة التي تحدث معها سابقاً. نظرت إليه وعرفته، فأومأت برأسها.

"سيدي".

أوماً لها، ودخل الغرفة.

كان مايكروفت مستيقظاً ويقرأ. ألقى نظرة على شارلوك، وقال له: "مساء الخير، أرى أنك كنت في الخارج، وفي الأسفل أيضاً. أظن أنني نمت لوقت طويل، أطول مما كنت أظن".

ابتسم له شارلوك. لم تكن هناك أسرار يخفيها عن شقيقه، ولكن لم تكن هناك طريقة ليسأله عن كيفية معرفته بالأمور؛ فهو بعكس السيد غروي نادراً ما يعطيه الدروس. لذا، بادر شارلوك إلى القول: "ألبانو محتال. هناك دليل على أن تحطم العربة كان عملاً مدبراً، كما أنني وجدت ممرات أسفل القلعة تقود إلى خارجها، وفي عدة اتجاهات، ربما بناها المهربون".

"إن ما تقوله موجز جداً، كن لطيفاً واشرح لي ما تفضلت به". شرح شارلوك ما قام به من بحث في غرفة السيد ألبانو وما وجدته فيها، كما شرح له عن محور العربة الذي يبدو أنه تعرض للنشر بواسطة منشار، وتساءل شارلوك عما إذا كان يجدر به إعلامه عن الدارك بيست وعن الشكل الداكن الكبير الذي شوهد في الأنحاء، ولكنه في النهاية قرر أن يلتزم الصمت في ما يتعلق بهذا الموضوع؛ فقد كانت للأمر تفسيرات عديدة، ولم يكن أي منها مرتبطاً بما كلفه به مايكروفت من مهمات؛ على

حدّ علمه.

استنتج مايكروفت: "أظن أن السيد ألبانو سيعاود الظهور الليلة، وسيكون ظهوره أفضل تمهيد لجلسة التحضير الثانية".
أجابه شارلوك محتاراً: "وهذا ما أظنه أيضاً. هل تشعر بأنك أحسن حالاً حيث تستطيع الانضمام إلينا إلى مائدة العشاء، ثم في جلسة التحضير؟".

هز مايكروفت رأسه وأجابه: "نصحي الطبيب بملازمة الفراش خلال الساعات الأربع والعشرين التالية. لحسن الحظ، ما من ارتجاج في الدماغ، ولكنني أعاني من ضعف عام في جسدي، وأحتاج إلى الراحة. لقد غمرني السير شادراتش بلطفه عندما وافق على أن يقدم لي طعام العشاء هنا في الغرفة على صينية". وصمت لحظة قبل أن يتابع: "في الحقيقة، ربما مجموعة من الصواني، أو ربما عربة مليئة بالصواني إن شئت، وقد تمنى عليّ المشاركة في جلسة التحضير، وعرض عليّ استعمال كرسيه المدولب الاحتياطي، ولكنني أظن أن ملازمة الفراش أفضل لي في هذه الأثناء، فأنا أغط في النوم في الوقت غير المناسب بين الحين والآخر. إنني أخشى أنه يفترض بك أن تأخذ مكاني أثناء العشاء وفي جلسة التحضير".
أجابه شارلوك بتعجب: "تخشى!".

"لا تعر كلماتي أي أهمية، فهي لا تعدو عن كونها استخداماً غير موفق للكلمات. إنك تحوز على كامل ثقتي". ثم حدق ناحية شقيقه لهنيهة وتابع قائلاً: "لقد تحدثت مع السيد غروي، وكما فهمت منه، إن ابنته ترافقه، فهل تحدثت إليها؟".

هز شارلوك رأسه وأجابه: "لم أتحدث إليها بعد".
"كن لطيفاً ومحترماً معها. ستكون مرتبكة وغير واثقة من نفسها؛ مثلك تماماً".

عندها أجابه شارلوك: "أشك في ذلك. بالمناسبة، هل تعلم أنه الممثل الأميركي؟".

"توقعت ذلك، ولكن لم يكن لدي دليل، ولهذا لم أقل لك شيئاً. أياً يكن الأمر، فالأمر متعلق بالحكومة التي أرسلته". أعاد مايكروفت انتباهه إلى الكتاب الذي كان في حضنه، ثم ما لبث أن قال: "أعلمني بأحداث الليلة، إنني متلهف لمعرفة ما سيحدث".
أوماً شارلوك برأسه، وغادر الغرفة.

سمع شارلوك وهو ينزل الدرج رنين الجرس القرصي الذي يرن عادة

كإشارة ونداء للتوجه إلى مائدة العشاء، فتوجه إلى قاعة الطعام.
كان معظم الضيوف موجودين، باستثناء أميوس غروي وابنته فرجينيا،
وطبعاً السيد ألبانو المختفي. جلس شارلوك على كرسيه، وأوماً للكونت
شوفالوف والسيد هولتزنبرك وفون وينو والسير شادراتش ونيف. كانت
الشمعدانات مرتبة على طول الطاولة، وتبعث بنورها في أرجاء الغرفة.
وكانت الستائر مفتوحة، وعبر النوافذ شاهد شارلوك السماء الداكنة
والعاصفة، فيما المطر يضرب زجاج النوافذ محدثاً صوتاً كصوت ارتطام
الحصى.

عندما دخل السيد غروي بصحبة ابنته القاعة - كان الخدم قد أتموا
الاستعدادات لتقديم الحساء - كان يرتدي بذلته البيضاء عيناها، أما ابنته
فلم يعرفها شارلوك للوهلة الأولى؛ فقد كانت ترتدي فستاناً بنفسجي اللون
يتناغم بشكل رائع مع لون عينيها، وكان شعرها مرفوعاً فبدت أكبر سناً.
لقد بدت سيدة أكثر مما بدت فتاة. وتساءل بهمارة عما إذا كانت تنظر
إليه بدورها كرجل أم مجرد فتى.
نظرت إليه وابتسمت بتوتر.

قال غروي بصوت مرتفع: "أعتذر منكم جميعاً بشدة على التأخير".
وفيما كان يسحب الكرسي ليتيح لابنته الجلوس تابع قائلاً: "سيد شادراتش،
لديك ابنة أيضاً، وهي فائقة الجمال علاوة على ذلك، وأظن أنك تستطيع
تقدير سبب تأخري، فالفتيات يستغرقن وقتاً طويلاً للاستعداد لعشاء بسيط".
أجاب السيد شادراتش: "الفتيات جواهر لا تقدر بثمن، ويجب إتاحة
الفرصة لهن لإبراز جمالهن الذي يفوق الجواهر تألقاً".

عندها، ابتسم لابنته التي بادلتها الابتسامة، ثم لم تلبث أن ألقى
نظرة على شارلوك، وابتسمت له. في تلك الأثناء، نظرت فرجينيا إلى نيف،
ولاحظ شارلوك أنه ملح إحساساً على وجهها، ولكنه لم يكن متأكداً من نوع
هذا الإحساس؛ ربما كان مجموعة من الأحاسيس.

لمح البرق خارج النافذة، وعصفت الرياح فاهتز الزجاج، وبعد لحظات
دوى الرعد وتردد صده في ممرات القلعة وقاعاتها.

قال السيد هولتزنبرك: "إنها ليلة جيدة للتواصل مع الأموات، ولكنني
أخشى أن الجلسة ستؤجل. أعتقد أنه ما من خبر حول مكان السيد ألبانو".
فتح السيد كوينتلان فمه ليتكلم، ولكن قبل أن يتمكن من التفوه
بأي كلمة لمح البرق مجدداً، وكان أشد من المرة السابقة، وغمر القاعة
بنوره الفضي، وعصفت الرياح بشدة فاتحة نوافذ القاعة؛ مما سمح لقطرات

المطر بالاندفاع إلى الداخل؛ فانطفأت الشموع في الشمعدانات، وغمر الظلام المكان.

عندئذ قال السير شادراتش كوينتلان: "لا داعي للهلح، سيقوم الخدم بإعادة إضاءة الشموع".

وفجأة، أضيئت الشموع مجدداً من تلقاء ذاتها، وبدا وهجها أطول بمرتين وأكثر إشعاعاً.

وقد استطاع الجميع في ظل هذا النور الساطع أن يروا السيد ألبانو منتصباً عند نهاية الطاولة، وقد فتح ذراعيه على اتساعهما.

وهتف: "ها أنا قد عدت".

الفصل التاسع

خيم الصمت على الجالسين إلى الطاولة وما حولها، وكان الجميع مصدومين؛ باستثناء شارلوك الذي كان يتوقع حدوث شيء ما، وربما السيد أميوس غروي أيضاً.

"يا إلهي!". هتف كوينتلان: "عزيزي ألبانو! ماذا حدث؟ أين كنت؟". فكر شارلوك في أنه مقنع جداً. ما من شك في أنه جزء من المؤامرة. انهار ألبانو بطريقة مسرحية على كرسيه، وأوماً إلى الخدم وقال بصوته الرفيع: "أريد شراباً، لم أذق الطعام أو الشراب منذ أن أخذت من هنا". سأله هولتزبرنك: "من أخذك؟". ولكن ألبانو اكتفى بالتلويح بيده وقال: "عنت عندما أخذت من قبل الخاطفين إلى الجانب الآخر". سكتت الخادمة كأساً كبيرة من الشراب، ووضعتها أمام ألبانو الذي ازدردها دفعة واحدة.

قال هولتزبرنك بالحاح: "أخبرنا كل شيء. لا تغفل أي شيء". قال ألبانو: "أنتم تتذكرون أنني قلت إنني أريد المغادرة بعد الاعتداء الذي تعرض له الممثل البريطاني. ربما بدا تصرفي مبالغاً فيه، ولكنني كنت أنوي في ذلك الوقت السير إلى غالاوي، ومنها التوجه إلى إحدى المدن الكبرى حيث يمكنني الاختفاء لفترة من الزمن. وقد شاهدتم جميعاً العربة التي اقتحمت القلعة، وكيف قفز الرجلان المقنعان واختطفاني". ونظر شزراً إلى السيد غروي وقال له: "باستثناءك. لا أعتقد أنك كنت هنا". في تلك الأثناء، مدّ السيد غروي يده الكبيرة باتجاه ألبانو وقال له: "إنني أميوس غروي؛ ممثل حكومة الولايات المتحدة. يسرني التعرف إليك".

حدق ألبانو إلى اليد الممدودة بعدم ارتياح واضح؛ وكأن السيد غروي يدفع باتجاهه سمكة يحملها في يده. وفي النهاية، سحب السيد غروي يده. تابع السيد ألبانو: "وقد ألقيا بي في العربة، ثم انطلقت بنا العربة مسرعة ومقعقة. لقد شعرت بالرعب والخوف، حتى إنني ظننت أن أسناني تكاد تسقط من فمي. كان هناك رجل ثالث في العربة لم يترجل منها خلال عملية الاختطاف، وبالإضافة إلى الحوذي كان مجموع الأشخاص أربعة".

حدج شارلوك ألبانو بنظرة ذات مغزى؛ فقد كان مدركاً لما يرمي إليه ألبانو، فهو لن يذكر عدد الأشخاص الذين شاركوا في عملية الخطف، إلا إذا كان يريد ربطه بأمر مهم بطريقة أو أخرى.

" لقد قام الشخص الذي لم يتزل من العربة بالدوس على صدري وقال: ستقدم لنا الآن خدماتك مجاناً، ولن نشارك بالمزايدة عليها كالآخرين. سوف تجعلنا على تواصل مع الأموات، وإلا ستكون واحداً منهم. سأله الكونت شوفالوف بجدية بعد أن انحنى إلى الأمام: " هل كانت لكتته مميزة؟ " .

أجابه ألبانو: " نعم، ولكنني لم أستطع تحديد المكان الذي ينتمي إليه . "

استقام شوفالوف بجلسته محبطاً. تابع ألبانو: " كنت مرتعباً ". وألقى نظرة سريعة على الجالسين حول الطاولة، وأقام تواصلاً بصرياً مع كل الجالسين. " فقد كنت أعلم أنني وقعت في قبضة مجموعة من قطاع الطرق المتعطشين للدماء، والذين كانوا سيستغلون قدراتي من دون رحمة ". في تلك الأثناء، جمع أصابعه في قبضة، وهوى بها على الطاولة بعنف قائلاً: " عندها قررت الاستعانة بالأرواح المرشدة وطلبت منها المساعدة " . " بالطبع ". همهم فون ويينو.

" لقد قمت بإرسال موجات من الطاقة الذهنية إلى البعد الآخر؛ من خلال الكرة الكريستالية ". وكان يشير إلى عينه البديلة، وضغط عليها فأصدرت صوتاً ناتجاً عن الضغط عليها. " وقد استجابت لي. كنت أشعر بالألم والأسى، فأتت وأخذتني من هذا العالم إلى عالمها. لقد اختفى جسدي من العربة، يمكنني تخيل كيف بدت تعابير وجوه الرجال الثلاثة بعد اختفائي ". توقف عن الكلام بشكل مأساوي ثم تابع: " لا أستطيع أن أخبركم عما حدث بعد ذلك هنا على الأرض " .

قال كوينتلان: " لقد تحطمت العربة. ربما تسبب اختفاؤك المفاجئ من العربة باختلال توازنها. لقد شاهدنا جميعاً تحطمها، وشاهدنا أربعة رجال ملتفحين يهربون مطلقين سيقانهم للريح. أظن أنهم كانوا الحوذي والخاطفين والرجل الثالث الذي لم يتزل من العربة.

ألقى غروي نظرة سريعة ناحية شارلوك، وكانت الرسالة واضحة ومعبرة: كان كوينتلان وألبانو يقومان بنوع من التمثيلية التي تتمحور حول عدد الرجال. ولكن، ما الهدف الذي يرميان إليه من وراء ذلك؟!

سأل ألبانو: " هل تمكنتم من إلقاء القبض عليهم؟ من كانوا؟ " . هز كوينتلان رأسه وقال: " كل محاولات اقتفاء أثرهم باءت بالفشل " .

عندها، قال هولتزبرنك باشمئزاز: " ما من شك في أنهم تابعون لقوة أجنبية لم تُدع إلى المزايدة " .

سأل فون وبينو بإصرار: " ولكن، إلى أين ذهبت؟ وماذا رأيت؟ " .
ابتسم ألبانو وهز رأسه وقال: " ما من كلمات يمكنها التعبير عما رأيته. إن البعد الآخر يختلف عن أي شيء اخترته من قبل. فهناك يمر الوقت بشكل مختلف عما هي عليه الحال هنا، إن الطيف هناك لديه خمسة ألوان أكثر مما لدى الطيف هنا على الأرض. ولا حاجة إلى الكلام والمناقشة هناك؛ فالأفكار تسمع مباشرة من دون الحاجة إلى التعبير عنها بالكلمات، ولا وجود للطعام والشراب في البعد الآخر؛ فالأرواح تتغذى من خلال الضوء الذي يزودها بكل المغذيات التي تحتاج إليها. البعد الآخر جميل على نحو استثنائي. كم تمنيت لو بقيت هناك، ولكن الأرواح التي أنقذتني طلبت مني العودة إلى الأرض، قائلة لي إنه من المقدر لي أن أكون الجسر التي يتواصل عبره العالمان؛ عالم الأحياء وعالم الأموات. وعندما وجدت الأرواح التي أنقذتني أنه من الأفضل إعادتي، أعادتني إلى هنا؛ إليكم " . وفتح ذراعيه على وسعهما وقال: " أصدقائي " .

كان أداء ألبانو مقنعاً جداً، وكان من الممكن لشارلوك أن يقتنع لو أنه لم يرَ مقتنيات ألبانو التي كان يخفيها تحت الفراش، ويكتشف أن محور العربة تعرض للنشر والتخريب المتعمد.

سأله فون وبينو بإصرار: " ولكن، من المؤكد أنك تستطيع أن تخبرنا شيئاً عن البعد الآخر. ألم يرسل أحدهم أي رسالة إلى أحد ما هنا؟ " .
أجابه ألبانو مؤيداً: " كانت هناك العديد من الأرواح التي تتوق للتحديث معي، ولكنني طلبت منها الانتظار؛ فرمما كانت هناك فرصة لإقامة جلسة تحضير هنا هذا المساء. وبالتالي، تستطيع التحديث معنا هنا " . ونظر ألبانو نحو السير كوينتلان: " هل هذا ممكن أم لا؟ هل لا يزال موعد الجلسة كما هو؟ " .

أجابه كوينتلان: " أخشى أن تكون متعباً جداً. ربما يجدر بنا أن ندعك ترتاح " .

كان شارلوك متأكداً من أن اعتراض كوينتلان ورغبته بتأجيل الجلسة لإتاحة الفرصة أمام ألبانو ليرتاح مجرد مناورة لإحداث أثر لا أكثر ولا أقل. ولكن، عندما احتج فجأة كل من فون وبينو وهولتزبرنك لم يكن من السير كوينتلان إلا أن رفع يديه مستسلماً وقال: " حسناً، لنبدأ إن كنت تشعر بأنك قوي بما يكفي ومعافي " .

فأجابه ألبانو: " يفترض بي أن أكون هكذا ". ورفع يده نحو رأسه وتابع قائلاً: " الأرواح في البعد الآخر تعتمد عليّ " .

عندما جُلب طعام العشاء كان متنوعاً ومثيراً للاهتمام كما كان في الليلة السابقة. كان الحساء مصنوعاً من ثمار البحر مجدداً، ولكن تم استبدال حساء السلاحف بحساء الكركند الدسم. أما الطبق الرئيس فكان الأرناب المدمسة بصلصة الخردل والقشدة، وكانت المقبلات عبارة عن الهليون والكرنب، في حين أن التحلية كانت ترافل.

طوال العشاء، كان الحديث يدور حول ما حدث مع السيد ألبانو. وقام الممثلون الألماني والروسي والنمساوي - الهنغاري بإزعاجه بأسئلتهم حول البعد الآخر، وما شعر به عندما كان هناك، وإن كان قد التقى أرواح بعض المشاهير. وكان ألبانو يجيب عن أسئلتهم بإجابات طويلة، يصاحبها تلويح باليد، وأوصاف أنيقة. ولكن شارلوك لاحظ أن إجاباته تافهة؛ فقد كانت تحتوي على الكثير من الكلمات والعبارات، ولكنها لم تكن تحتوي على الكثير من الوقائع؛ هذا إن تضمنت أي وقائع.

وكما لاحظ شارلوك، لعب كوينتلان دوراً شبيهاً بدور قائد الأوركسترا؛ فقد طرح بضعة أسئلة، ولكنها كانت عامة جداً، ومن السهل الإجابة عنها. إلا أن الدور الأساسي الذي قام به كان يتمثل بالمقاطعة بكل لطف وتهذيب عندما تصبح الأسئلة صعبة ومجهددة، فيقوم بتحويل النقاش إلى الأمور الأكثر بساطة، والتي يستطيع ألبانو أن يزينها بأمثلة غامضة. في الحقيقة، لم يكن شارلوك متأكداً إن كان الممثلون الآخرون قد لاحظوا ما يقوم به كوينتلان من تشويش عام، ولكنه كان متأكداً من أن الممثل الأميركي لاحظ ذلك. فقد علت وجه أميوس غروي ابتسامة تنم عن اهتمام، ولكن حاجبه الأيمن كان مرتفعاً؛ وهذا ما يعرف شارلوك جيداً أنه ينم عن تشكيك. لم يطرح أي سؤال، وربما كان هذا أفضل، إذ اعتقد شارلوك أنه لو قام بطرح سؤال ما فإنه ربما سيوقع المحتال ألبانو في الفخ، وسيكون الأمر بمثابة مذبة بوجود غروي حاد الذكاء.

بين فترة وأخرى خلال العشاء، كان شارلوك مدركاً لنظرات نيف وفرجينيا إليه. ولكن، عندما كان ينظر إلى أي منهما محاولاً مبادلتها نظراتها، كانت تشيح بنظرها بعيداً؛ فبدا الأمر تافهاً. يبدو أنه كان هناك أمر لم يكن منتبهاً له، وربما رسائل ضمنية فاتته.

لقد لاحظ شارلوك أثناء مروره في قاعة الطعام أن خادم الكونت شوفالوف الضخم لم يكن في مكانه المعهود خلف سيده، وقد حل مكانه

أحد خدم القلعة.

طرح شارلوك بضعة أسئلة على ألبانو عندما خمدت المناقشات، فسأله بسذاجة واضحة: " هل كنت خائفاً عندما تعرضت للتهديد في العربية؟ ". ابتسم ألبانو بطريقة لطيفة، فقد كان قد سبق له أن أجاب عن السؤال عندما عاد وظهر، وظن بوضوح أن شارلوك قد نسيه؛ ربما بسبب توتره لأنه يحل محل محل شقيقه. ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو؛ فشارلوك كان لا يزال يتذكر الإجابة بشكل جيد، ولكنه أراد من ألبانو أن يعيد التفوه بالجواب لكي يستعمل جوابه أساساً لسؤاله التالي والأساسي. أجابه ألبانو وكأنه يتحدث إلى طفل صغير: " نعم، كنت خائفاً؛ فالخاطفون أياً كانوا هددوني بالقتل إن لم أتعاون معهم ".

فقال شارلوك ببراءة: " ولكن، إن كانت مملكة البعد الآخر دافئة ويعمها السلام، فما المخيف في الموت؟ ولماذا يخشى أي كان من الموت؟ ". عانى ألبانو الأمرين من هذا السؤال، ولم يرفع شارلوك عينيه عنه، ولكنه بطرف عينه استطاع أن يرى الابتسامة المرتسمة على وجه غروي. أخيراً، أجابه ألبانو ببطء: " الموت حقيقة، وهو لا يعدو عن كونه انتقالاً بين مكانين؛ أحدهما أفضل من الآخر. ولكن، في بعض الأحيان يكون الانتقال مؤلماً، فهناك طرق عدة للموت، ولا أعتقد أن الخاطفين كانوا سيختارون لي ميتة سهلة. إنني أعترف وبارتباك أنني وبالرغم من عدم خوفي من الموت بحد ذاته، إلا أنني لم أرغب بالتعرض للتعذيب؛ وخاصة لوقت طويل ". ابتسم وتابع: " هل هذا الجواب يناسب سؤالك أيها الشاب؟ ".

سأله شارلوك مجدداً: " هل تمنيت البقاء هناك؟ ".

" إنني أستميحك عذراً، لم أفهم ".

" بما أن البعد الآخر مريح، فهل كنت تتمنى البقاء هناك؟ ".

عبس ألبانو: " إلى حد ما نعم. أعتقد أنني كنت أتمنى ذلك؛ فالتواجد هناك أكثر سلامة من التواجد هنا ". في هذه الأثناء، أصبحت نبرة صوته أكثر درامية، وبدأ ينزلق نحو الجواب المعتاد الذي كان شارلوك قد لاحظ أنه يكرره دائماً. " ليس هناك ألم أو تعاسة، فالفرح العظيم والسلام يعمان المكان هناك ".

فسأله شارلوك ببساطة: " إذاً، لماذا عدت؟ ".

أجابه ألبانو وقد بدت على وجهه علامات الرغبة بالبقاء هناك: " لا يزال لدي عمل هنا؛ إذ يتوجب عليّ أن أقيم التواصل مع السادة اللطفاء

هنا الذين يتمنون عودتي؛ لأجلب لهم الأخبار السعيدة من البعد الآخر. هل هذا يجيب عن سؤالك؟ "

أجابه شارلوك: " بالطبع، شكراً ". ولكن، قبل أن يتمكن ألبانو من قول أي شيء، سأله شارلوك: " هل يذهب الناس السيئون إلى البعد الآخر؟ "

" ماذا؟ ". وكست الحيرة وجهه.

" حسناً، لقد أخبرتنا أن البعد الآخر يعمه الدفء والسلام، وأنه مليء بالأرواح الطيبة، ولكن تاريخ البشرية كان مليئاً بالناس الأشرار، فهل ذهبت أرواحهم بعد موتهم إلى البعد الآخر؟ فأنت لم تخبرنا أي شيء عنهم. وإن كانت قد ذهبت إلى البعد الآخر، فهل أرواحهم لا تزال شريرة؟ لنفترض أن خاطفيك لم يهربوا بعد تحطم العربة بل ماتوا، هل كانت أرواحهم سترافقك إلى البعد الآخر؟ وعندها، عمّ كنتم ستحدثون هناك؟ "

صمت ألبانو لمدة أطول من المرة السابقة، وحاول السير كوينتلان التدخل، ولكن السيد غروي رفع يده وأوقفه وقال: " إنه سؤال جيد، إنني أرغب بسماع الإجابة عنه " .

عندها، أجابه ألبانو ببطء: " هناك العديد من الدرجات والمستويات في البعد الآخر، والمستوى الذي ستقيم فيه يرتبط بأعمالك خلال الحياة " . فقاطعه فرجينيا من مكان جلوسها البعيد: " مثل الجنة والنار اللتين يخبرونا عنهما في دار العبادة " .

أجابه ألبانو بإيجاز: " ليس تماماً كالجنة والنار؛ فهما شيئان متناقضان تماماً، أما البعد الآخر فيختلف عنهما " .

فكر شارلوك: كان بإمكان الأمر أن يكون أسهل لو قال إنه لا يعلم، لقد أوقع نفسه الآن في الحفرة.

فسأله هولتزنرك بحيرة: " أتقصد أن فكرة العقاب على الآثام غير موجودة في البعد الآخر؟ يبدو هذا غير عادل وغير طبيعي " .

أجابه ألبانو: " لا ". ثم أضاف بسرعة: " حسناً، نعم، ولكنه ليس مثل العقاب الذي نفهمه... " .

جازف شارلوك بإلقاء نظرة سريعة على أميوس غروي، فما كان من الأخير إلا أن أوماً له، وقام بحركة تحاكي التصفيق.

قاطعه كوينتلان: " لقد أشرت إلى ألوان في مملكة البعد الآخر لا مثل لها في عالمنا هذا، هل هناك طريقة لتصف لنا بها تلك الألوان الجديدة؟ " .

تأوه ألبانو، وقد بدا عليه بوضوح أنه كان يعاني ويبحث عمن ينقذه من هذه المحادثة العويصة. " بالطبع، هناك لون يقع بين الأزرق والأخضر، ولكن ما من تسمية أو مفهوم معبر عنه في مصطلحاتنا الأرضية، ولكن الأرواح في البعد الآخر تطلق عليه اسم التشوري. إن التحديق إلى ذلك اللون يجلب شعوراً شديداً بالتركيز " .

سارت المحادثة على هذا النحو لفترة من الزمن، ولم يشعر شارلوك برغبة كبيرة في المقاطعة مجدداً. فقد حقق مبتغاه، وبدا عدم التناسق جلياً في ما يقوله ألبانو حول البعد الآخر.

بعد أن قدمت أطباق الجبن والبسكويت، وتبعثها أكواب صغيرة من القهوة، خاطب كويتلان ألبانو قائلاً: " صديقي، لا نية لدي بوضعك تحت ضغط غير ضروري بعد الأحداث الرهيبة التي حلت بك، ولكن هل تشعر أنك قوي بما يكفي للقيام بجلسة تحضير قصيرة؟ فالسادة الحاضرون اجتازوا مسافات طويلة لكي يروك وأنت تعمل، وأظن أنه من المخجل تخيب أملهم " .

أوماً كل من فون وبينو وهولتزنك مثل أخرقين يتوقان إلى مشاهدة ما سيقوم به، أما الكونت شوفالوف فبدا أكثر رصانة وهو يجلس مسنداً ظهره إلى الكرسي كعادته، لكنه أوماً ببطء موافقاً، في حين أن السيد غروي نظر إلى شارلوك وهز كتفيه كمن يقول: لم لا؟ فلندعه يبرهن لنا خدعه.

أخذ ألبانو نفساً عميقاً وقال: " هذا العشاء الممتاز ساعدني على الاسترخاء. وحقيقة أنني كنت منذ فترة قريبة في البعد الآخر تعني أنني لا أزال قوياً بما يكفي للاتصال به. أعتقد أنني أستطيع إظهار بعض الأرواح، ولكنني لن أعد حضراتكم بأي شيء. إن ذهابي وإيابي حركا التيارات الروحية، ولكن ربما لا تجد الأرواح نفسها قوية بما يكفي للقيام بالرحلة " .

فكر شارلوك بأنه ما من عذر أفضل مما تقدم به في حال فشلت جلسة التحضير. بدت كلماته غامضة ومقنعة، ولكنها في الحقيقة لم تكن تعني شيئاً.

عندما كان شارلوك يهم بالوقوف، سحب خلسة سكيناً عن الطاولة، ودفع به داخل كفه. كان السكين مصنوعاً من الفضة، وثقيل الوزن نسبياً، وقد شعر بذلك عندما سحبه. وإذا قام بالنقر بواسطته على الطاولة في الغرفة التي ستتم فيها جلسة التحضير، فسيصدر صوتاً قوياً، وظن شارلوك أنه سيكون بحاجة إليه؛ إذ قد يضطر إلى استخدامه إن أراد أن يثبت

زيف ادعاءات ألبانو، أو رغب بإفشال ألعيبه.

انتقل الرجال السبعة بمن فيهم شارلوك إلى غرفة الجلوس التي جرت فيها جلسة التحضير ليلة أمس. حاولت نيف كوينتلان إقناع والدها بالسماح لها بمشاهدة الجلسة، ولكنه قال لها: " اجلسي مع الآنسة غروي في غرفة الجلوس. إنني على يقين من أن لديكما الكثير من الأمور لتحدثا حولها " .

نظر شارلوك إلى وجه فرجينيا الواجم، لكنه لم يكن متأكداً من أن هناك الكثير مما يمكن أن تقوله لبعضهما؛ غير أن وجهها بدا أنه لا يعبر عن شيء.

كانت الترتيبات والتحضيرات ممتازة كما كانت ليلة أمس. جلس الجميع حول الطاولة التي كانت الأحرف والأرقام وكلمتا نعم وكلا لا تزال ظاهرة عند حافتها. وكانت القطعة الخشبية موجودة على الطاولة أمام ألبانو الذي قام بحركة مدروسة؛ حين طلب من السيد غروي الذي لم يكن موجوداً ليلة البارحة تفحص الطاولة والقطعة الخشبية للتأكد من عدم وجود أي خدعة أو رسائل مخفية أو لوح خشبي آخر. ولكن شارلوك كان متيقناً من أنه أخفى الكشتبان الذي تتأ منه قطعة الطيشور داخل سترته، وأنه مربوط بالخيط المطاطي الذي يتيح له إخفاه بسرعة ما إن ينتهي من الكتابة.

خارج النافذة، كان البرق يومض مجدداً غامراً الستائر باللون الأبيض. لم تمر سوى لحظات، قبل أن يسمع دوي الرعد مجدداً، ففكر شارلوك في سره أنها خلفية ممتازة للجلسة، ولن يكون بوسع كل من ألبانو وكوينتلان أن يرتبا أفضل من خلفية كهذه لو أرادا.

نظر كوينتلان إلى وجوه الجالسين إلى الطاولة وسألهم: " سادتي، هل أنتم مستعدون؟ " .
أوماً الجميع.

وضع ألبانو يديه على الطاولة حيث كانت راحتا كفيه تلامسانها، وأرجع رأسه إلى الخلف، وسأل: " هل من أحد هنا؟ أيتها الأرواح في البعد الآخر، إنني أسأل مجدداً، هل من أحد هنا؟ هل لدى أي منك أي سؤال لأي شخص ممن يجلسون إلى هذه الطاولة؟ إذا كان الجواب نعم فلنسمع ضربة واحدة، وإذا كان الجواب لا فلنسمع ضربتين " .

لم يحدث أي شيء، وكان التوتر حول الطاولة ملموساً؛ كما كان بالأمس عندما ظهر الشكل الاكتوبلازمي.

تساءل هنيهة عما إذا كانت روح الخادمة ماري ستظهر، وتجيّب عن السؤالين التاليين: أين ماتت؟ ولماذا نقلت جثتها؟ ولكن، ربما كان هذا كثيراً كي يأمل به.

" إنني أسأل مجدداً: هل هناك أحد هنا؟ هل هناك أي أرواح قوية ستعبر تيارات البعد لتكون معنا هذه الليلة؟ "

مجدداً، لم يحصل أي شيء للحظة، ثم تردد صدى ضربة قوية في أرجاء الغرفة، فقفز فون وبينو عن مقعده.

" هل لديك رسالة؟ "

سُمع صوت ضربة قوية أخرى.

" هل تريدان أن تعرضي رسالتك بواسطة الأحرف والأرقام والكلمتين الموجودتين حول حافة الطاولة؟ "

سُمع صوت ضربتين قويتين!

الآن، تأكد شارلوك أن الجلسة بأكملها خدعة. ولكنه تساءل عن كيفية حدوث صوت الضربات، مفترضاً أن يكون الأمر سهلاً جداً؛ كأن يقوم ألبانو أو كوينتلان بركل إحدى قوائم الطاولة بحذائه. أياً يكن الشخص الذي يقوم بذلك، يجب أن تكون لديه قطعة خشبية في أسفل نعل حذائه كي تساعده على إصدار صوت قوي كهذا.

" هل هذه الروح معلومة مثل انفيكيتوس؟ "

سُمع صوت ضربة عنيفة.

سأل ألبانو: " هل ستقومين بكتابة الرسالة على اللوح الخشبي؟ "

سُمع صوت ضربة عنيفة مجدداً.

رفع ألبانو اللوح الخشبي بكلتا يديه ليظهر أنه ما من شيء مكتوب عليه، ثم عرض الجهة الأخرى حتى يستطيع الجميع التأكد من أنه خالٍ من الكتابة من الجهتين، ثم شده إلى صدره بكلتا يديه أيضاً، وهزه إلى الأمام وإلى الخلف لبعض الوقت وهو يحمله، ولكن شارلوك لاحظ أنه ينزل اللوح شيئاً فشيئاً؛ حتى أصبح تحت مستوى الطاولة. وأخذ يحرك جسده ليحافظ على انتباه الجميع. ركّز شارلوك نظراته على عضد ألبانو، ورصد الحركة عندما كتب على اللوح بواسطة يده اليمنى؛ حيث جعل الكشبتان ينزلق إلى سبابته تحت الطاولة وخرّبش رسالة سريعة.

ألقي ألبانو رأسه إلى الخلف بحركة تشبه حالة الإغماء، ولكن شارلوك لاحظ أنه يقوم بهذه الحركة ليشتت الانتباه عن حقيقة جلبه اللوح من أسفل الطاولة مجدداً؛ فهو لم يكن يهدف إلى إقناع الموجودين بأن اللوح

الخشبي موجود على الدوام في أعلى الطاولة، ولكنه كان يهدف إلى إقناعهم بأنه ما من خدع تحت الطاولة. لقد فكر شارلوك أن ألبانو لم يكن يريد من الحاضرين أن يتساءلوا عن مكان اللوح، ولذلك رفعه إلى الأعلى كي يتمكنوا من مشاهدته، وسأل: " هل هناك رسالة؟ " .

كانت تلك حركة ذكية برأي شارلوك. بالطبع هناك رسالة، وهو من كتبها، ولكنه كان يهدف من وراء طرحه هذا السؤال إلى إضفاء طابع المفاجأة عليه وعليهم.

صاح فون وبينو: " نعم " .

" من فضلك اقرأها " .

قرأ فون وبينو ببطء: " هناك شخص حول الطاولة غير مقتنع! " . كانت الرسالة مكتوبة بخط واضح؛ على الأقل بالنسبة إلى شارلوك. ولكن، عندما طلب ألبانو من أحدهم أن يقرأها فقد كان يهدف إلى إضفاء لمسة درامية على المشهد.

ألقي ألبانو نظرة على الجالسين إلى الطاولة وسأل: " هل هذا صحيح؟ هل يوجد أحد غير مقتنع؟ ليس من السهل على الأرواح عبور الحجاب بين العالمين إن كانت على ثقة بأن عبورها لا يعدو عن كونه هدرًا للوقت، وربما ستقرر حينها أن تتوقف عن الظهور " .

عبر كل من هولتزنبرك وفون وبينو عن استنكارهم لهذا القول بصوت مرتفع، وكذلك فعل شارلوك والسيد غروي ولكن بصوت أخف. فأوماً ألبانو قائلاً: " هذا جيد جداً " . ورفع صوته قائلاً: " أيتها الروح، إننا نتوسل إليك، تابعي التواصل معنا، هل هناك رسالة أخرى ربما لشخص محدد؟ " .

سُمع صوت ضربة عنيفة، واهتزت الطاولة، وتحركت القطعة الخشبية على طول الطاولة من حيث كانت تجثم في الوسط.

كرر ألبانو المسرحية السابقة، وأخذ يتأرجح حاملاً اللوح ومخفضاً إيّاه إلى أسفل الطاولة. كان شارلوك يعلم أن ألبانو يقوم بمسح الكتابة بواسطة قفازه الأبيض قبل أن يقوم بتدوين الرسالة الجديدة.

وعندما أظهر اللوح مجدداً من تحت الطاولة، ظهرت عليه الرسالة التالية: إنني أحمل رسالة من زوجة أحد الحاضرين.

نظر شارلوك نحو السيد غروي، فهو يعلم أن زوجته قد توفيت على متن السفينة التي أقلتهم من الولايات المتحدة إلى إنكلترا. من النادر أن يتحدث غروي عن زوجته، وتساءل شارلوك عن كيفية تفاعله مع الأمر.

كان فك غروي مشدوداً بإحكام، وكان شارلوك قادراً على رؤية توتر

عضلات خديه، إلا أنه لم يقل شيئاً.
سأل ألبانو: " هل فقد أحد من الموجودين زوجته؟ إن كان الأمر صحيحاً فليرتح فهي سعيدة وعلى خير ما يرام ".
جال شارلوك بنظره حول الطاولة، فقد كان على علم بأن شوفالوف غير متزوج؛ إذ أشار مايكروفت إلى الأمر في السابق، ولكنه لم يكن متأكداً من الوضع العائلي لكل من وبينو وهولتزنبرك. ولكن، من خلال النظر إلى وجهيهما لاحظ أنهما كانا ينتظران أن يصرح أحد ما عن أنه من فقد زوجته، وبدواً غير معنيين بالأمر. كوينتلان فقد زوجته أيضاً، ولكنه جزء من المؤامرة، وبالتالي لا مجال لأن يكون هو المعني؛ إذ لن يتأثر أي من الممثلين الأجانب برسالة ينقلها ألبانو إلى الرجل الذي ينظم الجلسة بهدف إقناعهم. وبالتالي، بدا أن السيد غروي هو المستهدف. أحس شارلوك بالغضب يعتمل في صدر السيد غروي، إذ لم يكن الأمر مجرد خدعة فقط، بل كان بمثابة انتهاك. يبدو أن كوينتلان وألبانو قد أجريا أبحاثاً حول كل واحد من الممثلين قبل مجيئه، وشملت تلك الأبحاث أقرباءه وأصدقاءه المتوفين. فقد قاما بالمرحبة الدرامية حول شقيق هولتزنبرك المتوفى في الليلة الماضية، والآن يحاولان إلقاء شبك خديعتهم على السيد غروي. وإذا وافق غروي على التواصل مع روح زوجته، فإن الرسالة التي سترده وفحواها أنها سعيدة وتطلب منه أن لا يحزن على فراقها ستكون عديمة القيمة؛ إن لم نقل عديمة المعنى. فبالنسبة إلى البعض، من الممكن أن يكون هذا الأمر مريحاً، ولكن غروي يعلم أن الأمر برمته خدعة، وأن الغضب الذي يشعر به يمكنه أن يقوده إلى أمور قد يندم عليها لاحقاً بصفته ممثلاً حكومياً.

همس شارلوك، وهو ينظر إلى الرجل الذي يجلس على الكرسي المدولب: " سير شادراتش، هل من الممكن أن تكون أنت المقصود بالرسالة؟ ". كان شارلوك يعلم أنه ليس المقصود، ولكنه أراد أن يتيح للسيد غروي بعض الوقت حتى يهدئ من روعه.

نظر كوينتلان بسرعة ناحية ألبانو، قبل أن ينظر مجدداً إلى شارلوك. كان من الواضح أنه لا يريد أن يتقبل فكرة أن الرسالة موجهة إليه - فقد أراد أن يقتنع غروي أن الرسالة موجهة إليه - ولكن نظرياً، كان من الممكن أن تكون الرسالة موجهة للسير شادراتش.

في تلك الأثناء، رفع ألبانو رأسه، وسأل وهو ينظر باتجاه شيء غير مرئي فوق الطاولة في محاولة منه لإنقاذ السير شادراتش: " هل الرسالة

للسير شادراتش؟ " .

سُمِعَ صوت ضربتين عنيفتين.

قال ألبانو بإصرار: " يجب أن يكون هناك شخص آخر من بين الحاضرين قد فقد محبوبته ". جال بنظراته حول الطاولة، ولم يدعها تتركز على السيد غروي؛ لأنه بهذه الطريقة يكون كمن يفضح أمره بأنه على علم بمن تستهدفه هذه الرسالة. كان الأمر بمثابة معركة إرادات بين الرجلين، وقرر شارلوك أن الوقت قد حان ليتدخل كي لا تأخذ الأمور بينهما منحى لا تحمد عقباه؛ فغروي لن يصرح بأن زوجته متوفاة لأنه لا يريد أن تدنس ذكراها بمثل هذه الخدع والألاعيب الدنيئة.

تابع ألبانو قائلاً: " هل هذه الرسالة للسيد فون وبينو؟ " .

سُمِعَ صوت ضربتين قويتين.

أدرك شارلوك ما سيحدث؛ إذ سيتابع ألبانو ذكر أسماء الأشخاص الجالسين حول الطاولة، ممّا سيتيح له إحداث الصوت، وبالتالي اختيار الشخص المستهدف - غروي - وهنا، لن يكون أمام غروي إلا أن يتقبل أنه الضحية أو يعترض.

في هذه الأثناء، سحب شارلوك السكين الذي جلبه من غرفة الطعام من كفه، وقام بقلبه، حيث أمسك بحده براحة يده وجعل المقبض متجهاً إلى الخارج.

سأل ألبانو بتأنٍ من دون أن ينظر إلى السيد غروي: " هل الرسالة موجهة للسيد غروي؟ " .

ولكن، قبل أن يتمكن ألبانو من ركل قائمة الطاولة أو القيام بما يقوم به من أجل إحداث الصوت، ضرب شارلوك على أسفل الطاولة بواسطة مقبض السكين مرتين.

وسُمِعَ صوت ضربتين قويتين.

لم يكن صوت الضربتين مشابهاً تماماً للصوت الذي يحدثه ألبانو، ولكنه كان قريباً منه إلى حدٍّ ما؛ مما جعل معظم الجالسين إلى الطاولة يجفلون. أما السيد ألبانو والسير شادراتش فقد بدا عليهما وكأنهما أصيبا بالرعشة، إذ أدركا أن الصوت قد صدر عن مصدر لا علاقة لهما به، كما أدركا أن مخططهما للإيقاع بالسيد غروي قد انتهى بالفشل قبل أن يبدأ. وكانت مشكلتهما الرئيسة أنهما لا يستطيعان القول إن هاتين الضربتين غير صحيحتين؛ ما لم يعترفا بأنهما المسؤولين عن الضربات السابقة.

التوى فم ألبانو من شدة الغضب للحظة، وهذا ما لاحظته شارلوك

وربما غروي أيضاً. حدّق ألبانو عبر الطاولة محاولاً تحديد الشخص الذي ضرب الضربتين القويتين محدثاً الصوت غير المتوقع. ثم تابع طرح سؤاله على الأرواح حول الشخص المقصود بالرسالة، ذاكراً كلاً من وينو وهولتزينك ومايكروفت الغائب وحتى شارلوك نفسه، ولكن الإجابة الروتينية المتمثلة بصوت الضربتين العنيفتين كانت تتكرر دائماً. وعندما استنفذ خيارات الأسماء المتاحة كلها، أعلن قائلاً: " أخشى أن تكون الأرواح مشوّشة ومرتبكة نتيجة الاضطراب في حركة التيارات الروحية. ربما كانت الرسالة موجهة لشخص آخر في مكان آخر. لا بأس " .

ألقي شارلوك نظرة سريعة ناحية أستاذه وصديقه السيد غروي. كان وجهه شاحباً، والتوتر بادياً عليه، وكانت شفاته مزمومتين بغضب، لكنه أوماً إلى شارلوك شاكراً وممتناً لكل ما قام به.

قال ألبانو بنزق: " أشعر أنه ما من رسائل أخرى ستأتي الليلة. ولكن، إن كنا محظوظين فستشعر إحدى الأرواح بأنها قادرة على إظهار نفسها أمامنا مباشرة. أرجوكم، ركّزوا جيداً كي تشعر الأرواح بأنه مرحب بها هنا. اطلبوا منها بعقولكم وقلوبكم أن تظهر أمامنا، واقمعوا وأخمدوا أي شك تجاهها في قلوبكم " .

انحنى إلى الأمام، ورفع يديه إلى وجهه، وأدرك شارلوك ما سيحدث؛ فقد لاحظ أن ألبانو يقوم بالحركة المسرحية المعتادة التي تتيح له إخفاء أمر تمريره شيئاً من يده باتجاه فمه. ما من شك في أنها المادة التي كانت موجودة في الصندوق أسفل الفراش، والتي تتيح له إنتاج الشكل الأكتوبلازمي؛ ولكنه لم يتمكن من رصد أي حركة تمرير.

لوّح ألبانو بيديه في الهواء، وتأمله شارلوك، فلاحظ أن خده الأيمن منتفخ نوعاً ما. يبدو أن هناك شيئاً ما في فمه لم يكن موجوداً فيه قبل الآن.

صاح: " إنني أشعر بها! ". وكان صوته مكتوماً إلى حدّ ما بتأثير الشيء الموجود في فمه: " إنها قادمة! " .

كانت يدها تقومان بحركة تشبه القبض على شيء ما في الهواء، فأدرك شارلوك أنه يبحث عن خيوط رفيعة جداً تتدلى من السقف من خلال خطافات، والتي تستخدم من أجل سحب المادة حتى تكون على شكل الكفن.

في عتمة الغرفة، لم تكن الخيوط مرئية. في الليلة الماضية، كانت حركاته منطقية ولكنها مبالغ فيها. غير أن شارلوك يعلم الآن ما يقوم به،

ولكنه لم يستطع أن يعرف كيفية قيامه بالخدعة بالضبط. بدا واضحاً أن حركة يده كانت تبحث عن الخطافات المعلقة بالخيط الرفيعة؛ لأنه حرّك يديه ذهاباً وإياباً مرة ومرتين بالقرب من فمه وسعل بعنف؛ في محاولة لإخراج المادة ومحاولة تعليقها خلسة في خطافات الخيوط. وفي النهاية، أرجع رأسه إلى الخلف بقوة، وأبعد يديه عن فمه مجدداً، وفي أثناء ذلك انبثق شكل شبحي أبيض. سُمع لهاث الممثلين الروسي والألماني والنمساوي - الهنغاري في أرجاء الغرفة، فقد تفاعلوا مع ظهور الشكل.

قامت خطافات الخيوط بسحب المادة؛ مشكلة شكل كفن إنساني خشن نوعاً ما. داخل الكفن، كان هناك وجه يظهر إلى حيز الوجود. في الأمس، كان الوجه وجه فتاة شابة. والليلة، الوجه مجعد، ويعود إلى امرأة عجوز. حدق شارلوك في الأرجاء في محاولة منه لتحديد مكان المسلاط، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً؛ إذ لا بد أن عدسات المسلاط مغطاة في مكان ما بطريقة أو بأخرى، ولا يستطيع رؤيتها إلا الشخص الذي يقف قبالتها أي ألبانو، كما أن المادة المتمددة تشكل حاجباً ممتازاً للعدسات. كان شارلوك لا يزال يشعر بالغضب يعتدل في صدره منذ أن حاول ألبانو إجبار غروي على القبول بأن الرسالة الزائفة من زوجته المتوفاة. لذا، لم يكن باستطاعته البقاء جالساً والسماح بالمزيد من هذه المهزلة. ما من شك في أن شقيقه كان سيدع المهزلة تستمر، ولكنه شعر بأن الأمر مخزٍ فلم يستطع البقاء صامتاً. فصاح: " توقف! ". وهب واقفاً.

الفصل العاشر

قبل أن يتمكن أي كان من إيقافه، وقبل أن يتمكن ألبانو من التخلص من الشكل الاكتوبلازمي المزيف، تقدم شارلوك وانتزعه من الفراغ الذي يعلو الطاولة. كانت المادة البيضاء خفيفة إلى درجة أنه بالكاد أحس بوزنها على يديه، إلا أنه كان يستطيع الإحساس بها على بشرته. وأخذت الخيوط غير المرئية تنقطع الواحد تلو الآخر، ورست المادة التي كانت تطفو فوق الطاولة عليها.

قال: "زيدوا من قوة إنارة مصابيح الغاز". ولكن، قبل أن ينهي جملته، كان الضوء في الغرفة يصبح أكثر إشعاعاً، ولاحظ شارلوك أن غروي كان ينتقل من مصباح إلى آخر، ويرفع من قدرته على الإنارة إلى أقصى حد.

صاح كوينتلان بأعلى صوته: "ما الذي يعنيه هذا؟". بدا شاحب الوجه: "أنتم ضيوف في منزلي، وما تقوم به انتهاك لأصول الضيافة على نحو غير مقبول".

فما كان من شارلوك إلا أن صاح به قائلاً: "إن الأمر غير المقبول هو ما تقومون به أنت وهذا الرجل". وأشار إلى ألبانو، وتابع: "أنتما تقومون بالحيل لكي تقنعونا بأنكما تستطيعان التواصل مع الأموات، وتقومان بذلك بهدف الحصول على المال من الحكومات". وقام شارلوك بجمع المادة البيضاء الموجودة على الطاولة وحملها، ثم تابع قائلاً: "هذا ليس أكتوبلازم، ولم تصنعه الأرواح، ولم يخرج من اللامكان، بل إنه لا يعدو عن كونه ضرباً من حيل ألعاب الخفة".

كان هولتزبرنك وفون وبينو يحدقان إليه فاغرين فميهما، إلا أن الكونت شوفالوف كان يتعامل مع الموقف بأقل انفعالية، ولكنه ينتبه جيداً إلى ما يتفوه به شارلوك.

وسأل: "وماذا بشأن الوجه؟".

"إنه تسليط ضوء". وأشار شارلوك إلى الجانب البعيد من الغرفة حيث كان يعلم أن هناك مسلاً؛ مستنداً في ادعائه إلى الضوء الذي كان ينبثق من هناك، وتابع: "يمكنكم أن تجدوه هناك مخفياً خلف الحائط. لا بد أن هناك فجوة يستطيع الضوء المرور عبرها".

عندئذ دمدم فون وبينو: "ولكن... من أين أتى الأكتوبلازم؟ أعني

المادة؟".

لم يقل شارلوك شيئاً ولكنه قام بجمع المادة ورصّها، ثم رصّها مجدداً حتى أصبحت كعقدة صغيرة بحجم حبة بندق وقال: "إنها سهلة الإخفاء". وقام بتمرير يده فوق الطاولة حتى عثر على الخيوط السوداء، فعلقها بها، ثم أفلتها مجدداً فبدت كسحابة منتفخة، وبدت المادة البيضاء كما لو أنها تطفو تماماً، وتابع قائلاً: "لقد تحكّموا بها من خارج الغرفة حتى تأخذ شكلاً محدداً".

عندها، قال هولتزبرنك: "شكل امرأة".

فهز شارلوك كتفيه وقال: "الشكل الذي تعتقد أنت أنه شكل امرأة. ألم تشاهد يوماً سحابة في السماء، وتفكر في أنها تبدو ككتين؟ الدماغ يساعد على إنتاج الوهم".

احتج ألبانو بنبرة صوت مرتفعة وقال: "أنت تتهمني بالخداع. من المعروف أنه عندما تلمس يد الإنسان الاكتوبلازم فإنه يتحول إلى مادته الأصلية. إن أي شخص ضليع بهذه الأمور يعرف هذا، وأنت بتصرفك اللفظ هذا لم تقم بإثبات أي شيء".

حدق ألبانو بتحدٍ إلى الأشخاص الجالسين إلى الطاولة، وبدت عينه الواضحة وكأنها تنظر إلى الجميع في الوقت ذاته، وقال: "لن أقبل بالاستماع إلى مثل هذه الاتهامات مجدداً".

استدار ألبانو وهم بالمغادرة، ولكنه وجد أن السيد غروي يقف خلفه مباشرة.

قال له غروي بلطف: "في اللحظة التي استخدمت فيها ذكرى زوجتي العزيزة كسند لأعبيك وحيلك القذرة خسرت كل فرصة ممكنة لكي تعامل باحترام، اجلس الآن".

جلس ألبانو على نحو غير متوقع وقد بدا شاحب الوجه، فيما تابع غروي وقال: "وأنت". وهو يشير إلى كوينتلان الذي كان يطلب من خادمته بهدوء أن تدفع كرسيه المدولب بعيداً: "ابق حيث أنت، لدينا الكثير من الأشياء التي نود أن نقولها ونرغب بأن تسمعها". حينها التفت ناحية شارلوك وقال له: "تابع يا بني، كنت تتصرف بشكل جيد".

فقال شارلوك: "الأمر برمته لا يعدو عن كونه سلسلة من الحيل التي صممت لتقنعكم بأن ألبانو يستطيع التواصل مع الأموات، ولكي تستخدموا كل الموارد التي أتاحتها لكم دولكم في المزايدة على قدراته".

"حيل!". بدا فون ويينو كالمنوم مغناطيسياً. "ولكن، ماذا بشأن الكتابة على اللوح الخشبي؟ كيف حصل ذلك؟ أنا عالم، ولم أستطع معرفة كيفية

قيامه بذلك".

أجابه شارلوك وهو يتجه إلى حيث يجلس ألبانو، ومد يده إلى الجهة اليمنى من سترته؛ إلى حيث يعلم أن الكشتبان الأبيض معلق بالخيط المطاطي: "بشكل بدائي". ومررت عليه لحظات عصيبة عندما لم يجد ما كان يتوقع وجوده. ولكن، بعد مرور بضع ثوانٍ على تحريكه أصابعه إلى الأعلى والأسفل، أحس بشيء صلب، وقام بإخراجه، وعندما سحب الخيط المطاطي تغير شكل سترة ألبانو.

"هذا الكشتبان يحتوي على نتوء من الطباشور في نهايته، وقد استخدمه ألبانو ليكتب بواسطته على اللوح الخشبي. وعندما كان ينتهي من الكتابة، كان الخيط المطاطي يسحب الكشتبان إلى داخل كم سترته". عندها قال هولتزبرنك: "ولكن الرسائل كانت تمحى".

"كان يقوم بمسحها بواسطة القفازين الأبيضين اللذين يرتديهما؛ فالطباشور الأبيض لن يكون مرئياً على القفازين الأبيضين". تبادل كل من هولتزبرنك وفون وبينو النظرات، وبدت الصدمة واضحة عليهما، وقد لاحظ شارلوك ذلك؛ فهما لسبب ما أرادا أن يصدقا أن قدرات ألبانو حقيقية.

انحنى الكونت شوفالوف إلى الأمام وقال: "أنت مقنع جداً في كل ما قلته حول الكتابة على اللوح الخشبي، وتجسيد الشكل الاكتوبلازمي. أما بشأن المعلومات عن فريتز شقيق السيد هولتزبرنك". صمت ونظر باعتذار ناحية غروي ثم تابع: "وزوجة زميلنا الأميري فقد جمعت مسبقاً بطريقة استقصائية، فأنا أعلم في هذا الحقل، وأعلم كيف يتم جمع مثل هذه المعلومات". صمت مجدداً، وحدث باهتمام ناحية شارلوك قائلاً: "ولكن اختفاء السيد ألبانو من العربة قبل تحطمها لا يبدو لي خدعة، فقد اختفى الرجل فعلياً".

أجابه شارلوك بهدوء: "كان هناك اختفاء، ولكن من اختفى لم يكن ألبانو". وصمت ونظر إلى الممثلين الأربعة ذوي المقام الرفيع وتابع: "لقد كان تحطم العربة مدبراً؛ لكي يظهر ألبانو بمظهر الشخص ذي القيمة بالنسبة إلى الأرواح في البعد الآخر التي ستقوم بنقله إلى عالمها إن كان هناك تهديد لحياته، وستعيده مع زوال هذا التهديد. ولكن، لم يكن هناك تهديد أو اختطاف".

عندها، قال هولتزبرنك: "ولكننا جميعاً رأينا الخاطفين الأربعة".

"كلا، نحن لم نر أربعة خاطفين بل ثلاثة؛ فقد رأينا الحوذي

والشخصين اللذين ترجلا من العربة وخطفا ألبانو. أما الشخص الرابع فلم يكن سوى دمية أو شكل ظلي، وقد صنع بسهولة من خلال تعليق سترة في العربة ووضع قبعة فوقها لتبدو كـ"رأس".

هنا قال فون وبينو: "ولكن أربعة رجال ركضوا بعد تحطم العربة". وافقه شارلوك الرأي: "صحيح، وكان ألبانو أحدهم". حدق شارلوك إلى الرجال ذوي المقام الرفيع واحداً تلو الآخر. كان غروي وشوفالوف مقتنعين، ولكن كان عليه إقناع فون وبينو وهولتزينر. "عندما وُضع ألبانو في العربة، ارتدى السترة بسرعة، ولف وجهه باللفاح. وعندما تحطمت العربة، هرب مع الرجال الآخرين".

التفت شارلوك نحو كوينتلان وسأله: "هل كانوا من خدم القلعة؟ أم استأجرت خدمتهم من المدينة؟".

اكتفى كوينتلان بالتحديق إليه بحزن. "أياً يكن الأمر، فهذا ليس موضوعنا". ثم التفت ناحية السيد غروي وسأله: "هل أغفلت أي شيء؟ أظن أنني تناولت الأمور المهمة كلها". حثه غروي قائلاً: "ولكنك لم تذكر شيئاً عن الاعتداء الذي تعرض له شقيقك".

نظر شارلوك ناحية فون وبينو وهولتزينر، ثم إلى شوفالوف وقال: "نعم، هذا الأمر لا علاقة له بجلسة التحضير، أو محاولة أخذ المال من الحكومات. فالأمر لا يعدو عن كونه محاولة لتقليص عدد المشاركين في المزايدة. أعتقد أن أحدهم ظن أن الحكومة البريطانية بحكم مواردها الضخمة ستكون الأكثر رغبة بالحصول على خدمات ألبانو، ولذلك أراد أن يخرج شقيقي من المزايدة".

عندها، سأله غروي: "وهل تعلم من هو؟". أجابه شارلوك: "في البداية، شككت بأن المعتدي تمكن من الوصول إلى المكتبة عبر ممر سري. ولكنني الآن أعتقد أن هناك تفسيراً أكثر ابتداءً. إنني في الوقت الحالي أعتقد أن المعتدي كان مختفياً خلف الستائر في المكتبة". ثم صمت وجال بنظره على المجموعة. "أنتم جميعاً رجال نبهاء، ولكن المعتدي رجل أخرق". وأشار إلى الكونت شوفالوف وسأله: "لماذا أذنت لخادمك بالانصراف باكراً يا حضرة الكونت؟".

حدق شوفالوف إلى شارلوك لوقت طويل، ثم أجابه: "لم يكن كفوّاً، ولم يلبّ معاييري، ولذلك أعدته إلى الديار مخزياً". "أتقصد أنه قام بالاعتداء على شقيقي من دون أن يأخذ إذناً مسبقاً

منك؟ وأنه أخذ على عاتقه العواقب التي قد تترتب على الحادثة؟ أتقصد أنه تصرف من تلقاء نفسه ظناً منه أنه يمد لك يد العون، وأنت قابلت جميله بطرده؟".

هز شوفالوف كتفيه وردّ عليه قائلاً: "أنت تفكر بشيء وتصدقه وتتمنى أن يكون صحيحاً. ولكن صدقني في ما سأقوله: لم ولن أعطي أمراً أحقق كهذا، وخصوصاً أن الشخص المقصود بالاعتداء صديقي. وتأكد أن لدي طرائق أخرى أفضل بكثير تتيح لي كسب المزايدة على خدمات السيد ألبانو لصالح حكومتي؛ هذا إذا كانت خدماته حقيقية". عندها، ألقى نظرة على كوينتلان وتابع: "إنني على ثقة بأن أصدقاءنا هنا يثقون بأني لست من نفذ هذا الاعتداء الغاشم على السيد مايكروفت، وأنا أشكرهم على منحهم إياي هذه الثقة".

حدق كوينتلان إلى كل من شارلوك وغروي، ثم شمل الجميع بنظرة أخرى وقال: "إنني أتفهم كيف يبدو الأمر بالنسبة إليكم، وأفهم أنكم تفكرون في قرارة أنفسكم أنكم تبدون سُدْجاً؛ فأنتم تعتقدون أنني والسيد ألبانو تأمرنا عليكم من أجل حملكم على دفع الأموال لقاء الحصول على خدمات السيد ألبانو الزائفة. ولكن، أرجوكم صدقوني، إن قدرات هذا الرجل حقيقية وموجودة بالفعل".

عندها، تدخل شارلوك وسأله: "ما دام الأمر على هذا النحو، فلماذا الحيل والخداع والألاعيب؟".

رفع كوينتلان يده إلى جبينه وقال: "إنها... الأمر مربك ويصعب شرحه". عندها، أوماً ناحية ألبانو وسأله: "هل تمنع شرح الأمر؟".

خطأ ألبانو خطوة إلى الأمام وقال: "إنني أعترف بوجود حيل، ولكنها لم تكن تهدف إلى خداعكم بقدر ما كانت تهدف إلى حمايتي". هز كتفيه وتابع: "إن قدراتي هشة وغير دائمة، فهي تذهب وتأتي. وعندما قام السير بالترتيبات لهذا اللقاء، كانت قدراتي على خير ما يرام، وكنت مستعداً وقادراً على إقامة الدليل على مهاراتي وقدراتي عندما يطلب مني ذلك". تنهد وتابع: "ولكنني في الوقت الفاصل بين إتمام الترتيبات وحضوركم، أصبت بحمى أقعدتني طريح الفراش لأسابيع عدة، وقد خشي خلالها الأطباء على حياتي، وكنت على شفير الموت، ولكنني شفيت، وأشكر صديقي السير كوينتلان على ما بذله من عناية بي وبصحتي خلال فترة مرضي. ولكن، عندما استعدت عافيتي الجسدية، لاحظت أنني لم أستعد قدرتي على استدعاء الأرواح والعبور إلى البعد الآخر. في الحقيقة، في الوقت الحاضر

قدراتي ليست معدومة؛ فأنا أستطيع بين الحين والآخر تلقي بعض الرسائل من البعد الآخر، ولكن قدراتي لا يمكن الاعتماد عليها بشكل دائم. لقد رجوت السير أن يلغي لقاء المزايدة هذا أو على الأقل أن يؤجله، لكنه قال لي إن التحضير لهذا اللقاء استغرق جهداً ووقتاً طويلاً، وإنه لا يستطيع إلغائه الآن؛ خصوصاً وأنكم كنتم في طريقكم إلى هنا. وقد اقترح عليّ أن أخبركم بالحقيقة في حال فشلت في بعض أو كل عروضي التي يفترض بي تقديمها لإقامة الدليل والبرهان على قدراتي. إذًا، يمكنني الآن أن أقول لكم إنني كنت أخدعكم. لقد قمنا باختراع سلسلة من الخدع التي من شأنها أن تعطيك انطباعاً بأن الجلسات حقيقية، وأنا أتقدم من حضراتكم بأسفي العميق". ومد يديه بطريقة تدلّ على أسفه. "لقد جعلنا الهلع من الفشل بإقناعكم نرتكب هذا العمل الأحمق".

عندها، قال فون وبينو: "إذًا، أنت تقول إن لديك مهارات وقدرات، ولكنك لا تستطيع في الوقت الراهن السيطرة عليها، ولا تعلم متى ستعود مجدداً لتصبح فعالة وتحت سيطرتك".

أجابه ألبانو: "بالضبط، هذا هو الوضع. ولكنني أستطيع أن أضيف إلى ما تفضلت به أنني أستعيد قدراتي بشكل تدريجي، وأنا متأكد تماماً من أنني في غضون شهر على الأكثر، سأكون قد استعدتها بشكل كامل".

أجابه غروي بجفاء: "ونحن يفترض بنا تصديقك، أليس كذلك؟".
أجابه كوينتلان بسرعة: "بالتأكيد لا. نحن نشدد على أن هذا التفسير صحيح وصادق، ولكنه ربما لن يقنعكم، لذلك أقترح عليكم أمرين. أولهما: بالنظر إلى أن قدرات السيد ألبانو تستعاد تدريجياً، سوف نقوم بتنظيم جلسات أخرى لإقامة الدليل؛ ولن تكون مزيفة، كما أنها لن تحتوي على أي حيل، ويمكنكم تفحص كل شيء فيها مسبقاً للتأكد، وهذا ما سيقنعكم بأن قدرات هذا الرجل حقيقية. وثانيهما: إن المزايدة ستكون على أساس أننا نعرض جزءاً من قدرات هذا الرجل وليس كل قدراته؛ وعندما تزايدون بالنيابة عن حكوماتكم ستأخذون هذا الأمر بعين الاعتبار". حدق بالأشخاص الموجودين واحداً تلو الآخر وتابع: "هل هذا مقبول بالنسبة إليكم أيها السادة الأفاضل".

هز غروي رأسه الكبير وقال: "كلا، هذا غير مقبول. إننا ندعو أمثال هذا الرجل في بلادنا فليم فلام. فهو ليس أكثر من محتال قادر على إشعارنا بالثقة، وما تقوله لا يعدو عن كونه محاولة مثيرة للشفقة لمنعنا من المغادرة".

عندها، قال شارلوك: "إن رأي ممثل الحكومة البريطانية يتوافق ويتطابق مع رأي ممثل الحكومة الأمريكية". أحس شارلوك بالقشعريرة تسري في جسده عندما تفوه بهذه الكلمات. وقد أعجبته فكرة أنه يتكلم مباشرة بالنيابة عن الحكومة البريطانية. وكان متأكداً من أن شقيقه سيتخذ القرار نفسه لو كان موجوداً، ولكنه سيعبر عنه بطريقة مختلفة.

عندها، قال كوينتلان بحزن: "إنني أتفهم قراركما أيها السيدان، وأشكركما على صدقكما". واستدار حيث أصبح بمواجهة شوفالوف وهولتزبرنك وفون وبينو وسألهم: "وماذا بشأنكم أيها السادة؟ ما هو جوابكم على ما طرحته؟".

نظر فون وبينو وهولتزبرنك إلى الكونت شوفالوف الذي بدا وكأنه قائد المجموعة ومرشدها، فأوماً بوقار. حينها، التفت فون وبينو ناحية كوينتلان وصرح: "سوف نشاهد عرضكما الأخير وبراهينكما". وأضاف هولتزبرنك: "ولتعرفا جيداً أننا متشككون وسنشاهدكما بعيون ناقدة، ونحن نتوق إلى أن تزودانا ببراهين لا يرقى إليها الشك. وإذا تمكنتما من إقناعنا، فعندها ستكون هناك مزايدة".

قاطع فون وبينو وقال: "ولكن عدد المزايدتين سيكون أقل". عندها، نظر إلى كل من غروي وشارلوك، وهز رأسه تعبيراً عن الاعتذار والتأسف وتابع: "إن خرجتما الآن فلن تتمكننا من العودة والمزايدة لاحقاً؛ إن كانت براهينهما مقنعة".

دمدم غروي: "أوافق".

أما شارلوك فأوماً وقال: "وأنا أيضاً موافق".

وتحدث شوفالوف بهدوء، فيما أصغى إليه الجميع نظراً إلى أنه قليل الكلام. وبما أنه يتكلم فلا بد أن ما سيقوله سيكون على قدر كبير من الأهمية: "ولكن لدي شرطاً واحداً، فأنا أصر على أن يحضر هذا الشاب ذو العقل النير، والذي تمكن من اكتشاف كل الحيل التي انطلت علينا جميعاً كالسذج وفضحها". وابتسم وتابع: "وأنا أعترف بأنني أحد السذج الذين انطلت عليهم الحيل. لذا، أصرّ على حضوره العرض ومشاهدته البراهين النهائية لكي يتمكن من اكتشاف أي أدلة على وجود حيل، كما أصر أيضاً على حضور المبعجل السيد غروي على قاعدة أنه كلما كثرت العيون المتفحصة كان ذلك أفضل. ولكنهما لن يشاركا في المزايدة إن حصلت، بل سيكتفيان بمشاهدة كل شيء".

نظر كوينتلان إلى ألبانو وأوماً، حينها صرح هذا الأخير قائلاً: "شروطك

مقبولة".

عندها، وقف شارلوك وقال بكل إصرار وعزيمة وثقة: "وأنا أصر على أن تعرض البراهين في النهار وليس مساءً، فضوء النهار أكبر فاضح للحيل والخدع".

مجدداً قال كوينتلان: "شرطك مقبول". وبالرغم مما قاله كوينتلان، لم يبد شارلوك مسروراً.

بعد ذلك قال ألبانو: "الآن، أريد أن آخذ قسطاً من الراحة من أجل تجديد طاقتي. إنني أقترح أن تكون جلسة الغد بعد الغداء".

قال كوينتلان: "ستعقد الجلسة غداً بعد الغداء. وحتى ذلك الموعد، يفترض بكم أيها السادة أن ترفهوا عن أنفسكم وتتسلوا".

وأوماً إلى سيلمان التي كانت تقف خلفه طوال الوقت بثبات حتى نسي الجميع أنها كانت هناك. عندئذ، دفعت الكرسي المدولب وخرجت مع السير، وتبعهما ألبانو. اقترب غروي من شارلوك وقال له: "إنه تصرف في غاية الحذق. لقد نجحنا في تحويل الهزيمة إلى نصر مبین. يا لهم من سذج!". ونظر نحو الرجال الثلاثة الجالسين قبالتهما، والذين كانوا يتحدثون بصوت منخفض، وتابع: "إنهم يرغبون، لا بل يتوقون إلى أن تكون قدرات هذا المنافق حقيقية".

قال شارلوك: "على الأقل ستتاح لنا فرصة مشاهدة كيفية قيامه بالحيل من دون الحاجة إلى إهدار أموال حكومتينا".

أجابه غروي: "أعتقد أن ما سيقوم به واحدة من أقدم الحيل وأكثرها تعقيداً. لذا، يفترض بنا أن نكون متيقظين". ثم لاحظ غروي تعبيراً مرتسماً على وجه شارلوك فسأله: "ما الخطب؟".

أجابه شارلوك: "كنت أفكر في أن نيف ابنة السير شادراتش لن تسر مما قمت وسأقوم به".

أوماً غروي وقال: "هذه معضلة الحقيقة يا بني؛ فهي لا ترضي الكثير من الناس لأنها تفسد مخططاتهم. ولكن هذا لا يعني أنه يفترض بك مجافاة الحقيقة. غير أنك يجب أن تعلم أن قولك الحقيقة لن يبقي لديك الكثير من الأصدقاء، ولكن القليلين الذين سيقون سيكونون أفضل الأصدقاء على الإطلاق". عندئذ، التفت ناحية شوفالوف وفون وبينو وهولتزينك وقال: "أقترح عليكم أن تنالوا قسطاً وافياً من النوم، وأتمنى أن تتمتعوا بنوم هائئ الليلة. ولنفكر بما حدث ونتكلم حوله في صباح الغد. هل أنتم موافقون؟".

أوماً الثلاثة الآخرون.

سأل الكونت شوفالوف: "ماذا بشأن السيد هولمز؟ هل سيوافق على هذا الاتفاق؟".

نظر غروي ناحية شارلوك وقال: "سأذهب وأوجز له الأمر. إنني على يقين من أنه سيكون مهتماً بمعرفة ما أنجزه شقيقه هذا المساء، كما أنه سيكون مرتاحاً لمعرفته من اعتدى عليه". في هذه الأثناء، نظر إلى شوفالوف وقال: "كان خادمك، ألم يكن هو؟".

صدرت عن شوفالوف إيماءة غامضة: "دعنا نقول إن الأمر لن يتكرر مجدداً بكل تأكيد. لن يكون السيد هولمز في دائرة الخطر مجدداً". عندها، نظر غروي إلى شارلوك وسأله: "هل سترافقني أم أذهب بمفردي؟".

فكر شارلوك للحظة. كان يعلم أن شقيقه سيريد شرحاً مستفيضاً حول كل شيء حدث الليلة، ولم يجد في نفسه الطاقة للقيام بذلك؛ على الأقل الآن. لذا، أجاب السيد غروي: "يمكنك إخباره بمفردك؛ فقد كنت شاهداً مستقلاً، وهذا ما سيضفي المزيد من المصداقية على أقوالك. يمكنني الإجابة عن أي من أسئلته في صباح الغد".

أجابه غروي: "إن الأمر منصف بما فيه الكفاية". وأوماً ثم قال: "ما دام الأمر على هذا النحو، تصبحون على خير أيها السادة، وأكرر: ناموا جيداً".

عندها، قال فون وبينو: "بالنسبة إليّ، أظن أنني بحاجة إلى بعض الشراب. هل يرغب أحدكم بالانضمام إليّ؟".

أوماً كل من شوفالوف وهولتزينر دليلاً على الموافقة، فغادر شارلوك وغروي واستقلا المصعد إلى حيث تقع غرفتهما.

فيما كان غروي يغادر المصعد قال لشارلوك: "لقد قصدت كل كلمة قلتها بالفعل. لقد أبليت حسناً، وقمت بحمايتي والحيلولة دون قيامي بعمل كنت سأندم عليه لاحقاً. إنني مدين لك بالشكر يا بني".

ابتسم شارلوك، ولم ينبس ببنت شفة.

بدا أن الإنهاك قد نال من شارلوك، لذا استغرق في النوم مباشرة بعد أن خلع نعليه وفك قميصه. لقد نام وهو لا يزال يرتدي نصف ثيابه، كما أنه نام على السرير بشكل أفقي. لقد بدت أحداث الليلة السابقة بمثابة حلم مزعج.

في الصباح، عندما نزل لتناول الفطور، كان الممثلون الآخرون موجودين

في القاعة قبله؛ بمن فيهم مايكروفت الذي كان في كامل أناقته، وكان الرباط لا يزال يطوق رأسه. بدا أفضل حالاً، وقد استعادت وجنتاه لونهما، وزال شحوب وجهه. نظر مايكروفت إلى شقيقه وأوماً إليه بوقار، ثم تابع حديثه.

توجه شارلوك إلى البوفيه، وقام بتكديس الأطعمة في أحد الأطباق، فيما قامت إحدى الخاديمات بملء كوب من القهوة له. لكنه لم يشعر بأنه في مزاج جيد، فقد تركته أحداث الليلة السابقة مستنزف القوى، وهو يبدو اليوم كشمعة تذوي لن يبقى منها سوى الفتيل المحترق الذي يصدر دخاناً. لفتت انتباهه حركة عند الباب؛ لقد دخلت نيف كوينتلان، وعندما رآته توقفت فجأة، وحدقت إليه بعينين تفيضان حقدًا وغلاً، فسألها: "هل تكلمت مع والدك؟".

نظرت إليه للحظات، وكانت نظراتها مليئة بالأم، لكنها لم تلبث أن غادرت قاعة الطعام مجدداً.

همهم شارلوك لنفسه: "أعتقد أنني لست جائعاً". إلا أنه أجبر نفسه على تناول بعض التوست والمربي. في تلك الأثناء دخلت فرجينيا، فشاهدت والدها وابتسمت له، ثم لاحظت وجود شارلوك فابتسمت له قليلاً، ثم ما لبثت أن استبدلت ابتسامتها بتعبير لم يستطع فهمه. لم تبد غاضبة بمقدار نيف، ولكن تعبير وجهها كان أشبه بالمحترارة أو الخائفة. ولم يكن متأكدًا من الوصف الذي ينطبق عليها.

كحال نيف، استدارت فرجينيا وتركته ولم تجلس معه. خاطبه السيد غروي من الطرف الآخر من الطاولة: "يبدو أن لديك طريقة خاصة مع النساء يا بني؟".

فرد عليه شارلوك: "ولكن، يبدو أنها طريقة خاطئة". وعندما أنهى التوست والقهوة، كان الاجتماع في النهاية الأخرى من الطاولة لا يزال مستمرًا، وقد احتار في أمره؛ هل ينضم إلى المجتمعين أم لا؟ لكن مايكروفت نظر إليه، والتقت نظراتهما. عندها هزّ مايكروفت رأسه، فغادر شارلوك المكان، ووقف للحظات في القاعة الرئيسة مترددًا، وفكر بالعودة إلى غرفته، وبالجلوس فيها لفترة بانتظار انتهاء الاجتماع. وفي النهاية، قرر التجول في القاعة، ثم خرج إلى الباحة خارج المبنى الرئيس.

كانت فرجينيا تقف هناك، وهي تستنشق الهواء العليل، وتحقق إلى السماء متحدثة مع نيف كوينتلان. وبدت الاثنتان وكأنهما متفاجئتان. كان الجو غائمًا، ولكن لم تكن هناك أمطار، ولم تكن السحب رمادية؛ وهذا إن

دل على شيء فإنه يدل على أنه ما من أمطار وشيكة.
شاهدتهما شارلوك من مكانه، ولم يرغب بمقاطعتهما. أخيراً، أومأت نيف
وابتسمت وغادرت. انتظر شارلوك قليلاً قبل أن يقترب من فرجينيا.
قال لها: "مرحباً".

فأجابته بعذوبة: "مرحباً شارلوك".
حينها، خاطبها بارتباك: "كنت تتحدثين مع نيف، لم أكن أعلم أن
هناك أموراً مشتركة تجمع بينكما وتتحدثان عنها".
"لديها أحصنة، حسناً مهور صغيرة تدعى كونيميرا. وقد قالت إنني
أستطيع امتطاء أحدها لاحقاً إن كانت لدي رغبة في ذلك".
لم تكن لدى شارلوك أدنى فكرة عما يفترض به الرد عليها، وخيم
عليهما صمت ثقيل الوطأة. ومن أجل كسر الصمت سألهما: "هل تريدان
السير معي في الخارج؟".
"هل هناك شيء يستحق المشاهدة؟".
"الشاطئ".

أومأت فرجينيا: "حسناً، دعنا نستكشفه".
سار شارلوك أمامها في طريقهما إلى خارج القلعة. عبرا الخندق المائي،
ثم توجه إلى الجرف بالاعتماد على ذاكرته؛ فقد تذكر أن نيف أخبرته عن
طريق تقود نزولاً إلى الشاطئ. لم يستغرق منه الأمر أكثر من دقائق قبل
أن يعثر على الممر المدرج. استعملا الدرجات أحياناً، في حين اندفعا أحياناً
أخرى فوق الصخور والطين. كان هناك درابزين خشبي يحيط بمعظم الممر،
وكانا يستخدمانه للاتكاء عليه وللحيلولة دون انزلاقهما. لكن في بعض
الأماكن، كان الدرابزين متضرراً بفعل العواصف، أو غير موجود على الإطلاق.
ولم يكن باستطاعتهما أن يتحدثا أثناء نزولهما، فالجهد كان يستنفد طاقتهما
وتركيزهما.

استطاع شارلوك أن يرى في الأسفل البعيد - والذي يصبح شيئاً فشيئاً
أقرب - أمواج البحر الرمادية المخضرة التي تعلوها طبقة من الزبد الأبيض
وهي تتحطم على رمال الشاطئ وحصاه.

كانت النوارس تحلق حولهما، وتتنظر إليهما بعيونها الخرزية؛ مصدرة
صرخاتها الصاخبة المهتدة. وأمل شارلوك أن لا يضطرا إلى الاقتراب من
أعشاش النوارس. فقد توقع أن تهاجمهما هذه الطيور بمناقيرها المعقوفة
الحادة، وتسبب لهما أضراراً جسيمة في حال رأت أنه يفترض بها الدفاع
عن بيوضها.

في النهاية، وصلا إلى مستوى الشاطئ، واجتازا الأقدام القليلة التي تفصلهما عنه بين الركض والسقوط، فصارا مغطيين بالخدوش والطين. عندها، نظر شارلوك إلى الخلف ناحية سفح الجرف، وتساءل عن كيفية تمكنهما من تسلقه مجدداً. ففي حال لم يستطيعا التسلق، يفترض بهما البحث عن ممر يسهل عبوره على طول الشاطئ. وإن لم يتمكنوا من العثور على مثل هذا الممر فسيموتان جوعاً.

قام بمسح الشاطئ بعينه لكي يرى إن كان المد سيصل إلى حيث يسيران، ولكي يعثر على الطريق التي يجب عليهما سلوكها إن لم يتمكنوا من إيجاد طريقة للتسلق؛ كي لا يغرقهما المد. لم يكن هناك خط يشير إلى نمو الطحالب على الجرف؛ الأمر الذي يشير بدوره إلى الحدود التي يصل إليها المد. عندها، التفت مجدداً إلى الشاطئ، ولاحظ أنه ينحدر نزولاً، وأن هناك خطأً من الطحالب يبعد نحو عشر أقدام عن السفح. كانت الحصى عند أحد جانبي خط الطحالب رطبة، ولكن الجهة الأخرى من الخط وهي الأكثر قرباً من مكان وقوفهما كانت أكثر جفافاً. عندها، أيقن أن تلك المنطقة هي أعلى نقطة يصل إليها المد.

كان السفح مليئاً بفجوات داكنة؛ بعضها بعرض وعمق بضع أقدام، أما بعضها الآخر فقد كان كبيراً جداً؛ بما يتيح مرور عربة تجرها الأحصنة عبره. لا بد أنها الكهوف التي سمع عنها، والتي كان المهربون يستخدمونها في الماضي. وأدرك بانفعال أن بعضها لا بد أن يكون متصلاً بالأنفاق والسراديب الموجودة في أسفل القلعة، وهذا يعني أن هناك طريقاً آخر غير الذي سلكاه نزولاً يتيح لهما الوصول إلى القلعة. ولكن المعضلة هي أنه لم يكن يعرف أيّاً من هذه الكهوف يؤدي إلى الأنفاق، وأياً لا يوصل إلى أي مكان.

حدق إلى سفح الجرف محاولاً أن يتخيله على خلاف ما يبدو عليه كتلة صلبة من الصخور؛ حاول أن يتخيله كقرص العسل، حيث تكون الأنفاق متصلة ببعضها وجميعها تقود مباشرة إلى الأعلى. التفت إلى فرجينيا التي كانت تحديق إلى البحر، وسألها: "هل كل شيء على ما يرام؟".

"الرمال الوحيدة التي كنا نراها في البوكري كانت رمال الصحراء. وحتى الآن، لم أعتد بعد على فكرة وجود الرمال بالقرب من المياه". "آه". لم يكن متأكداً مما يفترض به قوله. التفتت فرجينيا وسارت بمحاذاة الشاطئ وقالت له: "إن كنا سنسير فلننتحرّك".

قال بعد مرور بضع دقائق: "يقول والدك إنكما ستعودان إلى أميركا". لم يعلم السبب الذي دفعه إلى قول ما قاله عدا كسر جدار الصمت. فأجابته وهي تنظر إلى الخلف: "قال أبي إننا سنذهب إلى واشنطن العاصمة؛ الشتاء هناك مثلج، والصيف حار جداً. ولكن البنكرتونز قدمت إليه عرضاً للعمل هناك كضابط ارتباط مع الحكومة الفدرالية، وهو يقوم بما يقوم به هنا بناء على عمله الجديد. إنه يتوق للعودة إلى هناك". تأوه، وصمت قليلاً لكي يصوغ كلماته التالية بحذر: "أنت كبيرة بما يكفي لكي تبقي هنا في إنكلترا؛ وهو يعلم ذلك. وأنا على ثقة بأنه سيدعك تبقيين إن رغبت في ذلك. ربما هو لا يفضل بقاءك، ولكنه سيحترم رغباتك، فهو يعرف أنك تستطيعين تدبير أمرك". أجابته قائلة: "ترافيز أيضاً يريد العودة". "آه! ترافيز".

توقفت فرجينيا فجأة وحدقت إلى البحر، وتوقف شارلوك خلفها. ومن دون أن يعلم ما يفترض به القيام به، مد يده ولمس كتفها، وسحبها نحوه حتى أصبحا وجهاً لوجه. كانت الدموع تبلل وجنتيها، وتؤطر عينيها البنفسجيتين. وكما رأى، كان هناك المزيد من الدموع التي تجري على وجهها. خطا إلى الأمام واحتضنها، وحينها طوّقتة بذراعيها، ودفنت وجهها في صدره، وقالت بصوت مكتوم: "الأمور سيئة. لا تسير الأمور كما أشتهي". فأجابها: "ولكنني أستطيع تصويب الأمور". "كلا، لا تستطيع. إنك لا تفهم". جمعت أصابعها في قبضة وضربت بها كتفه. "لم أكن أعلم إن كنت ستعود واتخذت قراري. لم يكن بوسعي انتظارك إلى الأبد".

"ولكنني عدت الآن، أنا هنا". "ولكنك عدت متأخراً. لقد وعدته، ويفترض بي عدم النكوث بوعدتي". دفعته بعيداً، بطول ذراع تقريباً، وحدقت إليه وقالت: "ترافيز يحبني. على الأقل، إنه يقول ذلك. وأنا أحبه؛ حسبما أظن. ربما ليس بالطريقة ذاتها التي أحبك فيها، ولكن الحب يمكن أن ينمو ويزداد مع الأيام. إنه يوليني كل رعايته، ويمكنه أن يوفر لي حياة هائلة. وهو نجل رجل أعمال كبير، وبالعلاقاته المتشعبة هو خير معين لوالدي".

سألها شارلوك بجفاء: "وهل هذا كافٍ؟". "وهل هناك شيء آخر؟". حدقت إليه وهي تنتظر جوابه، ولكنه لم

يكن متأكداً من أنه فهم السؤال. أخيراً قالت: "ربما قبل سنة خلت كانت لدينا فرصة، ولكن الآن لا. لقد كبرنا في اتجاهين مختلفين، ونحن الآن نسير في دربين مختلفين".

وافقها الرأي بقوله: "حتى إنني لا أعرف الدرب الذي أسلكه".
"وهذا جزء من المشكلة يا شارلوك. ترافيز يعرف من هو وماذا يريد أن يصبح، ولديه مخططات للمستقبل، وهو يريدني أن أكون جزءاً من مستقبله. لديه ميول سياسية، فهو يريد أن يصبح "سيناتور"، وربما سيتمكن من أن يصبح حاكماً. ولكن أنت ماذا تريد أن تكون؟ ما هو مخططك للمستقبل؟".

هز كتفيه بصعوبة وقال: "إنني لا أزال أحاول اكتشاف ما أريده".
"وأنا أتمنى أن تعرف في النهاية".
سألها بصوت خافت: "هل هناك شيء أستطيع القيام به لأجعلك تبدلين قرارك؟".

اكتفت فرجينيا بالتحديق إليه والدموع تترقق في عينيها. أحس بأنها تريد أن تقول نعم، ولكنها توقعت أنه يعرف ما تريد منه قوله، ولكنه لم يكن يعرف. كان باستطاعته أن يعلم أي شيء؛ شرط أن تكون هناك دلائل، ولكن لم تكن هناك دلائل يستطيع الاعتماد عليها.
أخيراً، قالت بعد أن أبعدت نظرها عنه: "لنعد".

سارا بمحاذاة الشاطئ وابتعدا عن القلعة، وهذا ما أدركه شارلوك؛ حتى إنه ظن أنهما أصبحا أبعد من غلاوي نفسها. كان شارلوك ينظر إلى الجرف فوقهما، وشعر بالسكينة عندما لاحظ أن الحجارة الكلسية تبدو أقرب إليهما. وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن الجرف أصبح أكثر انخفاضاً، وربما ستتاح لهما فرصة تسلقه عما قريب.
بعد فترة طويلة من الصمت سألتها: "ما أخبار ماتي؟".

اعترفت فرجينيا: "إنني لا أراه كثيراً. فهو يبقى في المدينة معظم الوقت، بينما أمضي جل وقتي في الريف. أعتقد أنه يخاف من والدي، ولكنه يتمنى لو أنك كنت هناك".

"ظننت أنه سيغادر فارنهام بعد أن أغادر. بدا لي أنه يتوق إلى السفر والترحال ويفضلهما على الاستقرار في مكان واحد".
"أظن أنه بقي هناك على أمل عودتك يوماً ما".

"وها أنا قد عدت". همهم شارلوك، ولكن فرجينيا لم تبدِ أي ردة فعل تشير إلى أنها سمعت ما همهم به.

بعد برهة، لاحظ شارلوك أن حافة الجرف أضحت منخفضة بما يكفي؛
مما يُتيح لهما تسلقها، فسألها: "أتريدان العودة إلى القلعة؟".
حدقت إليه قليلاً ثم أجابته: "ما رأيك؟ ماذا تريد أنت؟".
هزّ كتفيه بلا مبالاة وقال: "إنني جائع، فلنعد؟".
"فليكن؛ إن كان هذا ما تريده".

عرف الطريق الذي يؤدي إلى القلعة من خلال الآثار التي تركتها
أقدام العديد من الأجيال عليه عبر النباتات الكثيفة التي نمت إلى حدّ أنها
وصلت إلى مستوى رأسيهما، والتي كانت تتخللها أيكات من أشجار الدردار
بين الحين والآخر. كان الطريق صعوداً، ولكنه لم يكن شديد الانحدار. صعدا
بصمت، وكان شارلوك يسير أمامها مبعداً النباتات؛ مما يتيح لها المرور
عبرها من دون أن تؤذي نفسها. وبين الحين والآخر، كانا يجدان ثغرة في
النباتات يستطيعان أن يريا من خلالها إما البحر أو المسافة التي تفصلهما
عن القلعة.

بعد ساعة أو نحو ذلك، استطاع شارلوك أن يرى شيئاً في أعلى
النباتات. لم يكن شيئاً من صنع الطبيعة، بل كان البناء البرجي الذي
شاهده مرتين من قبل من سطح القلعة وفي طريق عودته من غالاوي
ليلة عملية اختطاف ألبانو المزعومة. عندما شاهده أيقن أنه أصبح على
مرمى حجر من القلعة. لقد أدرك أنه لم يكن في المرتين السابقتين قريباً
إلى هذا الحدّ منه، وأن عليه استغلال هذا القرب لاستكشافه؛ فرمى لن
تتاح له الفرصة إن غادره الآن.

قال شارلوك وهو يشير إلى البناء البرجي: "أريد أن ألقى نظرة على
هذا الشيء، فهل لديك مانع في تغيير مسارنا قليلاً حتى أستطيع إلقاء
نظرة عليه؟".

هزت فرجينيا رأسها وقالت: "إنني متعبة وجائعة، ويفترض بي
الاستحمام وتبديل ملابسني قبل الذهاب لامتطاء الأحصنة مع نيف. تابع
طريقك، وسأعود بمفردي".

ألقى شارلوك نظرة سريعة على البرج وقال لها: "حسناً، سأعود معك".
أجابته بغضب: "لست بحاجة إلى مرافق، أستطيع أن أجد طريقي
بنفسي وأعود بأمان".

عندها قال شارلوك بسرعة: "انظري، أنا لم أختَر الابتعاد بإرادتي. لقد
خطفت، وكنت مخدراً، وعندما استيقظت وجدت نفسي على متن سفينة
تتجه إلى الصين. لم يكن لدي خيار!".

"أعرف". أومأت قبل أن تتابع: "ولكنك لم تكتب لي، ولم تزعج نفسك بالقيام بأي أمر من شأنه أن يبقينا على تواصل".
كرر ما قاله سابقاً، ولكن ببطء أكثر هذه المرة: "كانت السفينة تتجه إلى الصين، ولم تكن هناك خدمة بريدية منتظمة".
فأجابته بحدة: "ولكنك كنت تراسل شقيقك، وبالرغم من ذلك لم تراسلني".

"لم أكن أعرف ما يجدر بي قوله".

"هذه هي المشكلة".

استدارت وسارت بعيداً، وشاهدها شارلوك وهي تبتعد، وشعر بقلبه ينفطر. فمن جهة، أراد أن يذهب معها. ومن جهة أخرى، أراد إلقاء نظرة على البناء البرجي.

ولمعت في ذهنه ذكرى تعود لعام مضى. كانت نائمة في كوخ حجري بالقرب من المستنقعات الاسكتلندية، وكان مستيقظاً يشاهدها، وقد جعلت أسنة اللهب وجهها وشعرها يلمعان. إنه يعلم أنه لن يستطيع نسيان ذلك مطلقاً، وعادت تلك المشاعر التي كان يحس بها وقتها لتملأ قلبه مجدداً.
قرر اللحاق بها، وفكر في سره أن النساء يتصرفن بطرائق غير منطقية ولا يمكن توقعها، وهن يعملن بجد على تشجيع الرجال على إدراك أنهم يتصرفن على هذا النحو، ولم يكن متأكداً من أنه يريد مجاراتهن بهذه اللعبة.

الفصل الحادي عشر

ما إن أنهى الجميع تناول وجبة الغداء حتى أعلن صوت قائلاً: "أيها السادة".

التفت شارلوك وسائر الممثلين؛ مايكروفت والسيد غروي وفون وبينو وهولتزينك والكونت شوفالوف ناحية الباب. كان السير شادراتش كوينتلان يسد المدخل بكرسيه المدولب، وكانت سيلمان دائماً الحضور تقف خلفه. وتابع قائلاً: "هل أنتم مستعدون للعرض النهائي الحاسم الذي لا يمكن دحضه؟". علت وجهه ابتسامة، وبدا مسترخياً، ولكن شارلوك أحس بنوع من التوتر لدى السير بالرغم من كل ذلك؛ ربما بسبب وضعه يديه على حضنه وشبكه أصابعه معاً.

قال مايكروفت: "أظن أننا مستعدون لأي شيء تريد أن ترينا إياه، ولكننا حذرون منك بعد المسرحية التي جرت ليلة البارحة. ونحن لسنا في مزاج يسمح لنا بمشاهدة المزيد من الحيل".

أجابه كوينتلان: "أعدك أنه ما من حيل إضافية. لقد دعيتم لكي تتفحصوا كل شيء قبل العرض. وإذا رصدتم أي دليل على الخداع فسوف يتوقف العرض مباشرة، وسأقمع أي مخططات لمحاولة إقناعكم مجدداً".

عندها، قال هولتزينك: "جيد جداً، دعونا نبدأ".
سعل فون وبينو ليلفت الانتباه إليه وسأل: "هل سيجري العرض وإقامة الدليل عليه في الغرفة السابقة نفسها؟".

"كلا. نحن بحاجة إلى غرفة خاصة، غرفة معزولة".
قال مايكروفت بفضافة: "إنني أفترض أنك تتحدث عن غرفة اخترتها وحضرتها مسبقاً".

كشر كوينتلان: "للأسف، لأسباب بدهية، يفترض بالغرفة أن تكون في الطابق الأعلى، حيث لا يستطيع أي كان رؤيتنا من الخارج. ولكنني سأكون مسروراً لو أنك اخترت الغرفة بنفسك. في الحقيقة، كنت أتوقع طلبك".
عندها، أشار إلى إحدى الخاديمات التي كانت تحمل طاسة تحتوي على العديد من قصاصات الورق، وقال: "لقد طلبت من الخاديمات أن يقمن بكتابة أرقام على أبواب كل الغرف في الطابق الأعلى بواسطة الطباشور، وكل رقم غرفة له مكافئ على إحدى قصاصات الأوراق الموجودة في الطاسة. أرجو أن يقوم أحدكم باختيار رقم".

نظر الممثلون إلى بعضهم بعضاً قليلاً، وفي ما يشبه اتفاقاً غير

مكتوب، تقدم فون وبينو، وأخذ قصاصة ورق، وقام بفردتها وقرأ: "أربعة وعشرون".

سأل السير كوينتلان: "هل الجميع موافقون ويعجبهم هذا الرقم؟". فردّ عليه مايكروفت بصوت عالٍ: "كلا. أتمنى أن يختار السيد وبينو رقماً آخر".

"حسناً". وأوماً كوينتلان إلى فون وبينو الذي قام بتجعيد قصاصة الورق الأولى، ووضعها على الطاولة إلى جانب الطاسة، ثم سحب قصاصة أخرى، وفتحها وأعلن قائلاً: "خمسة وثلاثون". التفت السير كوينتلان نحو مايكروفت وسأله: "أأنت راضٍ يا سيد هولمز؟".

دمدم مايكروفت: "أجل، أنا راضٍ. كنت أريد التأكد من أن الطاسة ليست مليئة بقصاصات تحمل الرقم نفسه". "ما من مشكلة. إن كان الجميع راضين بالغرفة ذات الرقم خمسة وثلاثين، فأرجو منكم أن تتبعوني".

دفعت سيلمان الكرسي المدولب إلى الخارج، وتبعها الجميع. إلا أن مايكروفت توقف عند الطاولة، ومد يده إلى الطاسة وسحب ملء قبضته من قصاصات الورق، وأخذ يفتحها واحدة تلو الأخرى، وينظر إليها. فسأله شارلوك: "ماذا وجدت؟".

"تحمل كل واحدة منها رقماً مختلفاً". رمى مايكروفت القصاصات في الطاسة مجدداً وقال: "توقعت أنها مختلفة، ولكنني أردت أن أكون متأكداً بشكل مطلق".

خارج القاعة، دفعت سيلمان كرسي السير كوينتلان باتجاه المصعد، حيث كان ألبانو يقف، وقد بدا شاحباً ولكنه قوي الشكيمة. وانعكست أشعة الشمس التي تشرق عالياً في السماء على عينه الزجاجية، فانبعث منها نوع من الضوء الأبيض وانعكس على وجنته.

أعلن كوينتلان: "سنصعد إلى الطابق الأعلى. المصعد ضيق، لذا أقترح أن أصدع أولاً والسيد غروي وهولتزنبرك وفون وبينو، ثم سينزل المصعد مجدداً وسيصعد به كل من ألبانو والكونت شوفالوف والأخوين هولمز. هل يعترض أحد على هذا الترتيب؟".

لم يعترض أحد، لذا فتحت سيلمان باب المصعد، ودفعت الكرسي المدولب إلى داخل المصعد، وتبعها كل من السيد غروي وهولتزنبرك وفون وبينو. ثم أغلقت الباب، وبدأ المصعد بالارتفاع.

أخذ أفراد المجموعة التي بقيت في القاعة ينظرون إلى بعضهم بعضاً بريية، ولم يتبادلوا أي كلمة. وعندما انضمت المجموعة الثانية إلى سابقتها في الطابق الأعلى، قامت سيلمان بدفع كرسي السير كوينتلان عبر الممر وتبعها الرجال الآخرون. كُتبت على كل الأبواب في ذلك الطابق أرقام بالطبشور، ولكن شارلوك لاحظ أن الأرقام لم تكن مكتوبة بشكل متتالٍ، وحاول حفظ أرقام الأبواب التي مر بجانبها وكانت 15-49-27...

استمرت سيلمان بدفع الكرسي المدولب حتى وصلت إلى باب الغرفة الذي كُتب عليه الرقم 35، وكان المفتاح مقحماً بالقفل.

أعلن كوينتلان: "في هذا المكان سنبرهن عن قدرات السيد ألبانو". أدارت سيلمان المفتاح داخل القفل فانفتح. عندئذ دفعت الباب، فأوما كوينتلان إلى الجميع كي يدخلوا.

سأله شارلوك: "لماذا الأبواب مرقمة بشكل غير متتالٍ؟". التفت السير كوينتلان ناحية شارلوك وخاطبه قائلاً: "لقد أعلمت بأن ساكني البعد الآخر لا يحبون التوالي والتنظيم". توقف، ثم تابع موضحاً: "إنهم يفضلون الأشياء العشوائية؛ إنهم يفضلون الأشياء الطبيعية على الأشياء المحسوبة والمدروسة".

قال ألبانو الذي كان يقف في الصف الخلفي من المجموعة مؤكداً: "هذا صحيح. لقد أعلمت مرات عديدة من قبل الأرواح التي عبرت من البعد الآخر أنها تفضل الأشياء غير المنظمة".

قال شارلوك: "حقاً؟!". ولكنه تذكر أن الأحرف التي كانت على حافة الطاولة في جلسة أمس كانت مرتبة وفقاً للترتيب الصحيح للأحرف الأبجدية، ولم تعلق الأرواح حينها أو تعترض على الأمر، وكذلك لم يفعل السيد ألبانو. أيقن شارلوك أن هناك أمراً مريباً له علاقة بالترتيب العشوائي للأرقام.

دخل الأشخاص جميعاً الغرفة باستثناء ألبانو الذي قال: "لأسباب ستفهمونها عما قريب، يفترض بي البقاء هنا؛ وهذا ما سيجعل إقامة الدليل على قدراتي أكثر إقناعاً".

كانت الغرفة فارغة، ولم يكن فيها سجاد أو ستائر أو لوحات على الجدران. وكان لها مدخلان؛ الباب الذي دخلوا منه والنافذة. وكان هناك كلاب يستخدم لتعليق لوحة معلق على الحائط، وقد بدا الحائط حيث كانت اللوحة معلقة سابقاً باهت اللون. كانت الغرفة جرداء من أي شيء، وبدت كما لو أنها قد أعدت لاستقبالهم. كان شارلوك على وشك قول شيء،

إلا أن الكونت شوفالوف حال دون ذلك.

فقد سأل: "هل كل الغرف في هذا الطابق جرداء؟".

فأجابه السير كوينتلان مؤكداً له: "هذا الطابق من القلعة غير مستعمل، ولهذا لن تجد مفروشات في الغرف".

فسأله شارلوك عندها: "هل يمكننا تفحص الغرف الأخرى؟".

فحدق إليه كوينتلان وقال: "سمحت لكم باختيار الغرفة بشكل عشوائي، ألا يكفيك هذا؟".

بدا مايكروفت هادئاً، ولكن شارلوك التقط تعبيراً ما على وجهه، وحلل أن هدوءه هذا لا يعني أنه ينظر مستمتعاً وبهدف التسلية، فقد بدا عليه بوضوح أنه لا يزال يشك بوجود حيلة، ويظن أنها ستكون حيلة أكثر تعقيداً من سابقتها، وكان شارلوك يوافق الرأي.

أعلن السير كوينتلان قائلاً: "الآن أيها السادة الكرام، تفحصوا هذه الغرفة بحرية من أعلاها إلى أسفلها، ومن الجانب إلى الجانب الآخر. افحصوا كل حجارة الجدران والبلاط الذي يغطي الأرضية، وتأكدوا من عدم وجود أي ممرات سرية. إنني أريد منكم التأكد من أنه ما من طريقة للدخول أو الخروج".

وبينما وقف كل من أميوس غروي وشارلوك ومايكروفت قبالة أحد الجدران، قام الرجال الثلاثة الآخرون بتفحص الجدران والأرضية والسقف، وأنهوا المهمة في غضون لحظات، والتفتوا نحو كوينتلان.

وأعلن هولتزبرنك بحزم: "كما أشرت، ما من طريقة للدخول أو الخروج من الغرفة إلا عبر الباب أو النافذة. كما أننا بحثنا عن فجوات يمكن من خلالها النظر إلى داخل الغرفة أو التأثير على ما بداخلها ولم نجد شيئاً. وبالإضافة إلى ذلك، كل الحجارة ثابتة في مكانها".

أجابه كوينتلان: "ممتاز. الآن، من فضلكم تفحصوا النافذة، وأتمنى من حضراتكم أن تتأكدوا أنه ما من أحد يستطيع التسلق إلى هنا من الخارج".

توجه فون ويينو نحو النافذة وفتحها، وانحنى إلى الخارج، ونظر يميناً ويساراً، وإلى الأعلى والأسفل.

وقال وهو يسحب نفسه إلى الداخل: "الحائط خالٍ تماماً من أي شيء يتيح تسلقه".

فسأله شوفالوف: "ماذا بشأن النباتات المعترشة؟".

أجابه فون ويينو مؤكداً: "ليس هناك أي نوع من النباتات؛ لا شيء

على الإطلاق يتيح التسلق أو الاستناد إليه".
فسأل مايكروفت: "ماذا بشأن الأعلى؟ هل بإمكان أحد المتسلقين أن
ينزل من السطح؟".

انحنى فون وبينو مجدداً خارج النافذة، ونظر إلى الأعلى وقال: "ما
من شيء متدلٍ، ولا أرى أي شيء يستطيع شخص ما أن يستخدمه للنزول
من الأعلى".

أدخل فون وبينو رأسه وأغلق النافذة، فقال كوينتلان: "لقد تأكد أنه
ما من أحد يمكنه التسلق أو الهبوط من دون أن يترك أثراً". ونظر بسرعة
ناحية الكونت شوفالوف وقال: "كونت، هل يمكنك التأكد من أنه ما من
طريقة تمكّن أيّاً كان في الخارج من أن يرى بواسطتها داخل الغرفة؟".

توجّه الكونت ناحية النافذة، وأفسح له فون وبينو الطريق. حدق
للحظات قليلة، وأخيراً قال: "أستطيع أن أقول إنه ما من طريقة يستطيع
فيها أحد في الخارج رؤية ما في الداخل؛ فالأشجار والأكمام منخفضة جداً
ولا تسمح برؤية أي شيء. وهي بعيدة عن السطح؛ حتى إن كان المراقب
يحمل منظراً".

عندها، قال كوينتلان: "شكراً لك. أظن أننا أصبحنا جاهزين لنبداً".
حينها، سأله غروي: "ماذا بشأن وضع ستارة؟ فمن شأنها أن تضمن
أنه ما من أحد يمكنه أن يرى".

تأوّه السير كوينتلان وقال: "ولكن، يجب أن نترك مكاناً تستطيع
الأرواح العبور من خلاله، ويمكن للستارة أن تحول دون مرورها".
"حقاً؟!". نظر غروي إليه بتشكك، ولكنه لم يتشدد في مطلبه.

ابتسم كوينتلان وقال: "في الواقع، باستطاعتك أنت والسيد هولمز أن
تناقشا إمكانية اختباء أحدهم خلف الستارة. لذا، ما من ستائر في الغرفة،
وبالتالي لا مكان للاختباء، ولا أحد يستطيع الاختباء، صحيح؟".
هز غروي كتفيه وقال: "إذا كان هذا رأيك".

حدثت ضجة عند الباب، فالتفت الجميع ناحيتها. دخلت أربع
خادمت، وكانت كل منهن تحمل لوحة ذات إطار مزخرف وثقيل. كانت
إحدى اللوحات لجندي بشيابه الرسمية، أما الأخرى فكانت لحصان، والثالثة
لوحة كلاسيكية لرجل بالزي الروماني الفضفاض يقف أمام معبد، في حين أن
الرابعة كانت لمنظر طبيعي تظهر فيه هضاب وأشجار. وضعت الخادمت
اللوحات بالصف مقابل الحائط حيث علّق الكلاب، ثم غادرن.

أعلن السير كوينتلان قائلاً: "لدينا أربع لوحات، وكل واحدة مختلفة

عن الأخرى. في غضون لحظات، سنغادر جميعنا الغرفة؛ باستثناء السيد شارلوك هولمز. وسيصعد الآخرون إلى السطح، وسأبرهن لهم أنه ما من أحد يستطيع التسلق من دون أن يترك أي أثر. سيقوم السيد هولمز الشاب باختيار واحدة من اللوحات، واحدة فقط، وسيعلقها على الحائط. وهو وحده سيعرف أي لوحة اختار. كما أنني أطلب من السيد هولمز أن يختار الطريقة التي سيعلق فيها اللوحة؛ سواء أعلقها بالشكل الطبيعي، أو رأساً على عقب، أو من أحد جانبيها الأيمن أو الأيسر. وستوضع عصاة على عيني السيد ألبانو، وستُسد أذناه بالشمع؛ سيكون غير قادر على النظر أو السمع مطلقاً. ورغم ذلك، سيحدّد اللوحة التي علقها السيد هولمز، والاتجاه الذي علقها فيه". ونظر ناحية شارلوك وقال: "هل دورك واضح أيها الشاب؟".

"واضح".

"وهل تعلم لماذا اخترتك لأداء هذه المهمة التي تعتبر على قدر كبير من الأهمية؟".

"أعتقد لأنني من قام بفضح حيل الليلة السابقة".

نظر كوينتلان حوله وقال: "هذا صحيح. أنت الوحيد الذي لم تنطل عليه أي حيل. والآن أيها السادة الكرام، دعونا نترك السيد هولمز الشاب بمفرده ليتخذ قراره". ونظر بسرعة نحو شارلوك وقال: "انتظر حتى نغادر جميعاً ثم أغلق الباب، وأقحم المفتاح في القفل؛ حيث لا يستطيع أي كان أن يرى من خلال الثقب، ثم اختر اللوحة وعلقها. انتظر حتى تسمع صوتي من الأعلى، هل تفهمني؟".

"أفهمك سيدي".

"لا تخبر أحداً عن اللوحة التي قمت بتعليقها، أو عن الطريقة التي علقتها بها". توقف قليلاً قبل أن يتابع: "حسناً". وأوماً بيده إلى سيلمان التي سلمت مفتاح الغرفة إلى شارلوك، ثم قامت بدفع الكرسي المدولب إلى الخارج، وتبعها الآخرون.

عبر الباب، استطاع شارلوك رؤية ألبانو. كانت إحدى الخادמות تقوم بعصب عينيه، فوقف غير قادر على رؤية أي شيء، وقد أمال رأسه إلى أحد الجانبين وكأنه مستغرب مما يجري حوله.

ظهرت خادمة أخرى عبر الممر وهي تحمل عارضة خشبية طويلة، وتوجهت بها إلى حيث يقف شارلوك.

حينها، خاطبه كوينتلان قائلاً: "احتفظ بالعارضة فسوف تحتاج إليها

لاحقاً " .

كان مايكروفت آخر المغادرين. استدار ناحية شقيقه ورفع حاجبه، فأوماً له شارلوك قبل أن يتابع مايكروفت طريقه إلى الخارج، ويغلق الباب خلفه.

ترك شارلوك وحيداً في الغرفة، فتنفس بعمق، وتنعم بالصمت قليلاً. ثم تذكر الإرشادات والتعليمات التي قيلت له، فوضع العارضة الخشبية قبالة أحد الجدران، وعبر الغرفة، وأقحم المفتاح في القفل، وتأكد من خلو الباب من الثقوب التي تتيح لأي كان استراق النظر. وبالفعل، كان خالياً منها.

نظر شارلوك إلى اللوحات، وأخذ يستعيد في ذاكرته ما قاله كوينتلان، ويفكر فيه ملياً ليتوثق من أنه لم يمرر خلسة كلمات أو عبارات لكي يقنعه باختيار واحدة من اللوحات دون سواها، ولكنه لم يتمكن من تبين أي من تلك العبارات. وفي النهاية، قرر أن يختار اللوحة بطريقة عشوائية. فكر قليلاً، وتساءل عن عدد الأحرف التي يتكون منها اسم محبوبته فرجينيا. إنه يتألف من ثمانية أحرف، فبدأ بالعد من اليسار باتجاه اليمين، وعندما وصل إلى الرقم أربعة أعاد العد بالطريقة المعاكسة حتى وصل إلى الرقم ثمانية، وكان الرقم ثمانية يشير إلى لوحة المنظر الطبيعي للهضاب والأشجار. وعندما حاول حمل اللوحة، لاحظ أنها بدت ثقيلة الوزن؛ ربما بسبب إطارها الكبير وليس لأي سبب آخر. عندها، قلبها رأساً على عقب، ورفعها وعلقها على الكلاب، وخطا إلى الخلف، ومدّ يديه إلى الأمام عندما أحس أنها ستقع؛ إلا أنها بقيت معلقة مكانها.

بعد ذلك اتجه إلى النافذة، وحدق إلى المشهد الريفي في الخارج، وتأكد مما قاله فون وبينو؛ فما من أحد في الخارج يمكنه رؤية أي شيء داخل الغرفة. فالنافذة مرتفعة جداً، ولم تكن هناك أشجار باسقة كما لاحظ شارلوك ورأى. لم يكن هناك سوى البناء البرجي الذي سبق له أن شاهده مرتين؛ من مكانين مختلفين من القلعة. يمكن وضع منصة مراقبة مناسبة عليه، إلا أنه لم يستطع رصده؛ ربما لأنه في جهة أخرى من القلعة. كان من الصعب تحديد ذلك. ففي بعض الأحيان، كان المنظر الطبيعي يبدو عينه من جميع الاتجاهات.

فتح شارلوك النافذة، وانحنى إلى الأمام، وحدق إلى الأسفل. لم يكن هناك شيء في الأسفل إلا الأرض التي يتشكل منها حرم القلعة، والسور الذي يفصل بين القلعة والعالم الخارجي. وقد كان السور منخفضاً جداً، ولا

يتيح لأي كان رؤية ما يوجد داخل الغرفة. فجأة، صدح صوت من الأعلى:
" سيد هولمز، هل تستطيع سماعي؟ " .

رفع شارلوك رأسه ونظر إلى الأعلى، ولكن الشرفة التي كانت تعلو
النافذة حالت دون تمكنه من رؤية أي كان.

فأجاب شارلوك: " نعم، إنني أسمعك " .

" من فضلك، هل تستطيع إحضار العارضة الخشبية " .

استدار شارلوك نحو الغرفة، وأحضر العارضة الخشبية، وقال: " لقد

أحضرتها " .

" الآن، من فضلك ادفعها خارج النافذة، وأمسكها من نهايتها الأخرى "

تمكن شارلوك بصعوبة من إخراج العارضة، ووجد صعوبة في الحفاظ
عليها متوازنة على عتبة النافذة، وترك قسماً منها داخل الغرفة كي لا تقع،
وقال: " لقد أخرجتها " .

من مكان ما في الأعلى، سمع شارلوك السير كوينتلان يقول: " أيها
السادة الكرام، من فضلكم تأكدوا أنكم تستطيعون رؤية العارضة في الأسفل،
فهذا سيثبت لكم أننا نقف مباشرة في أعلى الغرفة التي غادرناها للتو " .
مرت لحظة من الصمت، تلتها أصوات دمدمة تفيد بأن السادة
يوافقون على ما قاله السير كوينتلان، وأنهم شاهدوا العارضة.

عندها، قال مايكروفت: " أستمحك عذراً سير كوينتلان، أليس من
الممكن أنك تجعلنا نقف في أعلى غرفة أخرى؟ وربما تكون العارضة بين
يدي أحد أتباعك. إنني أريد أن أتأكد من أن شارلوك هو من يحمل
العارضة " .

فسأله كوينتلان: " وما هي الوسيلة التي تجعلك متأكداً؟ " .

حينها صرخ مايكروفت: " شارلوك، أسمعني؟ " .

" نعم، أسمعك " .

" سأقوم بلفظ بعض الأحرف بشكل عشوائي، وعندما تسمع الحرف
الذي يبدأ به اسم أحد أصدقائك غير الموجود هنا والذي يجب السفر
والترحال اسحب العارضة، هل تفهم ما قصدته؟ " .

" نعم " .

" حسناً، أ - ج - ت - خ - ل - م - " .

عندما سمع شارلوك شقيقه يلفظ الحرف - م - سحب العارضة.

عندئذ، سمع شارلوك السير كوينتلان يسأل شقيقه: " هل أنت راضٍ؟ "

فأجابه مايكروف: " للإنصاف، نعم " .

حينها، خاطب السير كوينتلان شارلوك قائلاً: " من فضلك يا سيد مايكروفت، ابق حيث أنت إلى أن ترانا واقفين على العشب في أسفل النافذة. عندئذ، غادر الغرفة، وأغلق الباب بالمفتاح، وقف خارج الغرفة واحرسها، وسوف أرسل إليك إحدى الخادمت في الوقت المناسب. هل تفهمني؟ " .

صاح شارلوك: " نعم " .

بقي شارلوك منتظراً قرب النافذة نحو نصف ساعة، وكانت الغرفة في غضون ذلك هادئة، كما أن المنظر الطبيعي أمامه كان خلاباً، فقد كانت الشمس منخفضة، وكان ظل سور القلعة ممتداً على العشب. أخيراً، فتح باب القلعة، وظهرت مجموعة من الأصابع؛ بعضها يعود لشخص يجلس على كرسي مدولب، والبعض الآخر لشخص يدفع الكرسي.

سأل كوينتلان: " سيد هولمز، هل تستطيع سماعي؟ " .

أجابه شارلوك: " بالكاد أستطيع سماعك " .

" هل تستطيع أن تؤكد لنا أن الغرفة ظلت هادئة منذ أن غادرناها؟ "

" نعم، أستطيع. لم يحاول أحد الاقتراب من الغرفة، كما أن أحداً لم يحاول رؤية ما بداخلها " .

" جيد جداً. غادر الغرفة الآن، وأغلق الباب بالمفتاح، وانتظر الخادمة حتى تأتي إليك، وتجلبك إلى هنا. نحن بانتظارك " .

عندها، ألقى شارلوك نظرة أخيرة لكي يتأكد من أنه ما من طريقة لرؤية ما يوجد داخل الغرفة من نقطة مطلة من الخارج.

وبعد ذلك، غادر الغرفة، ووضع المفتاح في القفل، وأقفل الباب خلفه من الخارج، ووقف في الممر الفارغ، ونظر مجدداً ناحية الباب. وضع المفتاح في جيبه، ثم نظر يميناً ويساراً ليتأكد من أنه ما من أحد بالقرب منه، وأرهف السمع عله يسمع صوت أي حركة داخل الغرفة، ولكن الصمت كان يسودها.

مرت عشرون دقيقة ولم يحدث شيء، وكان منهما بالتفكير عله يستطيع أن يستنبط الطريقة التي سينفذ بها كل من كوينتلان وألبانو هيلتهما. كان متأكداً أن هناك حيلة، ولكن المشكلة تكمن في أنه لم يكن يعرف كيف سيقومان بها. فقد بدا له أن كوينتلان قد عرض لكل

الاحتمالات واستبعدها. أخيراً، دخلت خادمة الممرر من جهة اليسار، وقالت له: " أعلمني السير أنه يفترض بك أن تتبعني ". كانت تحمل بيدها حقيبة قماشية، فنظر شارلوك إلى ما بداخلها ووجدتها مليئة بمسحوق الكلس. " لقد قال السير إنه يفترض بك نثر المسحوق خارج باب الغرفة؛ حيث إن أي عملية دخول إلى الغرفة ستكون مرصودة ومفضوحة ".

نقذ شارلوك ما طلب منه، ونثر الكلس ليس أمام الباب فقط، ولكن على جهتي الممرر أيضاً. وإذا حاول أحدهم كنس الكلس، والدخول إلى الغرفة، ثم أعاد نثره مجدداً، فلا بد من أن يترك أثراً خلفه. لأنه بهذه الحالة لا بد من شطفه لإزالة أثره من الفراغات بين البلاطات. تبع شارلوك الخادمة نزولاً على الدرج إلى القاعة، ثم عبر عدة ممرات لم يشاهدها من قبل حتى وصل إلى الباب الذي يؤدي إلى الخارج. عندها، أومأت الخادمة بيدها إلى شارلوك كي يعبر الباب وقالت: " من فضلك سيدي، السير ينتظرك في الخارج ".

كان الممثلون الخمسة يقفون في الخارج، بالإضافة إلى كوينتلان الذي كان يقف إلى جانب ألبانو الذي لا يزال معصوب العينين. في تلك الأثناء، كانت الشمس قد انخفضت أكثر حتى أصبحت خلف أسوار القلعة. تقدم شارلوك إلى حيث يقف شقيقه وسأله: " ماذا حدث؟ ".

هز مايكروفت كتفيه وقال: " الكثير من الأمور المسرحية. لقد وقفنا على سطح القلعة فوق الغرفة التي كنا فيها. وكما تعلم، كان المكان خطيراً وكريهاً. نظرنا من فوق حافة السطح لكي نرى الغرفة التي كنت تتواجد فيها، وقد كان الهدف من العارضة الخشبية إقناعي أننا نقف في المكان الصحيح. بعدها، طلب السير من فون وبينو أن ينثر مسحوقاً أزرق اللون فوق كامل السطح، وأنا أظن أنه من الصعب إزالة المسحوق من دون ترك أثر. إنني على يقين من أنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى السطح والنزول إلى الغرفة من دون أن نعلم بأمره. ولا أعتقد أن هذا سيحدث، أو أن أحداً سيحاول القيام به. ثم نزلنا إلى هنا، وكنت لا تزال في الغرفة، ومنذ أن طلب منك مغادرة الغرفة كنا نراقب السطح والغرفة، ولم نستطع رصد أي محاولة للنزول. ماذا حصل في الغرفة فوق؟ ".

قال كوينتلان: " من فضلكم أيها السادة، إنني بحاجة إلى أن تعيروني انتباهكم. هل أنتم موافقون على أنه ما من طريقة لدخول الغرفة إلا عبر الباب أو النافذة؟ ".

أوماً الجميع وهمموا قائلين: " نعم، نحن موافقون ".

" وهل أنتم موافقون على أنه ما من أحد يستطيع الدخول عبر الباب أو النافذة إلا وسيترك أثراً على المسحوق الأزرق أو الكلس الأبيض؟ "

مجدداً، كان هناك إجماع على الموافقة.

" وهل أنتم موافقون على أن النافذة مرتفعة جداً، وأن المنظر الطبيعي منخفض جداً، وأنه ما من أحد يستطيع أن يرى من خارج الغرفة اللوحة التي علّقها السيد هولمز الشاب على الحائط؟ " .
مجدداً، وافقه الجميع الرأي، وأضاف هولتزينر أنه لا يمكن إلا رؤية السقف من الخارج.

عندها، قال السير كوينتلان: " أعتقد الآن وبعد كل ما تقدم أنه بوسعنا وضع أنفسنا تحت تصرف السيد ألبانو " .

ربتت إحدى الخادמות على كتف السيد ألبانو الذي خطا خطوة إلى الأمام. كان لا يزال معصوب العينين، فرفع يديه، وانتزع كرتي الشمع من أذنيه، ورماهما بعيداً. وبعده ذراعيه وقال: " أيها السادة الأصدقاء، لقد أخبرتكم أنني سأشعر بالخزي الأبدي لأنه حصل نوع من الخداع في السابق. والآن، أكرر لكم أسفي العميق، ولكن السير شادراتش لم يكن متأكداً من أن حالتي الجسدية والذهنية كانتا ستتيجان لي إتمام جلستي، وإقامة الدليل بنجاح. أياً يكن الأمر، ربما يجدر بنا أن نطرح جانباً ما حدث سابقاً. ربما كان يفترض بنا تأجيل إقامة الدليل والمزايدة حتى أستعيد كامل قواي. ولكن، كما قال أحد الحكماء يوماً: لا يمكننا أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء. إنني أمل من خلال بذلي قصارى جهدي - في هذا المكان الذي تفحصتموه بدقة، ولم تتمكنوا من إيجاد أي دليل أو إشارة إلى الخداع فيه - أن أتمكن من إقناعكم أن ما سبق وحدث كان أمراً عابراً. الآن، أنتم موافقون على أنه ما من قوة بشرية يمكنها أن تعلم أي واحدة من اللوحات قام السيد هولمز الشاب بتعليقها وبأي اتجاه، أليس كذلك؟ " .

بالرغم من كل ما بدر من ألبانو من ألعاب خلال الأيام الماضية، وافقه كل من فون وبينو والكونت شوفالوف وهولتزينر الرأي. أما غروي ومايكروفت فقد نظرا من دون أن يلتزما بشيء.

دمدم غروي بصوت منخفض لم يسمعه سوى الشقيقتين هولمز: " هذا ما يقوله المحتالون الذين يحيطون أنفسهم بهالة من الصدق لحمل المشاهدين على الاتفاق معهم وتصديقهم؛ من خلال وضعهم في إطار ذهني

يتيح لهم تصديق ما يقولونه؛ ولو كان غير صحيح ويفتقر إلى الدليل والبرهان " .

" أنتم توافقون على أنني كنت معصوب العينين قبل أن يقوم السيد هولمز باختيار اللوحة، وبالتالي لم يكن بوسعني رؤية أي شيء، أو تلقي أي رسالة. ولقد كنت طيلة الوقت تحت مرمى نظراتكم المتفحصة ". وعندما قال ذلك، قام بنزع العصابة عن عينيه بطريقة مسرحية. " مهما يكن الأمر، فأنا لن أحتاج إلى هذه العصابة مجدداً؛ فالسيد شارلوك قد اتخذ قراره، والآن يفترض بي أن أعرف ما كان قراره. سأتواصل الآن مع الأرواح في البعد الآخر، وسأعمل على إقناع إحدى الأرواح المقيمة هناك بأن تتجسد في الغرفة فوق. أرجوكم، حافظوا على الهدوء قدر المستطاع، فالأرواح حساسة ومرهفة جداً، ومن السهل أن تتشوش " .

نظر إلى كل واحد من الممثلين لثوانٍ معدودة، ثم حدق مجدداً إلى شارلوك الذي شعر بأنه يفقد القدرة على الحركة بتأثير الوميض الأبيض الصادر عن العين البديلة التي يضعها السيد ألبانو في الوقت الذي كانت الشمس فيه توشك على المغيب.

عم صمت رهيب المكان. وأخيراً، صفق ألبانو بيديه، والتفت حوله، وسار مبتعداً عن المجموعة ناحية السور، ووقف هناك، وبسط ذراعيه، وألقى برأسه إلى الخلف، وبدأ ينشد بنعومة.

قال مايكروفت بهدوء: " لقد خطر ببالي أنه حتى لو تمكن من التخمين فإن لديه فرصة واحدة من بين ست عشرة فرصة كي يكون تخمينه صحيحاً. فهناك أربع لوحات وأربع وضعيات يمكن تعليق اللوحة بها " .

أشار غروي: " إلا أن القيام بذلك يبقى مجازفة، وهو لن يعيد المحاولة خمس عشرة مرة أخرى أمام ممثلي دول مختلفين حتى يتمكن من التخمين بشكل صحيح. فالفرصة متاحة لديه مرة واحدة، ويجب أن يكون تخمينه فيها صحيحاً حتى يتمكن الجميع من تصديقه ". توقف قليلاً قبل أن يتابع: " لن أصدقه حتى لو كان تخمينه صحيحاً من المرة الأولى. إنني على يقين أن هناك خدعة، ولكنني لا أستطيع أن أعلم ما هي " .

قال مايكروفت: " إنني أوافقك الرأي. فقد كان هناك مقدار كبير من العمل المسرحي في الإجراءات؛ من الكلس الأبيض والأزرق، إلى التلويع بالعازضة الخشبية، ووصولاً إلى عصابة العينين وشمع الأذنين. إنني أشك في أن الهدف من كل ما ذكرت آنفاً كان تشتيت انتباهنا عن الأشياء غير

الطبيعية في الإجراءات " .

سأله شارلوك: " أي منها؟ " .

فقال غروي: " لماذا لا نخبرنا أنت؟ " .

قام شارلوك بتنظيم أفكاره وقال: " حسناً، كل ما له علاقة بتعليق اللوحة على الجدار غريب. فقد كان باستطاعته أن يختار مجموعة متنوعة من الأشياء المختلفة، فلماذا استخدم شيئاً كبيراً وثقيل الوزن؟ " .

أوما مايكروفت: " جيد حتى الآن، تابع " .

" كما أن الترتيم العشوائي للغرف غريب أيضاً؛ لأنني لا أستطيع تصديق ما قاله عن أن الأرواح لا ترغب بالأشياء المنظمة. فقد لاحظت في الجلستين السابقتين أن الأحرف على الطاولة كانت مرتبة وفق الترتيب الأبجدي الصحيح " .

" مجدداً، نقطة أخرى جيدة. وأنا أشك بأن الحيلة مرتبطة بشكل أو بآخر بالترقيم العشوائي، فأنا أعتقد أن الاختيار كان سيقع في مطلق الأحوال على الغرفة التي التقينا فيها " .

" أما النقطة الثالثة فمرتبطة بالغرفة بحدّ ذاتها، فقد أشرت يا سيد غروي إلى عدم وجود الستائر في الغرفة، إلا أن شرح السير شادراتش لم يكن مقنعاً؛ عدا عن أنه لم يكن يتفق والمنطق السليم. لا بد أن الخدعة تتعلق بحقيقة أن النافذة لم تكن مغطاة، ولكنني لا أستطيع أن أعرف كيف " . وأشار إلى الغرفة التي كانت تعلوهم بعدة طبقات، بإيماءة من رأسه. " في الحقيقة، ما من طريقة لرؤية ما يوجد داخل الغرفة من مستوى الأرض هنا أو من أي مكان خارج الأسوار، إن ذلك ضرب من المستحيل " .

همهم غروي قائلاً: " بالرغم من هذا، لقد تمكن من الرؤية " .

تحدث الأخوان هولمز مع السيد غروي بهدوء لبرهة، وكانت الشمس تقترب من الأفق، والسماء تتحول من اللون الأزرق إلى الأرجواني، ومنه إلى الأحمر فالأسود. وكان الجو يتحول تدريجياً ليصبح بارداً، وأحس شارلوك بالقشعريرة تجري في جسده. في تلك الأثناء، ظهرت خادمة من داخل القلعة وهي تحمل بطانية سلمتها لكبيرة الخدم سيلمان التي قامت بوضعها على ساقى سيدها. طيلة الوقت، كان ألبانو واقفاً في الهواء الطلق بمفرده؛ ماداً يديه وهو يهمهم، وبدا بجلاء أنه يحاول أن يبدو كما لو أنه يقوم بعملية تواصل.

أخيراً، استدار السيد ألبانو وعاد إلى المجموعة. تحلق الجميع حوله،

كان ثلاثة منهم تواقين لسماعه، أما الثلاثة الآخرون فكانوا متشككين في ما سيقوله.

قال ألبانو: " لقد تمكنت من إقناع الأرواح بالموافقة. كانت روح صديقي القديم الذي يدعى انفيكتوس هي التي تواصلت معها، لقد عاد للتو من الغرفة، وأخبرني أن الجواب هو..."

وصمت قليلاً بشكل دراماتيكي، ثم تابع: " اللوحة التي علقها شارلوك هي لوحة المنظر الطبيعي للهضاب والأشجار. وقد قام بتعليقها مقلوبة رأساً على عقب " .

نظر الجميع إلى شارلوك، وسأله هولتزبرنك بأنفاس مقطوعة: " هل هذا صحيح؟ " .

للحظة، شعر شارلوك برغبة جامحة بالكذب، ولكنه لم يكن يريد ذلك. فقد كان يعلم علم اليقين أن هناك خدعة، ولكنه بالرغم من يقينه هذا أراد أن يكون صادقاً.

أجاب شارلوك: " نعم، هذا صحيح. لقد علقتم لوحة المنظر الطبيعي مقلوبة رأساً على عقب " .

أرجع ألبانو رأسه إلى الخلف وضحك، فيما صفق كل من الكونت شوفالوف وفون وبينو وهولتزبرنك بشدة.

الفصل الثاني عشر

كان العشاء غريباً.

من وجهة نظر شارلوك، بدا له أن ما قام بكشفه في جلسة البارحة وكأنه لم يحدث. فقد كان الكونت شوفالوف وفون وبينو وهولتزبرنك مجتمعين عند أحد طرفي الطاولة، وكانوا يتكلمون وهم مفعمون بالحيوية عن الظاهرة النفسية والبعء الآخر، ويتداولون في الطرائق التي يمكن للتواصل مع الأموات أن يجلب بها الفوائد للأحياء، ويتناقشون في ما يعنيه ذلك للأديان. لم يتواجد كل من السير كوينتلان والسيد ألبانو على العشاء. وربما أرادا أن يتيحا لضيوفهما الوقت للتحدث مع بعضهم بعضاً. وقد جلست كل من نيف وفرجينيا إلى وسط الطاولة، وهما تتحدثان، وخمّن شارلوك أنهما تتحدثان عن الأحصنة. لقد شكلت الفتاتان حاجزاً يمكن تشبيهه بالمحيط الذي يفصل بين قارتين؛ قارة تصدق مزاعم ألبانو وتتمثل بالثلاثي الذي يجلس في الجهة الأخرى من الطاولة، وقارة لا تصدق مزاعم ألبانو وتتمثل بالأخوين هولمز والسيد غروي.

قال شارلوك وهو يغرز شوكته في لحم الحمل: "إنني لا أستطيع أن أصدق. هل ما حصل في الجلسة السابقة كان حقيقة أم أضغاث أحلام؟". أجابه غروي: "إنها طبيعة البشر يا بني. فإذا كانوا يميلون إلى تصديق شيء ما فإنهم سيقبلون أي إثبات على أن ما يميلون إلى تصديقه حقيقة، وسيبدلون قصارى جهدهم لرفض الأدلة التي تدحض ذلك. وزملاؤنا الذين يجلسون في الطرف الآخر من الطاولة يريدون حقاً، بل يتوقون لتصديق أن الظاهرة النفسية موجودة فعلاً؛ بعكس الثلاثة الذين يجلسون هنا وأنت منهم، الذين يقودهم المنطق وليس الأشياء التي يتوقون إليها". "ولكن، كيف؟".

كان مايكروفت من أجاب هذه المرة بصوت منخفض: "في حالة فون وبينو وهولتزبرنك، أشك في أن كلاً منهما فقد شخصاً عزيزاً عليه، وهما لا يرغبان بالاعتراف بأنهما فقدا أعضاءهما إلى الأبد، لذا تراهما يتمسكان بأي ذرة من دليل يبقي جذوة الأمل مشتعلة؛ والتي ستتيح لهما أن يعرفا أن أعضاءهما سعداء، ولا يزال بإمكانهم التواصل مع أفراد العائلة الأحياء".

"لاحظت أن أياً منهما لم يكن سعيداً عندما كشفت الحيل والخدع في الجلسة السابقة". قال السيد غروي: "وقتها ظننت أن ذلك ربما يعود إلى أنهما يشعران بالخزي بسبب تعرضهما للغش والخداع. ولكنني متيقن الآن

من أن سبب حزنهما هو أنهما شعرا بأن شيئاً عزيزاً يبتعد عنهما. والآن، قام كل من ألبانو وكوينتلان بالتلويح مجدداً بذلك الشيء العزيز أسفل أنفيهما، وها هما يسيران في ركبهما مجدداً.

"وفي حالة الكونت شوفالوف"، تابع مايكروفت قائلاً وكأن غروي لم يقاطعه، "أعتقد أن الجواب يرتبط بجنسيته أكثر من ماضيه الشخصي. ومن خلال تجاربي وخبراتي، الروس قوم متدينون وقديرون جداً، وهم ميالون للاعتقاد بكل الأشياء التي تبدو غريبة بالنسبة إلى من هو غير روسي". ابتسم وتابع: "إنني أتذكر أن أحد معارفي العسكريين قال لي ذات مرة إنني إذا وضعت جنرالات من روسيا وأميركا وألمانيا وبريطانيا في غرفة واحدة، وطلبت منهم حل معضلة ما فإن الجنرال الأميركي والبريطاني والألماني سيعطونني حلاً مختلفاً بشكل جذري عن الحل الذي سيتوصل إليه الروسي. إن الروس لا يفكرون مثلنا، وسيواجه البشر الكثير من المشاكل إن نسوا هذا الأمر".

"لقد وقعوا جميعاً ضحية مزاعم ألبانو بأنه مريض، وأن قدراته في الوقت الحالي لا يمكن الاعتماد عليها بشكل دائم". هز غروي رأسه، واتخذ صوته طابعاً خطابياً: "اسمعا هذا الآن؛ الناس الأغبياء هم الذين لا يفهمون، وهم الذين يمتلكون عيوناً ولكنهم لا يرون بها، والذين يمتلكون آذاناً ولكنهم لا يسمعون بها".

حينها سأل شارلوك: "هل لا يزال بمقدورنا إقناعهم أنهم ضحية خدعة وحيلة، أم إن الوقت قد فات".

تنهد السيد غروي بشدة، ونظر إلى مايكروفت الذي قال بترؤ: "يعتمد هذا الشيء بشكل كامل على قدرتنا على إثبات كيفية تنفيذ الحيلة. فإذا تمكنا من تفسير ذلك فسنستطيع إقناعهم، وإلا فإن التفسير الوحيد المقبول لديهم هو قدرات السيد ألبانو".

عندها، قال السيد غروي: "الخطوة الأولى واضحة جداً، وهي تتمثل باختيار الغرفة".

أوماً مايكروفت: "صحيح. إن هذا الجزء من الإثبات هو الأسهل والأبسط".

نظر شارلوك إلى شقيقه، ثم إلى أستاذه، وعاود النظر مجدداً إلى شقيقه وسألهما: "هل بوسع أي منكما شرح الأمر لي؟".

"إنه بديهي جداً". حدق مايكروفت في طبقه بحزن وقال: "أحد الآثار الجانبية المؤسفة الناتجة عن التعرض للضرب على الرأس يتمثل في فقدان

الشهية. إنني لا أظن أن باستطاعتي تناول المزيد من الطعام".
قال شارلوك بتأنٍ: "لا، الأمر ليس بديهياً. لقد اختيرت قصاصات الورق
التي دونت عليها أرقام الغرف بشكل عشوائي، ونحن نعلم أن كل ورقة
كانت تحمل رقماً مختلفاً، ولم يكن بوسع كوينتلان أن يعرف مسبقاً الرقم
الذي كنا سنختاره".

أجابه مايكروفت: "هذا صحيح. ولكن، هل سيساعدك على الفهم إن
ذكرتك بأن الغرف في الممر كانت مرقمة بشكل عشوائي؟".
"لا أظن".

"وهل سيساعدك إن أعلمتك أنني لا أظن أن أيّاً من الأرقام المدونة
على قصاصات الورق كان سيتطابق مع الأرقام المدونة على أبواب الغرف؟".
فكر شارلوك هنيهة، ثم لمع الجواب في رأسه: "بالطبع سيساعدني كل
ما ذكرته سابقاً".

"إذاً، اشرح لنا من فضلك كي نتأكد من أنك عرفت الجواب الصحيح".
"كل أبواب الغرف في الطابق العلوي كانت مرقمة بالطبشور باستثناء
باب الغرفة التي يريدنا كوينتلان أن نستخدمها؛ فقد ترك بابها من دون
ترقيم، وقد ملئت الطاسة بقصاصات ورق مرقمة، ولكن أيّاً من تلك الأرقام
المدونة على القصاصات لم تكن تتطابق مع الأرقام المدونة على الأبواب".
عندها، قال السيد غروي: "وأسهل طريقة للقيام بذلك تتمثل بتدوين
أرقام مفردة على القصاصات وأرقام مزدوجة على الأبواب. ولكنني أعتقد
أنهما استخدمتا طريقة أكثر تعقيداً من الاستنتاج الذي توصلنا إليه".
"وعندما اختار فون ويينو الرقم وأعلنه، قام أحد أتباع كوينتلان ممن
كانوا يقفون خارج قاعة الطعام بالصعود بسرعة وتدوين الرقم على باب
الغرفة التي كان كوينتلان قد حضّرها مسبقاً".
عندها، سأل السيد غروي: "ولكن، لماذا رقم أبواب الغرف بطريقة
عشوائية".

"الأمر في غاية البساطة؛ بما أن السير كوينتلان لم يكن يعرف الرقم
الذي سنختاره، لم يكن باستطاعته تدوين الأرقام على الأبواب بشكل متتالٍ؛
لأنه حينها سيبدو الرقم الذي اختاره فون ويينو وتمّ تدوينه بسرعة على
الباب وكأنه خارج السياق".

قال مايكروفت وهو يمضغ لقمة: "هذا عظيم، بل رائع. ولكن، هل
يعلم أي منكما كيف نفذت الخدعة؟ شارلوك، أنت أكثر شخص مكث في
الغرفة، فهل لديك فكرة؟".

هز شارلوك كتفيه وقال: "لم أر أي شيء يمكن أن يساعدنا في حل هذه المعضلة. ما من شك في أن أحدهم قد دخل الغرفة، أو تمكن من رؤية ما بداخلها من الخارج، ولكنني لا أعلم كيف. لقد تفحصنا جميعاً الكلس عند الممر، والمسحوق الأزرق على السطح؛ فقد أصر كوينتلان على قيامنا بذلك. وبعد انتهائنا من ذلك كان من الواضح أنه ما من أحد مس المسحوق والكلس في الوقت الذي كنا نحدق فيه إلى النافذة. من المستحيل أن يتمكن أحد من الرؤية من الخارج".

قال مايكروفت: "أظن أنه يمكننا استبعاد الاحتمالات المستحيلة. وهذا يعني أنه يفترض بنا البدء بالتفكير في الوسائل بعيدة الاحتمال".
توقف الحديث لوقت طويل بعد العبارة التي تفوه بها مايكروفت؛ وكأن كل واحد منهم حاول البحث عن تفسيرات غير محتملة ولكنهم فشلوا في ذلك.

لاحقاً، وبينما كان شارلوك مستلقياً في سريره، أحس بأجزاء من الحقيقة تحلق حول جمجمته، كتأملات أو فرضيات. بالنسبة إليه، لقد عثر على تفسير للهجوم الذي تعرض له شقيقه - أو على الأقل هناك تفسير مقنع له - وكان متأكداً من أن هناك خدعة مدروسة تقف خلف عرض اللوحات. ولكنه لا يزال غير متأكد من ماهيتها وكيفية تنفيذها. كما فُكر بأن هناك من شاهد الدارك بيست. ترى، هل الدارك بيست حقيقة وليست وهماً أو إشاعة؟ وهل لموت الخادمة ماري علاقة بالأمر؟ وهل ماتت حيث وجد جثتها أم ماتت في مكان ما ونقلت جثتها إلى حيث وجدت؟ وإن كان التفسير الثاني هو الصحيح، فهل يعني ذلك أنها قتلت؟ مما يقود إلى السؤال الأساسي: لماذا قتلت؟ جالت في رأسه أسئلة كثيرة لم يجد لها أجوبة شافية.

غفا رغماً عنه، وانجرف في أحلامه، ورأى فيها مرآيا محطمة تعكس مقاطع من مشاهد بطرائق مجزأة. وكانت نيف تظهر في بعض الأحيان خلفه محدقة إليه. هل كانت نيف حقاً أم كانت فرجينيا؟!

لم يكن السير شادراتش موجوداً إلى مائدة الفطور في صباح اليوم التالي، إلا أن ألبانو حضر وبدا مريضاً بشكل واضح. وكان كلما حمل إحدى الملاعق أو السكاكين أو الشوك يعيدها إلى الطاولة من دون أن يأكل شيئاً. فكر شارلوك في سره: ربما لم ينم ألبانو بشكل جيد. وكان ينظر باستمرار إلى كبيرة الخدم سيلمان التي كانت تبادلته النظرات. ولاحظ شارلوك أن هناك شيئاً غريباً في تعابيرها؛ فقد بدت وكأنها تطلب منه القيام بشيء ما

أو تحذره من القيام بشيء ما. على كل حال، لم تكن تعابيرها طبيعية كالتعابير التي يمكن أن تجدها على وجه كبيرة الخدم. في نهاية الفطور، أومأت سيلمان ناحية ألبانو، كما لو أنها تعطيه إشارة الانطلاق. فوقف وطرق على الطاولة ليلفت الانتباه إليه. قال ألبانو: "أيها السادة والزملاء المحترمون، يؤسفني أن أخبركم أن السير شادراتش قد تعرض لوعكة صحية مساء أمس، ولن يستطيع التواجد معنا اليوم".

نظرت نيف شادراتش إليه، وبدا القلق في عينيها. بدا واضحاً أنها لم تكن تعلم شيئاً عن ذلك، وقالت: "هل والدي...". رفع ألبانو يده وقال: "إنه بحالة جيدة". بالرغم من ذلك، وجد شارلوك شيئاً في تعابيره حمله على عدم تصديقه. "إنه متعب قليلاً ويحتاج إلى بعض الراحة". نظر بسرعة نحو سيلمان، ثم أبعد نظره عنها مجدداً: "ستجري عملية المزايمة التي خُطط لها بعد الغداء. سيستغرق الخدم بعض الوقت لتحضير الغرفة، وسأقود المزايمة بنفسني وبمساعدة كريمة من سيلمان. أعتقد أنكم موافقون".

تمتم كل من كان يجلس إلى الطاولة بالموافقة. عندها، وقفت نيف وركضت نحو الباب، ولكن ألبانو ناداها قائلاً: "آنسة نيف، والدك نائم، أرجوك لا تزعجيه".

عندها، قال مايكروفت: "أرجوك، انقلي له تحياتي وتمنياتي له بالشفاء العاجل".

بدوره قال ألبانو: "جميعنا نتمنى له الشفاء العاجل". بعد الفطور، أخذ شارلوك يتجول في الأرجاء، وتوجه نحو المكتبة وهو يفكر بمواصلة البحث عن الممرات السرية، ولكنه تفاجأ عندما وجد ألبانو هناك. كان يجلس إلى طاولة كبيرة ويقرأ كتاباً، وكانت سترته معلقة على ظهر الكرسي.

حدق ألبانو إلى شارلوك وسأله: "هل تتبعني؟". ولكن، لم يبدُ عليه الغضب.

قال شارلوك: "كلا. في الحقيقة، لم أكن أعلم أنك هنا. ولكن، وبما أنك هنا، فهل يمكنني أن أطرح عليك بعض الأسئلة حول الخدع؟ فمن الواضح أنك ماهر فيها".

اعترف ألبانو: "لقد أمضيت بعض الوقت وأنا أعمل لاعب خفة على المسرح. وقد كنت أعمل تحت اسم مستعار، وذلك قبل أن أتعرض للحادث

الذي فقدت بسببه عيني، وقبل أن أكتشف لاحقاً قدراتي على التواصل مع الأموات". أمال رأسه إلى أحد الجانبين، وحدث إلى شارلوك وسأله: "كيف استطعت أن تكتشف خدعي في الجلسة؟ لقد اقتنع الجميع باستثنائك، أو كانوا على وشك الاقتناع".

"كدت أن تقنعي أنا أيضاً؛ لولا أنني بحثت في غرفتك، ووجدت الدليل على ألعبيك وخدعك موجوداً في علبة أسفل السرير".
همهم ألبانو وقال: "يفترض بي أن أكون غاضباً، ولكنني لا أجد الطاقة لذلك الآن. علاوة على ذلك، إن الأمر غير ذي أهمية بالنسبة إليّ، فقد قمت بالبحث في غرف الجميع؛ باحثاً عن أشياء يمكن أن أستخدمها في عروضي. فقد وجدت رسالة من شقيق هولتزبرنك، ويبدو أن هولتزبرنك يحملها معه على الدوام. لذا، لا يجدر بي الشكوى والآنزعاج، فلو انتهكت حرمة غرفتي من دون أن أفعل ذلك بسواي لكنت سأنفجر غضباً. ولكن، بما أنني بحثت في غرف الجميع، فما الخطب لو قمت أنت بالبحث في غرفتي؟".

حينها سأله شارلوك: "إذاً، ماذا يمكنك أن تخبرني حول الحيل السحرية؟".

ابتسم ألبانو لنفسه ووقف، ثم قال: "الأمر برمته يتعلق بالتوجيه الخاطئ للانتباه لفترة قصيرة من الزمن". قام بالضغط على كم قميصه الأيمن بيده اليسرى، وسحب الكم إلى الأعلى كي يظهر معصمه، وكان يرفع يده اليمنى مبقياً أصابعه بعيدة عن بعضها بعضاً - "كما يمكنك أن ترى، ما من شيء مخفي في يدي اليمنى أو في كم قميصي الأيمن". وقام بالشيء نفسه في يده اليسرى، ثم سحب كفه الأيسر ليكشف عن معصمه الأيسر، وبسط أصابع يده قائلاً: "ليس هناك شيء أخفيه في يدي اليسرى أو في كم قميصي الأيسر. هل توافق؟".

أجابته شارلوك: "أوافق". وكان يعلم أن هناك حيلة وخدعة على وشك الحدوث، ولكنه لم يكن يعلم ما هي أو كيفية حدوثها.
هز ألبانو رأسه: "يبدو أنك لم تراقبني بعناية كافية". قام ألبانو بجمع أصابع يده اليمنى مع أصابع يده اليسرى معاً، قبل أن يبعدها عن بعضها بعضاً. وفجأة، كان يحمل بين أصابعه ورقة نقدية: "إذاً، من أين أنت الورقة النقدية أيها الشاب؟".

أجابته شارلوك بصدق: "لا أعرف. إن لم تكن في أعلى كميك أو في يديك، فيفترض بها أن تكون مخفية في مكان ما".

ابتسم ألبانو وقال: " بالطبع، شاهدني مجدداً " .
ثنى ألبانو الورقة النقدية بالنصف، ثم قام بلفها بعناية على شكل
أسطوانة، وقام بسحب كميته الأيمن والأيسر حتى غطيا معصميه، ثم دس
الورقة النقدية الملفوفة في ثنية كميته الأيسر، حيث وضعها في عقفة المعصم،
وحال دون سقوطها بإبقائه ذراعه اليسرى مثنية، ولكنه أبقى يده اليسرى
مخفية بواسطة يده اليمنى حتى يظهر بمظهر طبيعي. عندها قال: " الآن،
أتوافقني الرأي أنه ما من شيء مخبأ في يدي اليمنى؟ " . وقام بسحب
كمية الأيمن مجدداً كما فعل سابقاً.

أجابته شارلوك: " أوافقك " .
استعمل ألبانو يده اليمنى لكي يسحب كميته الأيسر إلى الأعلى مجدداً.
ولكن، هذه المرة تمكن شارلوك من رصد ما تحمله اليد اليسرى. بسط
ألبانو أصابعه وبعدها بينها، ثم أمسك بلفافة الورقة النقدية المخبأة في ثنية
الكم. " وكما يمكنك أن ترى بوضوح، ما من شيء في أعلى كميته الأيسر " .
" مجدداً، أوافقك الرأي. ولكن الكمين كانا نقطة التوجيه الخاطئة.
أليس كذلك؟ " .

جمع ألبانو أصابعه معاً مجدداً. ويده اليمنى، أخفى الورقة النقدية
التي أخذها من كميته، وشكل زاوية بواسطة يده، وقام بسحب الورقة
النقدية المفتوحة وقال: " والآن، هل رأيت؟ " .

قال شارلوك: " إنها سهلة جداً، إنها تبدو وكأنها خدعة " .
" هذا هو السر المخزي للاعبين الخفة المحترفين. وما نسيميه سحراً هو
في الواقع مجموعة من الطرائق الجلية لإخفاء الأشياء. تكمن الخدعة في
شد الانتباه بعيداً عن المكان الذي سيتم إخفاء الأشياء فيه. الدرس الأول
من دروس ألعاب الخفة هو: إذا كان الجمهور يعلم فقط كم هي واضحة
الأماكن التي سنخفي فيها الأشياء، وكم هو مقدار الجهد الذي سنبدله
لتشتيت انتباهه، فعندها ستفقد ألعاب الخفة جاذبيتها فوراً " .

" ولكنك كنت تمتلك ورقة نقدية مطوية وملفوفة في مكان ما، وكنت
جاهزاً لإخفائها في كميته، بالرغم من عدم معرفتك بأني سأتي " .

" هذا جيد " . ابتسم ألبانو، وكانت ابتسامته طبيعية وليست تلك
الابتسامة الزائفة المسرحية، وقال: " والدرس الثاني من دروس ألعاب الخفة
هو: يجب أن تكون لديك على الدوام عدة حيل جاهزة في جيبيك أو
حقيبتك؛ فالتحضير يستغرق وقتاً طويلاً، وأنت لا تعلم متى ستتاح لك
الفرصة لعرض حيلك " . عبس وتابع: " الآن، دعني أرى ماذا أستطيع أن

أعرض لك أيضاً". أخذ سترته من خلف الكرسي، وارتداها، وربت على جيبه، ثم أزلق يديه داخلهما كمن يبحث عن شيء ما. ابتسم شارلوك لنفسه؛ فقد تمكن من تمييز إيماءة يد ألبانو المسرحية النموذجية التي تهدف إلى التوجيه الخاطئ وتشتيت الانتباه، فبطريقة ما بدأ الرجل حيلة أخرى.

" آه، يا للخزي! يبدو أنني أضعتها". سحب ألبانو يديه من جيب سترته، وبسط راحتيه باتجاه شارلوك قائلاً: " أترى، ما من شيء هنا؟ ". ثم قام بضم أصابع يده اليمنى ليشكل قبضة، وما لبث أن فتحها. وفجأة، صار يحمل بيده بطاقة لعب: " آه، إنها هنا! ". وقدمها إلى شارلوك. كانت بطاقة البستوني رقم ثمانية. وبتلويح مفاجئ، كرر الحركة نفسها بيده اليسرى، وظهرت بطاقة أخرى؛ إنها بطاقة الديناري رقم تسعة. أعطى شارلوك البطاقة الثانية أيضاً.

أخذ شارلوك يضحك، ولم يستطع تمالك نفسه، فثمة شيء بسيط وممتع يجعلك تتعلق بخدع السيد ألبانو وحيله وقال: " حسناً، جيد لقد قمت بإخفاء البطاقتين بطريقة ما في يديك. ولكن، كيف؟ ".

" شاهد بتأن". أخذ ألبانو إحدى بطاقات اللعب، وحملها بيده اليمنى بين الإبهام والأصابع الأخرى، ثم أحنى الإصبعين السبابة والوسطى حيث ضغطت براجمهما على الجهة الخلفية للبطاقة، ثم لفَّ الإبهام والبنصر حولها ليحكم الإمساك بحوافها، ثم قوّم أصابعه مجدداً، فإذا بالبطاقة تنقلب إلى الجهة الخلفية من راحة يده، إلا أنها كانت لا تزال عالقة بين إبهامه وبنصره. مد يده إلى شارلوك ليظهر له كيف أن البطاقة محنية بين إصبعيه؛ فبالنسبة إلى الناظر من جهة راحة اليد لن تكون البطاقة مرئية. " الدرس الثالث من دروس ألعاب الخفة يدعى خلف راحة اليد لأسباب واضحة وجلية. إنها واحدة من أساسيات ألعاب الخفة بواسطة بطاقات اللعب، وبمجرد امتلاكك هذه المهارة، وبمجرد أن يصبح أداؤك غير مرئي سوف تستطيع إخراج المزيد والمزيد من البطاقات بقدر ما تشاء ".

" هل يمكنك أن تعلمني حيلة أخرى؟ ".

تنهد الرجل وقال: " دائماً هناك حيلة أخرى ". وقام بجمع البطاقتين اللتين كانتا بحوزة شارلوك، ثم قام بالبحث داخل سترته وأخرج كدسة بطاقات كاملة. " جيد جداً، اجلس ودعني أخبرك قصة اللصوص الأربعة ".

سحب شارلوك كرسيًا، وجلس إلى الطاولة قبالة السيد ألبانو. في تلك الأثناء، خلط السيد ألبانو البطاقات، ثم استخرج منها الشبان الأربعة، ووضع

الجهة المرسومة منها إلى الأعلى، أما البطاقات الباقية فجعل الجهة المرسومة منها إلى الأسفل؛ أي بمواجهة سطح الطاولة، وقام بعرض البطاقات على شارلوك وقال: " كان هناك أربعة لصوص خططوا لسرقة منزل ذات مساء عندما يكون أصحابه في الخارج " .

حينها قال له شارلوك: " إنني لا أريد الاستماع إلى القصة، بل أريد تعلم الحيلة فقط " .

" الدرس الرابع من دروس ألعاب الخفة هو: القصة هي الحيلة، أو على الأقل جزء من عملية التوجيه الخاطئ أو تشتيت الانتباه. تذكر أن كل حيلة أداء، ويجب عليك تسلية المشاهدين وإدهاشهم أيضاً. يجب عليك أن تقودهم في رحلة يفترض بك أن تكون قد خططت لها بعناية. الآن... ".

وضع بطاقات اللعب الأربع التي تحمل صور الشبان في أعلى كدسة البطاقات، ولكن كانت الرسوم هذه المرة إلى الأسفل وقال: " لقد صعد اللصوص الأربعة إلى سطح المنزل، ونزلوا إلى البيت عبر الجبال. نزل اللص الأول إلى الدور السفلي ". وبينما كان يقول ذلك، أخذ البطاقة الأولى من أعلى كدسة البطاقات وقام بإدخالها أسفل البطاقات الأخرى بالقرب من القعر، ودفعتها حتى أصبح من المتعذر تمييزها عن سائر البطاقات، وتابع قائلاً: " أما اللص الثاني فتمكن من الدخول عبر نافذة المطبخ ". وأخذ البطاقة الثانية التي تحمل صورة الشاب وأقحمها في وسط الكدسة تقريباً. وعاد ليقول: " أما اللص الثالث فتمكن من الدخول من النافذة المطلة على الدرج ". وهنا، تناول البطاقة الثالثة التي تحمل صورة الشاب الثالث من الأعلى، وأقحمها في الكدسة في أعلى البطاقتين السابقتين؛ على بعد مسافة قليلة من أعلى الكدسة، ثم تابع القصة قائلاً: " أما اللص الرابع فبقي على السطح ليراقب ". عندها، قام بقلب البطاقة التي كانت لا تزال في الأعلى ليكشف عن البطاقة التي تحمل صورة الشاب الرابع، ثم ما لبث أن أعادها إلى الحالة التي كانت عليها. وفجأة، ربت ببراحه على أعلى الكدسة وقال: " بعد بضع دقائق، شاهد اللص الذي بقي على السطح أصحاب المنزل يعودون، فأخبر زملاءه الذين سعدوا السلام بسرعة، ووصلوا إلى السطح، ثم نزلوا باستعمال الأنابيب وغادروا المنزل ". عندها، قام بسحب البطاقات الأربع وقلبها رأساً على عقب حيث أصبحت رسوماً نحو الأعلى، وظهرت أربع بطاقات تحمل صور أربعة شبان؛ بالرغم من أن شارلوك ظن أن ثلاثاً منها أقحمت داخل الكدسة. " إذًا، إنني أتحداك، كيف نُفذت هذه الخدعة؟ " .

فكر شارلوك هنيهة ثم قال: " إذا كانت البطاقات التي تحمل صور الشبان موجودة في الأعلى الآن، فهذا يعني أن البطاقات التي قمت بإقحامها داخل كدسة البطاقات لم تكن تحمل صور شبان. لذا، يمكنني القول إنك عندما استخرجت البطاقات الأربع التي تحمل صور الشبان وأريتني إياها، كانت هناك ثلاث بطاقات مخفية خلفها. وعندما قمت بوضع بطاقات الشبان ووجهت رسوماها إلى الأسفل، كانت هذه البطاقات الثلاث أعلاها، وهي التي سحبتها وأقحمتها داخل العلبة ". انتهى وأخذ نفساً عميقاً وقال: " إنها واضحة وجلية " .

" بالضبط، فالحيلة تكمن في كيفية سحبك بسلسلة سبع بطاقات بدلاً من أربع، وكيفية إخفائك البطاقات الثلاث الاحتياطية خلف البطاقات التي تحمل صور الشبان. وهذا كله مرتبط بعدم إظهارك جوانب البطاقات للمشاهدين، فالحيلة عملياً تبدأ قبل القصة، ولا دور للقصة سوى تشتيت انتباه المشاهدين " .

سأله شارلوك بسرعة: " هل يمكنك أن تعلمني هذه الحيلة؟ " . فردّ عليه ألبانو قائلاً بصوت هادئ: " لقد فضحت خدعي، وصعّبت عليّ إقناع الحاضرين بقدراتي لكي يقوموا بالمزايدة عليها، إنني لست مديناً لك بشيء " .

أوما شارلوك: " كلا، أنت محق، أنت لست مديناً لي بشيء، ولكنني أظن أنك تريد أن تُري أحداً حيلك. أنت تريد أن يعلم الآخرون كم أنت ذكي. إن جني المال يأتي في المرتبة الأولى، ولكن، إن لم يعلم أحد أن هناك حيلة فلن تشعر بالرضى. لذا علّمني، وبيّن لي كيفية القيام بهذه الحيلة. أنت تعلم الآن أنني الشخص الوحيد في هذه القلعة الذي يستطيع القيام بها بالشكل الصحيح ". وحدّق إلى ألبانو بتصميم: " على كل حال، أنت بدأت بتعليمي، وأعطيتني أربعة دروس. أنت تريد أن تنقل إليّ معلوماتك ومهاراتك " .

أوما ألبانو ببطء: " ربما كان هذا ما أفعله. إنه حلم كل لاعب خفة أن يكون لديه شاب مبتدئ ". تنهد وتابع: " جيد جداً، دعنا نبدأ بأساسيات حيل البطاقات، طالما أن لدينا كدسة منها هنا... " .

بقي شارلوك إلى جانب ألبانو عدة ساعات، وخلال هذا الوقت علمه ألبانو عدة طرائق لحمل مجموعة بطاقات اللعب، بالإضافة إلى طرائق مختلفة لتقسيم البطاقات. وبعد ذلك، علمه طرائق سرية لكي يقلب بها البطاقات بلمحة عين من الأسفل إلى الأعلى. ثم بيّن له الطرائق التي

يستطيع من خلالها التحكم بالبطاقات، وكيفية نقل إحدى البطاقات من الأعلى إلى الأسفل، وقال له: " إن جوهر ألعاب الخفة التي تنفذ ببطاقات اللعب يكمن في أن تُحدّد البطاقة المهمة، ثم في كيفية تحريكها إلى أي مكان ترغب به ". وأخيراً، بيّن لشارلوك الفن الصعب الذي يتمثل بجعل المشاهد يأخذ ما يظن أنها بطاقة عشوائية، ولكنها في الواقع تكون البطاقة التي عيّنها لاعب الخفة ونقلها مسبقاً. وما إن انتهى الوقت حتى شعر شارلوك بدوار في رأسه.

قال شارلوك باندهاش: " كل الحيل بسيطة، ولكن نجاحها يرتبط كثيراً بقدرتك على حمل حزمة البطاقات بشكل مثالي. فمن دون هذه المهارة، لن يستطيع أي كان القيام بما تقوم به ".

أجابه ألبانو: " إن السر الوحيد والحقيقي هو الممارسة والتمرين. لذا، لا يفترض بك أن تترك حزمة البطاقات قبل أن تصبح قادراً على التعامل معها ببراعة وسهولة تماثل سهولة إغماض عينيك. لذا، لا تذهب إلى أي مكان من دونها، فإذا سافرت إلى أي مكان خذ حزمة بطاقات معك، وقم بمجرد تحريكها بين أصابعك، وقم ببسطها واخلطها وتقسيمها. قم بأي شيء وكل شيء وهي معك. يفترض بالبطاقات أن تصبح أفضل صديق لك ". عندها، حمل حزمة البطاقات وقدمها له قائلاً: " تمرّن دائماً، فأنت لن تعرف متى ستحتاج إلى هذه المهارة ".

شكر شارلوك السيد ألبانو وتصافحا، وغادر شارلوك وهو يشعر بأمر غير طبيعي؛ فقد شعر بأنه لا يخطو على الأرض بقدر ما يثب عليها. كان يشعر بالانتعاش، وكأنه أعطي لمحة عن مستقبله، وشعر بأنه قادر على التحدث مع فرجينيا مجدداً. ولكنه عندما سأل الخدم عنها قالوا له إنها ذهبت لتمتطي الأحصنة مع السيدة؛ وافترض أن نيف هي المقصودة بهذا اللقب. لقد بدا له الأمر غريباً بل ومقلقاً؛ كيف تبدو هاتان الفتاتان صديقتين.

وجد شارلوك نفسه بحاجة إلى استنشاق الهواء المنعش قبل العشاء؛ بعد ما بذله من تركيز في الساعات القليلة الماضية، لذا توجه إلى الخارج؛ متذكراً النزهة التي قام بها مع فرجينيا، ورؤيته البناء البرجي الغامض، وعدم قيامه بتفحصه حينها، وعقده العزم على إيجاده مجدداً.

استغرقه الأمر نحو عشرين دقيقة قبل أن يخرج من الطريق الذي تنمو فيه النباتات ويجد نفسه أمام قاعدة البناء البرجي. بدا البناء البرجي أضيّق مما ظنه؛ فقد بدا بعرض عشر أقدام وارتفاع خمسين قدماً. وهو

مشيد من حجارة رمادية داكنة. وعندما لمسها بأصابعه بدت خشنة. سار حول البناء البرجي، ولاحظ أن الخطوط حيث تلتقي الحجارة كانت دقيقة جداً؛ حتى إنها بالكاد كانت مرئية. إنه عمل يدل على حرفية عالية لدى البنا. لقد أتاح له ضوء الشمس الخفيف المتسرب عبر الغيوم أن يرى حفراً صغيرة جداً في الحجارة، وهذا ما أثار ذكريات ما في ذاكرته، وقد استغرق عدة ثوانٍ حتى أدرك أن البناء البرجي مبني من الحجارة نفسها التي بني منها الحائط الذي سد الطريق في النفق أسفل القلعة.

نظر نحو القلعة، وحاول أن يقدر المسافة التي تفصله عنها، ومعرفة إن كانت المسافة عينها التي قطعها في النفق تحت الأرض. كما تساءل إن كان قد سار حينها تحت الأرض مسافة تعادل المسافة التي قطعها الآن أم أكثر، وتساءل إن كان الحائط الذي وجده تحت الأرض هو ذاته الذي ينظر إليه الآن. بدا الأمر برمته غير منطقي، ولكنه يظن أنه الحائط نفسه. غير أن السؤال الذي طرح نفسه الآن هو: لماذا يتابع حائط البرج طريقه إلى باطن الأرض؟ ما العبرة من ذلك؟ من المؤكد أن بناء برجياً كهذا يفترض به أن يبنى على أساس مسطح وعلى سطح الأرض. ولكن، لماذا حفرت الأرض حتى يتابع البرج طريقه إلى الأسفل؟

حماقات، ذكّر نفسه بأن البناء البرجي بني من قبل مالكين أغنياء، ولم يكن لديهم الكثير ليهتموا به أكثر من إظهار مدى ثرائهم. وما دام هذا حالهم، فلماذا يبحث عن أمور منطقية في تصرفاتهم؟

تمكن شارلوك من إيجاد مساحات سوداء في البناء البرجي، وهي متراففة فوق بعضها في خط مستقيم يقود إلى الأعلى؛ بدت له وكأنها نوافذ. ولكن المعضلة تمثلت في أنه لم يتمكن من العثور على باب للبرج عند مستوى الأرض. تساءل عن سبب عدم وجود باب، وعن الهدف الذي يرمي إليه المهندس من تشييد بناء من دون باب له.

ولما نظر إلى أعلى البرج، وجد شيئاً شبيهاً بالسور مع فتحات، وقد بدا له من الأسفل وكأنه شيء كبير مماثل لما يدعى بين أحجار الشطرنج الرخ. لم يكن هناك مدخل إلى البرج من مستوى الأرض، ولكن وجود النوافذ جعله يعتقد بوجود غرف داخل البرج. غير أنه عاد وتساءل مرة أخرى عن الحكمة من تشييد بناء برجي ذي غرف، ولكن من دون باب أو مدخل!!

وقف أمام البناء، وحدق إليه قليلاً محاولاً أن يجد تفسيراً لهذا الشذوذ في التشييد. وبعد أن استجمع أفكاره، توصل إلى أن البرج يتابع

طريقه نحو الأسفل في الاتجاه نفسه الذي يسلكه في الأعلى. تقدم من الجدار المقعر للبرج وسجد، وتفحص النقطة التي يلامس بها البرج سطح الأرض. كانت الأرض مغطاة بالنباتات والأعشاب، ولكنه رأى أنه يستطيع تمرير يده في المسافة التي تفصل الأرض عن البرج. لقد وجد أن هناك فجوة.

على بعد مسافة، لاحظ وجود كتلة حجرية تنبثق من حائط البرج، ولكنها تختلف عن الحجارة التي شيد منها البرج، فقد كانت أفتح لوناً. لم يتمكن من رؤية الكتلة الحجرية سابقاً لأنها مغطاة بنباتات صغيرة.

تفحص شارلوك الكتلة الحجرية التي بدت بحجمه، وكانت محشورة في فجوة بجانب البرج، وتتلاءم بشكل محكم معها، ولم يكن هناك أي فراغ حولها، وكانت هناك حلقة معدنية معلقة بطرف الكتلة وقد بدت عليها آثار الأيام، ولم يستطع فهم سبب تواجدها.

سار حول البرج للمرة الثالثة، وتمكن من إيجاد ثلاث كتل حجرية شبيهة بالسابقة على مسافات متساوية حول محيط البرج، وبدو له وكأنها تشير إلى الاتجاهات في فرجار. وتساءل عما يعنيه هذا، غير أنه لم يكن متأكداً من الإجابة.

جلس وترك الأفكار تندفع إلى رأسه؛ وكأنها قطع صغيرة من أحجية أطفال خشبية، وأمل أن تتشكل منها صورة متناسقة، ولكن آماله خابت. أخيراً، قرر أن الحل الوحيد لإيجاد إجابات عن تساؤلاته يتمثل بتسلقه البناء البرجي، ورؤيته ما يوجد داخل الغرف، وما يوجد في أعلى البناء.

بدت أحجار البناء عارية تماماً. ولما كان الملاط الذي يجمع بين الحجارة ربيعاً جداً ومرئياً بالكاد، فقد عنى ذلك استحالة إقحامه أي شيء بين الحجارة واستخدامه كمسند لقدميه أثناء التسلق. وفكر للحظات بإمكانية حفر أثلام على الحجارة بواسطة فأس، حيث تساعد هذه الأثلام على التسلق. ولكن فكرته هذه اصطدمت بحقيقة أن عمله هذا سيكون نوعاً من تخريب الممتلكات؛ وهذا لم يكن هدفه من العملية برمتها. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن يمتلك فأساً. الحل البديل كان عودته إلى القلعة وإحضاره حبلًا؛ على أمل أن يتمكن من صنع أنشودة منه، ومن رميها عالياً بما يكفي حتى تعلق بإحدى الحافات العليا التي تشبه تاج حجر الرخ. ولكن تنفيذ هذه الفكرة كان يتطلب عودته إلى القلعة، وإيجاده حبلًا واستعارته، والعودة إلى هنا؛ الأمر الذي سيستغرق وقتاً؛ وهو يريد

استكشاف البرج الآن، وليس لاحقاً.

فكر شارلوك في أن أقرب نافذة تبعد حوالى إحدى عشرة قدماً عن الأرض، وأنه إذا تمكن من إيجاد شيء ما يساعده على الوصول إلى هذا الارتفاع فسيتمكن من استكشاف ما يوجد داخل الغرفة، وهذا ما سيعطيه فكرة عما يوجد في سائر غرف البناء البرجي.

نظر حوله، فرأى بعض أشجار الدردار. ولكن أياً منها لم تكن تمتلك أغصاناً قريبة كفاية من البناء البرجي وتتيح له استخدامها كمنصة للقفز. تجول لبعض الوقت في الأرجاء بين النباتات والأشجار، وتسلق إحدى الأشجار حتى وصل إلى مستوى النافذة الأولى. ولكن لسوء الحظ، كانت الشمس في الزاوية غير المناسبة، ولم يستطع رؤية أي شيء في الداخل. أصدر الغصن صوت صرير بسبب ثقل وزنه، فقفز عنه بسرعة خشية أن ينكسر. ولما تفحص طول الغصن، لاحظ أنه يتفرع عند نهايته إلى فرعين يبلغ طول كل منهما بضع أقدام، وأن كل واحد منهما يتفرع بدوره إلى اثنين. فجأة، انبثق مخطط كامل في ذهنه؛ فإذا تمكن من كسر هذا الغصن، وأسنده إلى البرج، فباستطاعته استخدامه كسلم!

وقبل أن تتاح الفرصة لدماغه ليقدّم له ستة عشر سبباً يثنيه عن القيام بما يفكر فيه، بدأ بالقفز على الغصن، فما كان من الغصن إلا أن بدأ يصدر صوت صرير تحت ثقل وزنه؛ إلا أنه لم ينكسر. عندها، تمسك بالغصن الذي فوقه، وقفز بقوة، فما كان من الغصن تحته إلا أن انهار. كاد شارلوك أن يسقط؛ لو لم يسرع إلى التمسك جيداً بالغصن في الأعلى. تآرجح على الغصن، وقفز إلى الأرض، وسحب الغصن المكسور نحو البناء البرجي. كان طول الغصن مع الأغصان المتفرعة منه إحدى عشرة قدماً، وقرر شارلوك وضع الجزء العريض من الغصن على الأرض للحيلولة دون انزلاقه، ووضع متفرعات الغصن على جدار البرج. بعدها، تسلق الغصن كالقرد حتى وصل رأسه إلى مستوى الفتحة المطلّة من الحائط. عندها، اندفع ناحية الإفريز، وقبض بأصابعه على الحجارة الرمادية الخشنة، بينما استند صدره على الحائط. بقي على هذه الحالة للحظات، قبل أن يرفع نفسه ناحية الإفريز.

ألقي بجسده داخل النافذ، وكانت أنفاسه مقطوعة.

كانت الغرفة دائرية، وخالية إلا من بعض كسرات الخشب، والتي لا يبدو أنها تعود لغصن مكسور، بل ربما إلى شيء يشبه الصندوق؛ ربما كانت تعود لقفص.

بالكاد كانت أشعة الشمس تدخل الغرفة. ولكن مع ذلك، تمكن شارلوك من رؤية أن إحدى البلاطات كانت داكنة أكثر من البلاطات الأخرى. وعندما تقدم منها ليتفحصها، لاحظ أنها لم تكن بلاطة، بل كانت فجوة في الأرض. مد يده إلى الأسفل، ولوح بها، فبدت له المسافة في الأسفل كبيرة. ربما كانت هذه هي الطريق إلى الغرفة في الأسفل التي كانت بمستوى سطح الأرض، والتي كانت من دون باب أو نافذة. افترض أنه يجدر به النزول ورؤية ما يوجد بالداخل، ولكنه كره القيام بذلك من دون مصباح؛ فمن الممكن أن يكسر كاحله أو ساقه إن قفز بشكل سيئ، ومن الممكن ألا يستطيع الخروج مجدداً.

خطرت بباله فكرة، فنظر إلى الأعلى؛ إلى سقف الغرفة المستديرة. كانت هناك فجوة أيضاً؛ مماثلة تماماً لتلك التي في الأرض. نظر إلى الفجوتين اللتين في الأرض والسقف، وقرر أنهما وجدتا من أجل إتاحة الفرصة لاستخدام سلم قصير للانتقال من غرفة إلى أخرى، ولهذا السبب هما متماثلتان، ويفترض بالشخص الذي يريد الصعود أو النزول حمل السلم معه من غرفة إلى الغرفة التي تليها ليستخدمه مجدداً. ظن أنه بقليل من الحظ ستقوده الفجوات إلى أعلى البرج؛ ولكن إن كان لديه سلم. ولكنه فكر بشيء آخر؛ فمن الممكن ليدين قويتين وساقين قويتين أن تفي بالغرض. قفز وتمسك بحافة الفجوة، وتأرجح بجسده قبل أن يسحب نفسه إلى الأعلى.

كانت الغرفة في الأعلى تماثل الغرفة التي كان فيها في الأسفل باستثناء شيء واحد؛ وهو أن الرؤية من النافذة كانت أعلى. وكما توقع، كانت هناك فجوة في السقف. كرر ما قام به حتى صعد من غرفة إلى أخرى خمس مرات، وأخيراً وجد نفسه على منصة مسطحة تتوج البناء. وهناك، وجد السير شادراتش كوينتلان جثة هامدة. وكانت عيناه تنظران إلى الأراضي التي تحيط بالبناء، وهو لا يزال على كرسيه المدولب، فيما الجهة الأمامية من قميصه وسترته مغطاة بدم جاف.

الفصل الثالث عشر

سأل السيد غروي: "السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف نقل من الأسفل إلى الأعلى؟".

ولكن مايكروفت عارض السيد غروي وقال: "السؤال الأهم هو: لماذا وضع هناك؟ فمعظم ضحايا جرائم القتل إما يتركون حيث قتلوا، أو تخفى جثثهم في مكان ما على أمل أن لا يعثر عليها أحد. لذا، لا بد أن للقاتل دافعاً قوياً جعله يتكبد عناء وضع الجثة في أعلى البناء. ولكن، ما هو؟".

كان ذلك بعد مضي ساعات على اكتشاف شارلوك جثة السير. بالطبع، كان أول ما قام به مباشرة هو التأكد من أنه ميت. لكن الجرح البليخ الذي يعبر رقبته وحنجرته، والدماء المتجمعة في حوضه دليل لا يرقى إليه شك في أن الرجل ميت. ثم ما لبث أن حدق في الأرجاء بحثاً عن الطريقة التي وصلت بها الجثة على الكرسي المدولب إلى أعلى البرج. ولكن لم تكن هناك طريقة. إذ لم تكن هناك حبال أو سلام أو أي آلة ميكانيكية قادرة على نقل شيء بحجم الرجل ووزنه في الهواء كل تلك المسافة. بعد ذلك، نزل شارلوك من البناء بالطريقة ذاتها التي صعد بها، وتوجه إلى القلعة ليخبر الجميع عن مقتل السير شادراتش. عاد راكضاً، وأحس بأن ذلك الوقت كان أطول فترات حياته.

لقد صدقه شقيقه والسيد غروي على الفور، ولكن إقناع فون وبينو والكونت شوفالوف وهولتزنبرك استغرق وقتاً. أخيراً، توجه الرجال الستة إلى البناء برفقة عدد من الخدم المصدومين، بالإضافة إلى كبيرة الخدم سيلمان التي كان الأسى ظاهراً عليها بوضوح. كانت نيف لا تزال في الخارج، ولم يتمكنوا من إيجادها. تسلق اثنان من أتباع السير البرج بالطريقة عينها التي فعل بها شارلوك ذلك، وأكد ما قاله شارلوك.

سأل شارلوك: "هل هذه طريقة لإخفاء الجثة؟". وتابع: "أعني أنه ما من أحد كان يتوقع أن أقوم بتسليق البرج. كما أن الجثة غير مرئية من الأسفل؛ أي من مستوى الأرض".

كرر مايكروفت ما سبق وقاله: "ولكن، لماذا سيتكبد القاتل عناء نقلها إلى هنا؟". كان يبحث عن مكان ليجلس، وظل عابساً عندما لم يجد مكاناً مناسباً. وتابع: "لماذا لم يحفر حفرة في إحدى الأيكات ويواريه فيها؟".

أجابه السيد غروي: "إنها رسالة. ربما القاتل لا يهتم إن اكتشفت الجثة أم لم تكتشف، ولكنه يريد الإشارة إلى شيء ما. أو ربما كان سيرسل

لنا لاحقاً رسالة تخبرنا عن مكان الجثة، ولكن شارلوك اكتشفها بمحض الصدفة".

كان شارلوك لا يزال ينظر إلى ارتفاع البناء وقال: "أعتقد أن الجثة نقلت عبر كل هذه الفجوات من طابق إلى آخر. ولكن، لكي يحدث هذا يفترض بالسير شادراتش أن يكون حياً وقتها، وإلا لكانت هناك آثار للدماء في كل مكان. أعتقد أنه نقل حياً وفاقداً للوعي؛ وإلا لكان قد كافح قاتله. تبقى مسألة الكرسي المدولب محيرة؛ فهو لا يمر عبر الفجوات، ولا بد من سحبه بواسطة الحبال، وهذا يفترض به أن يستغرق ساعات. ولكن السؤال الجوهرى الذي يطرح نفسه مجدداً: ما هي الغاية من وراء كل هذا؟".
عندها قال مايكروفت: "من خلال ما وصفته، ما من شك في سبب الموت؛ فالرجل قد ذبح".

أكد شارلوك على كلام شقيقه بقوله: "هذا ما رأيته".
حدق مايكروفت إلى البناء وسأل: "ما هو هذا الشيء بالتحديد؟ يبدو وكأن لا غاية عملية له".

فقال شارلوك: "إنه بناء برجى".
فعبس غروي وقال: "ماذا تعني بقولك إنه بناء برجى؟ أهو منزل؟".
شرح مايكروفت: "إنه عبارة عن زينة غير عملية لزخرفة الحدائق الكبيرة وبهرجتها". وهز رأسه متابعاً: "إنني لا أعرف سبب عدم اكتفاء الناس بتزيين حدائقهم بالتماثيل".

تقدمت سيلمان التي كانت تتحدث مع فون وبينو والكونت شوفالوف والسيد هولتزبرنك إلى حيث يقف شارلوك وقالت: "أيها السادة، إنني آسفة لهذا الحادث المفجع. في الحقيقة، إنني لا أعرف ما يجدر بي القيام به".
سألها مايكروفت: "متى شاهدت السير شادراتش آخر مرة؟".

"كان متوعكاً، فأخذت له طعام الفطور إلى غرفته. ومنذ ذلك الحين لم أره. لاحقاً صعدت إلى غرفته لأطمئن عليه، ولكنه لم يكن فيها، فظننت أن إحدى الخادمت أخرجته أو ربما نيف".

"ألم يشاهده أحد وهو يغادر القلعة؟".

أجابته: "لم يشاهده أحد على الإطلاق".

عندها، قال مايكروفت: "يجب إخبار الشرطة. ومن غير المسموح لأى كان بمغادرة المكان".

احتجت سيلمان: "ولكن الممثلين الأجانب يقولون إنهم يريدون المغادرة فوراً. وهم يطلبون منا تحضير وسيلة نقل".

أصر مايكروفت: "هذا مستحيل. كل من كان موجوداً في القلعة عندما حصلت الجريمة مشتبه به؛ سواء أعجبهم ذلك أم لم يعجبهم".

فسأل السيد غروي بسرعة: "أليست لديهم حصانة دبلوماسية؟".

أعلن مايكروفت: "اتفاقية فيينا حفظت بعض الحقوق، ولكن لمن هم في مهمات رسمية، وليس للزوار العاديين. لا أعلم وضع هؤلاء الثلاثة، ولكن هل تملك أنت يا سيد غروي أوراقاً دبلوماسية؟".

ارتعش فم السيد غروي: "هل أنا متهم؟".

رد عليه مايكروفت: "أنا أوضح الأمور فحسب، فقط الذين يمتلكون أوراقاً دبلوماسية لديهم حصانة إذا كانوا في مهمات رسمية. وحتى في هذه الحالة، يمكن لحكوماتهم أن ترفع عنهم الحصانة إذا كانوا متورطين في جرائم لا علاقة لها بالمهمات الدبلوماسية التي أرسلوا من أجلها. ولكن، في حالتنا هذه يجب أن نبلغ الشرطة، ويجب أن نبقي جميعاً هنا حتى تحضر الشرطة وتتفحص مسرح الجريمة وتستجوب الجميع".

سأل غروي: "الشرطة الإيرلندية؟ من غالوي؟ إنك لا تتحدث عن اختفاء بقرة، إنها جريمة قتل".

"وأنا متأكد من أن مدينة غالوي قد نالت نصيبها العادل من العنف". نظر مايكروفت إلى سيلمان التي كانت تقف وتستمع إلى المحادثة بصبر وقال: "أولاً، لا ترتيبات لسفر أي كان. ثانياً، أرسلني أحدهم ليطلب الشرطة؛ بالقوة إن اقتضى الأمر".

وأضاف شارلوك: "يجب إيجاد نيف، فمن حقها أن تعلم بما حدث".

أوماً مايكروفت: "سأذهب وأخفف من روع السادة، اعذروني".

سار مايكروفت باتجاه المجموعة الأخرى، فيما حرق غروي خلفه للحظات، ثم قال: "أريد أن أذهب وأتحدث مع فرجينيا. أريدها أن تسمع مني بما حصل بدل أن تعرف ذلك من الخدم، أو مما يتناهى إلى مسمعها من حوارات".

سأله شارلوك: "وماذا بشأن نيف؟".

"إذا رأيته فسوف أخبرها أيضاً. ماذا ستفعل أنت؟".

"سأهيم في المكان وأحاول التوصل إلى شيء ما".

أوماً غروي وغادر. عاد شارلوك إلى حافة المنطقة الخالية من الأشجار، حيث ينتصب البناء البرجي، وحيث وجد جذع شجرة قديماً فجلس عليه. بقي هناك لعدة ساعات، وشاهد قدوم رجال الشرطة من غالوي وتفقدتهم

الموقع بسرعة، ثم تفقدهم الجثة، ثم الكرسي المدولب الذي أنزل بواسطة الحبال من أعلى البناء البرجي. أخبر الضابط السيدة سيلمان أنه من الواضح أن الأمر يتعلق بجرمة قتل، وأنه يفترض به التحدث إلى كل الأشخاص الموجودين في القلعة. بعد ذلك، غادر الشرطي وسيلمان، وقام تابعان للسير شادراتش بنقل جثته بعد أن وضعها على الكرسي المدولب، كما لو أنه لا يزال حياً.

بقي شارلوك في مكانه لوقت طويل بعد أن غادروا، ولم يفعل شيئاً سوى التحديق بالبناء البرجي؛ غارقاً في دوامة من الأفكار. وكان قريباً من تطوير نظريته التي كانت تتمحور حول هذا البناء البرجي، وحول مكان تواجده، وكيفية تواجده في هذا المكان حين سمع صوت حركة خفيفة خلفه، فقال: "هل كل شيء على ما يرام؟ أنا أجلس هنا، ويمكنك القدوم والجلوس برفقتي إذا أردت".

خطت نيف خارج الأكمة، وكان واضحاً بجلاء أنها كانت تبكي؛ فقد كانت عيناها حمراوين والجلد أسفلهما متورماً.

قالت بهدوء ولكن بشدة وحقد: "أنت من قتله".

أجابها وهو يشعر بأنفاسه تنقطع نتيجة الصدمة التي شعر بها من جراء اتهامها: "لم أقتله. ليس لدي أي سبب يدفعني لذلك".

"لقد فضحت الحيل التي كانا يقومان بها في جلسة التحضير، ولو لم تقم بذلك، ربما كان لا يزال على قيد الحياة الآن".

أجابها بهدوء وهو يأمل أن تهدأ هي أيضاً: "في الحقيقة، ما تقولينه ليس صحيحاً. لقد استطاعا أن يستعيدا كل ما خسراه بعد فضحي لهما.

لقد أظهرت للجميع الحيل التي يقوم بها والدك وألبانو، ولكن المزايدة كانت ستجري بعد ظهر اليوم؛ بمشاركة الممثل الروسي والألماني والنمساوي -

الهنغاري. لقد عاد الوضع نسبياً إلى ما كان عليه قبلاً". توقف قليلاً قبل أن يتابع: "في الواقع، لقد مات ربما لأن المزايدة كانت ستجري. ولو أن

ممثلي الدول المحترمين سمعوا ما قلته واقتنعوا به وألغيت المزايدة، ربما ما كان والدك ليقتل".

"ربما كان يجدر بك فضح الحيلة الأخيرة المتعلقة باللوحات، وبالتالي كانت المزايدة ستلغى".

أجابها شارلوك: "أخشى أن أقول إن والدك كان أكثر ذكاء مني. وعلى كل حال، إنني أعمل على اكتشاف كيفية تنفيذ الحيلة الأخيرة".

أجابته نيف: "ولكنك تأخرت كثيراً".

أجابها بهدوء موافقاً، وهو يشعر بالأسى لأنها تلومه: "أنت محقة، لقد تأخرت كثيراً. ولكن، بالرغم من تأخري فلست أنا من قتله. لم أكن أنا من حمل السكين وذبحه وشق حنجرتة، ولست أنا من شاهده وهو ينزف حتى الموت". كانت كلماته قاسية، ولكنها ألمته وأذته باتهامها إياه، وأراد أن يرد لها الصاع صاعين.

عم الصمت لبرهة، وظن أنها غادرت، لكنها قالت في النهاية: "سألومك دائماً".

أجابها قائلاً: "أعلم ذلك. نيف، هل كنت تعلمين بشأن الحيل التي كان والدك متورطاً فيها؟ هل كنت تعلمين أن جلسات التحضير زائفة؟". وعندما لم تجبه سألهما: "هل ساعدته في إعداد تلك الخيوط من أجل تعليق المادة، أو قمت بتشغيل ضوء المسلاط؟".

لم يسمع جواباً، وحين استدار كانت قد ذهبت. سار نحو البناء البرجي، واعتقد أنه أصبح يعرف كيفية تنفيذ حيلة اللوحات، ولكنه لم يكن متأكداً. لقد تكونت لديه النظرية فكرياً، ولكن البراهين كانت تنقصه.

بدأ مع الحجارة الأربعة فاتحة اللون الموجودة عند قاعدة البناء البرجي؛ تلك الحجارة التي تمتلك حلقات معدنية. وقف بجانب أحدها - وهذا ما كان يفترض به القيام قبلاً عندما شاهدها للمرة الأولى - ونظر إلى أعلى إحدى جهات البناء البرجي. كانت هناك بقع داكنة على ارتفاع عشرين قدماً، وكانت عبارة عن فجوات في البناء، وبحجم الفجوات الموجودة عند مستوى الأرض حيث كانت الحجارة الأربعة فاتحة اللون محشورة. وكانت هناك فجوة أخرى على ارتفاع عشرين قدماً من الفجوة السابقة، سار شارلوك حول محيط البناء البرجي، ولاحظ أن الأمر عينه يتكرر على كل جهات البناء؛ فقد كانت توجد فجوة كل عشرين قدماً، وبدا له أن الفجوات تتكرر كل عشرين قدماً حتى تصل إلى أعلى البناء البرجي.

كان هناك شيء آخر يريد معرفته. اختار أحد الحجارة الفاتحة بشكل عشوائي، وسار مبتعداً عنه بعد أن جعل ظهره يواجه الحجر، فوجد أن هناك ممراً ضيقاً جداً يعبر بين النباتات النامية، وينتهي حيث تنتهي النباتات. فلمعت فكرة في رأسه؛ إذا ربط حبل بالحلقة المعدنية الموجودة عند الحجر وقام حسان أو حمار بسحب الطرف الآخر من الحبل فباستطاعته تحريك الحجر وسحبه، وإذا سحبت الحجارة الأربعة...

الآن، أصبح لديه ما يكفي من الأدلة والبراهين. ولكن، إذا كان عليه

إقناع مايكروفت والسيد غروي، فعليه أم ييني نموذجاً لكي يشرح نظريته؛
فالكلمات لا تكفي لإقناعهما.

قبل أن يتوجه إلى القلعة، عاد إلى البناء البرجي، وقام بالبحث حول
قاعدته، وبسرعة عثر عما كان يبحث عنه؛ كسرة أو شظية من الحجر
الداكن الذي بني منه البناء البرجي بحد ذاته. كانت هذه الحجارة
كالخربال؛ أي كثيرة الثقوب مما يسمح للهواء بعبورها، وكانت خفيفة بشكل
لا يصدق. أخذ شارلوك كسرة الحجارة ووضعها في جيبه عله يحتاج إليها
في وقت لاحق.

عاد شارلوك إلى القلعة، وكان ضابط الشرطة يجري مقابلات مع الخدم
في قاعة الاستقبال. كان من الواضح أنه أنهى مقابلاته مع الممثلين الأجانب
رفيعي المقام قبلاً. لاحظ شارلوك وجود جرس على جانب الطاولة في القاعة
الرئيسية فقام بقرعه، وانتظر. بعد دقائق عدة ظهرت سيلمان، وبدت كالحة
الوجه ونكدة أكثر من المعتاد. لقد بدا واضحاً مقدار الصدمة التي تعرضت
لها بقتل السير شادراتش.

سألته بنعومة: "ماذا تريد يا سيدي؟".

أجابها: "أريد وعاءً كبيراً مليئاً بالماء، وعدة أوراق، وإبريق ماء أيضاً،
ومقصاً". توقف مفكراً وتابع: "بالإضافة إلى أربعة سكاكين، وبعض الدبايس،
وبعض الشمع الأحمر، وشمعة مضاءة".

رفعت حاجبها مستغربة ولكنها قالت: "حاضر سيدي".

"هل يمكنك من فضلك أن ترسلي هذه الأغراض إلى غرفة الطعام
حيث سأكون؟".

"بالنظر إلى الظروف الراهنة، لقد وضعت بعض الأطعمة الباردة
المتنوعة على طاولة غرفة الطعام؛ كي يتمكن الموجودون من تناول الطعام
ساعة يشاءون، وبالتالي الطاولة ممتلئة عن بكرة أبيها".

"حسناً، هل يمكنك تزويدي بما طلبته في المكتبة؟". ولكنه تذكر فجأة
أنه لم يتناول الطعام بعد، فقال لها: "كما أرجو أن تحضر لي إحدى
الخدمات معها طبقاً من اللحم البارد".

"حاضر سيدي".

توجه شارلوك إلى المكتبة وهو يشعر بالإثارة. وبينما كان ينتظر
الأغراض والطعام تفحص رفوف الكتب حيث وضعت كتب الجغرافيا
والجيولوجيا، وسرعان ما وجد ما كان يبحث عنه.

عندما وصل الطعام والأغراض التي طلبها بدأ العمل مباشرة. في

البداية، وضع الوعاء على الطاولة، وقص غطاء دائرياً من الورق، وكان قطره أكبر بقليل من قطر الوعاء، وأحدث فجوة في وسط الدائرة. بعد ذلك، صنع أنبوباً من إحدى الأوراق وثبته بالدبابيس، وأعد قاعدة دائرية للأنبوب، وكانت القاعدة أصغر من الغطاء الذي أعده للوعاء، ولكنها كانت أوسع من الأنبوب، وقام بتثبيت الأنبوب بقاعدته بواسطة الشمع الأحمر المذاب.

نظر شارلوك إلى المجسم الذي بناه بعين ناقدة، وأيقن أنه يفترض به القيام ببعض التعديلات على الأنبوب، واستخدم السكاكين من أجل قص فجوات تماثل النوافذ في البناء البرجي. وعندما انتهى، أحدث أربعة شقوق في الأنبوب، وكانت تبعد المسافة نفسها عن بعضها، وبعدها قام بإحداث شقوق شاقولية فوق كل شق؛ حيث تفصل بينها بضعة إنشات.

الآن، أصبح شبه جاهز، فالتقط بعض اللحم من الطبق وحشا به فمه، وتابع العمل وهو يمزج الطعام.

بعد ذلك، مرر الأنبوب عبر الفجوة التي أحدثها في الغطاء الدائري للوعاء، حيث تكون قاعدة الأنبوب التي ألصقها بالشمع المذاب أسفل الغطاء، وكان قطر الأنبوب أقل بقليل من قطر الفجوة الموجودة في الغطاء الدائري للوعاء؛ لذا عبر الأنبوب الفجوة بسهولة، وكانت حركته سهلة صعوداً وهبوطاً. ولأنه لم يكن يرغب بأن تتشرب قاعدة الأنبوب الماء قام بإذابة بعض الشمع ومدّه على القاعدة كي يعزلها.

الآن، أصبح كل شيء جاهزاً، فوضع الأنبوب في الوعاء، ووضع غطاء الوعاء الدائري؛ حيث عبر الأنبوب فتحة الغطاء، وكانت قاعدة الأنبوب المعزولة بالشمع عند سطح الماء، وقام بإدخال السكاكين الأربعة في أعلى الغطاء الدائري عبر الشقوق التي أحدثها سابقاً في الأنبوب.

خطا إلى الخلف متفحصاً عمله، ولاحظ أنه نسي شيئاً. لا بد له من إيجاد مجرى للماء إلى داخل الوعاء، حينها سحب إحدى السكاكين، وبتأنٍ أحدث ثقباً في الغطاء الدائري للوعاء.

الآن، أصبح جاهزاً للعرض الكبير. لم يكن يرغب بهدر أي ثانية، لذا أسرع إلى القاعة. ولحسن حظه، كان مايكروفت والسيد غروي يقفان عند باب القاعة وهما ينظران إلى ضابط الشرطة. عندها التفت مايكروفت ناحية شقيقه وقال له:

"ما الأمر؟ تبدو كالولد الذي عثر على ضفدع في حديقة منزله وجلبه ليريه لأمه".

حينها أعلن شارلوك: "إنني أعلم كيف نفذت خدعة اللوحة، اتبعاني

لأشرح وأبرهن الأمر لكما".

تبعاه إلى المكتبة، ولما وصلا ألقى مايكروفت نظرة على المجسم الورقي وقال: "أنت محق، كم كنا عمياناً؟".

حدق غروي إلى مايكروفت، ثم إلى شارلوك، ثم أعاد نظره إلى صديقه وقال: "هل يمكن لأحدكما أن يوضح الأمر لي؟".

أوماً شارلوك بيده ناحية المجسم وقال: "هذا هو البناء البرجي الموجود في الخارج؛ حيث وُجد السير مقتولاً".
"حسناً، يمكنني رؤية ذلك".

"إن البناء البرجي مبني من حجارة غير عادية".

وافقه غروي الرأي: "لقد توقعت هذا، فهي داكنة جداً، وكثيرة المسام".

"في الواقع، تدعى هذه الحجارة الخفاف. وهي تتكون من الحمم البركانية الباردة". عندها، أخرج الكسرة أو الشظية الحجرية التي جلبها من محيط البناء البرجي من جيبه وقدمها لهما ليتفحصاها.

حينها قال غروي: "ليس هناك الكثير من البراكين في إيرلندا".

"صحيح. لقد جلبت الحجارة من مكان ما، ولكن المهم في هذا النوع من الحجارة هو أنها أقل كثافة من الماء، وهذا يعني أنها تستطيع أن تطفو على سطح الماء".

"أظن أنني بدأت أفهم ما ترمي إليه من حديثك".

تابع شارلوك: "لقد بني البناء البرجي من حجارة الخفاف التي جلبت إلى هنا من أحد المواقع البركانية، وحفرت على شكل حجارة مقعرة. ولكن هذا البناء لا ينتهي عند سطح الأرض، بل يتابع طريقه إلى باطن الأرض. لقد علمت بذلك عندما كنت أتجول في الأنفاق في أسفل القلعة، فقد وجدت حائطاً يعترض طريقي، ولم أجد حينها سبباً لوجوده في مكانه، وظننته حائطاً بني لسد الطريق في النفق، ولكنه في الواقع كان تنمة تحت أرضية للبناء البرجي. في الأسفل، هنالك العديد من الكهوف والمغاور التي تصل البحر بالأنفاق، فسفح الجرف مليء بالكهوف، وفي مكان ما في الأسفل حيث ينتهي البناء البرجي هناك حائط مشيد من حجارة الخفاف. عندما تكون هناك حركة مد لمياه البحر، تعبر المياه الكهوف وتصل إلى الأنفاق. وعندما تكون قاعدة البناء مستندة على الماء، وعندما تكون حركة مياه البحر في حالة جزر تكون قاعدة البناء مستندة على الأرض".

حينها تنفس غروي بعمق وقال: "وعندما تكون قاعدة البناء المصنوع

من حجارة الخفاف التي تعتبر أقل كثافة من الماء مستندة إلى مياه البحر فإن البناء البرجي يطفو ويبدأ بالارتفاع، أليس كذلك؟".

"بالضبط". حينها، حمل شارلوك الإبريق، وأخذ يسكب الماء في الوعاء عبر المجرى الذي استحدثه في الغطاء. ولما بدأ منسوب المياه يرتفع في الوعاء، دفع معه قاعدة الأنبوب المغطاة بالشمع، وعندها أخذ الأنبوب بالارتفاع شيئاً فشيئاً. وقال شارلوك: "ما لم أكن أفهمه هو سبب رؤيتي البناء البرجي في بعض الأحيان وعدم رؤيتي إياه في أحيان أخرى. في البداية، ظننت أنني كنت أنظر من مكان لا يتيح لي رؤية البناء، ولكن الجواب الصحيح كان أن البرج في بعض الأحيان يبدو أطول مما يبدو عليه في أحيان أخرى".

هز غروي رأسه: "ولكن، ألم يكن يجدر بنا رصده وهو يصبح أكثر طولاً؟ فقد كنا بالقرب منه لساعات، ولم نشاهد مثل هذا الأمر".

أجابه مايكروفت: "بسبب وجود مراسٍ تحول دون ذلك. أره ذلك يا شارلوك، فأنا أفترض أنك أحضرت السكاكين لأجل هذا الأمر".

أوماً شارلوك وأوقف سكب الماء في الوعاء. وعندما ظهرت الشقوق التي أحدثها على جدار الأنبوب فوق مستوى الغطاء الدائري الذي صنعه للوعاء، وضع الإبريق جانباً، وأدخل السكاكين في الشقوق في الوقت عينه.

ثم حمل الإبريق مجدداً وأخذ يسكب الماء في المجرى مجدداً، إلا أن السكاكين لعبت دور المراسي التي حالت دون ارتفاع الأنبوب.

عندها، قال شارلوك: "هنالك أربع قطع حجرية ضخمة موجودة عند قاعدة البناء البرجي. عندما رأيتها في البداية استغربت سبب وجودها، ولكن تبين لي لاحقاً أنها بمثابة أوتاد تستخدم لتثبيت البناء في مكانه عندما يصل إلى الارتفاع المرغوب فيه".

كان مايكروفت مقطب الحاجبين عندما قال: "إنني أفترض أن هذا الأمر يحدث فقط عندما يكون مستوى الماء عند نقطة معينة، ولكن عندما تتراجع المياه يمكن للبرج أن يهبط شاقولياً عدة أقدام، وأمر كهذا من الممكن أن يكون كارثياً".

أجابه شارلوك: "إنني متأكد أن هناك كتاباً كاملاً يضم بين دفتيه كل الإرشادات والتعليمات حول كيفية رفع البناء البرجي وإنزاله، ولكنني لا أزال أبحث عنه".

"إنني أفترض أن هذا ما كان المهربون يقومون به". قال السيد غروي: "فهذه المنطقة من الشريط الساحلي كانت مشهورة بأنها مرتع للمهربين

لسنين خلت، وقد زودهم هذا البناء بمكان مثالي لإخفاء بضائعهم المهربة. فقد كانوا يضعونها في غرف البناء، وينتظرون حركة المد والجزر ثم يثبتون البناء عند المستوى الذي يرغبون به، ويقومون بعمليات التهريب".

أشار شارلوك إلى نموذج الورقي وقال: "وهذا يفسر كيف حدثت خدعة اللوحات، فعندما نظرنا جميعاً خارج نافذة الغرفة، كان البناء البرجي في أدنى مستوى له، فقد كان مخفياً خلف الأشجار والشجيرات. ولكن بعد الجولة التي قمتم بها إلى السطح، ثم مغادرتكم القلعة، رفعت المراسي، وسمح للبناء بالارتفاع إلى أعلى مستوى. ولأنكم جميعاً كنتم تراقبون السطح والنافذة فلم تلاحظوا ارتفاع البناء البرجي لأنه كان خارج نطاق نظركم. وأنا أعتقد أن أحد تابعي السير كان في البناء البرجي، وكان مزوداً بمنظار استطاع من خلاله رؤية الغرفة وما بداخلها، ورؤية اللوحة التي علقتها والاتجاه الذي علقتها فيه، وقام بنقل الرسالة إلى ألبانو عندما كان يحدق بعيداً مدعياً أنه يتواصل".

عندها، هز السيد غروي رأسه وقال: "إنه مخطط معقد جداً".

فأجابه شارلوك: "الخدع معقدة دائماً، لقد تعلمت هذا من السيد ألبانو، فقد أخبرني أنه لكي تنجح الخدعة لا بد من استخدام التوجيه الخاطئ للمشاهدين لتشتيت انتباههم. في حالتنا هذه، أعتقد أن الهدف من المسحوق الأزرق كان تشتيت انتباهنا".

بدا التجهم على وجه مايكروفت عندما قال: "وكيف تفسر لنا مقتل السير شادراتش؟".

أجابه شارلوك: "ليست لدي أي فكرة عن من قتله أو عن سبب قتله. ولكنني أعلم كيف. فالبناء تم إخفاؤه إلى أدنى مستوى له عندما كانت مياه البحر في حالة جزر، وكان سطح البناء البرجي عندها بموازاة سطح الأرض. قتل السير وهو جالس على كرسيه على سطح البناء، وعندما حصل المد، حُرر البناء من الدعائم أو المراسي الحجرية التي تثبته في مكانه، فارتفع البرج إلى أعلى نقطة يمكنه أن يصل إليها، وعندها أعيدت المراسي الحجرية إلى مكانها وثبَّت البناء".

عندها قال غروي: "هناك خلل في الحجج التي قدمتها. في الحقيقة، إنني أشك في أن مستوى المد والجزر في المنطقة التي تحيط بالقلعة يصل إلى مستويات قادرة على رفع البناء البرجي. هل يمكنك أن تفسر وتشرح نظريتك؟".

"أعتقد أنه يجدر بي تسليط الضوء على أمرين. أولهما أن هناك

احتمالاً بأن مياه البحر خلال المد تمر عبر صدوع وأنفاق صغيرة في الجرف الصخري، مما يشكل ضغطاً عالياً شبيهاً بالضغط الهيدروليكي؛ وبالتالي يرفع البرج. عندما وصلت وشقيقي إلى القلعة، أخبرنا السير شادراتش أن المصعد يعمل بواسطة الضغط الهيدروليكي الذي تسببه حركة المد والجزر. وأظن أن رفع البناء البرجي يتم بالطريقة ذاتها، ولكن على نطاق أوسع. لو أنك استكشفت البناء البرجي كما فعلت أنا، فرمأ أعطاك ذلك فكرة بأنه شبيه إلى حدٍّ ما بالمصعد".

"وما هو الأمر الثاني الذي يفترض بك تسليط الضوء عليه؟".

"في الحقيقة، لا أعتقد أن المهربين كانوا يريدون تقييد حريتهم بالعمل، وربط رفع البناء البرجي بحركة المد والجزر. إنني أعتقد أنه كان لديهم نوع من نظام السدود يُمكنهم من حصر مياه البحر والحيلولة دون بلوغها قاعدة البرج، وكان بإمكانهم تحرير المياه من خلف السدود؛ حيث يرتفع البناء فجأة أو بالأحرى ساعة يشاءون".

صفق مايكروفت وقال: "تفكير أسر، ولا يرقى إليه مجال للشك. إلا أنك لم تعطنا حلاً لمعضلة كيفية قتل السير شادراتش".

قال غروي وقد بدت الجدية على وجهه: "أيفترض بنا حل معضلة القتل؟ لقد وضعت الشرطة يدها على الموضوع، وقد انتهى دورنا بمجرد توقف المزايمة".

قال شارلوك ببساطة: "كلا، لا يمكننا المغادرة قبل إيجاد القاتل".

"لماذا؟".

"لقد قتل السير شادراتش لأننا جميعاً هنا؛ فمقتله مرتبط بالمزايمة. صحيح أننا لم نتسبب بموته بشكل مباشر، ولكن لو لم نكن هنا فلربما كان لا يزال على قيد الحياة الآن. إنني أظن أنه تترتب علينا جميعاً مسؤولية معنوية، ويجب علينا البحث عن القاتل وجلبه أو جلبها لتنال عقابها العادل".

عم الصمت أرجاء الغرفة للحظات.

عندها قال مايكروفت بحزن: "إنني أعرف معنى التعبير الذي يعلو وجهه. إنه يعني أنه ما من أحد سيغادر المكان قبل إيجاد القاتل". ونظر إلى ساعته وتابع قائلاً: "أيها السادة، أعتقد أن الأوان قد آن لتصرف بفعالية، اتبعاني".

تحرك باتجاه باب المكتبة، وتبادل كل من شارلوك وغروي النظرات ثم تبعاه.

سار مايكروفت أمامهما عبر القاعة الرئيسة باتجاه الباب الرئيس، كانت سيلمان في القاعة، وتحركت لتعترض طريقه.

"بناء على طلبك يا سيد هولمز، كل الممثلين لا يزالون هنا. إنني أعتقد أنه يجدر بك البقاء هنا أنت أيضاً".

خاطبها مايكروفت بصوت يشبه دوي الرعد: "ولكن الشرطة لم تستجوب شقيقي، فقد كان خارج القلعة طيلة الصباح، وعندما عاد، كان الضابط قد غادر. سوف آخذ شقيقي إلى غالاوي الآن، وسيكون إحضارك عربية لنا بغاية اللطف. لقد عرض السيد غروي مرافقتنا؛ ما لم يعترض أحد ما خشية أن نغادر مباشرة إلى محطة القطار بدل أن نقصد مركز الشرطة".

بدأت سيلمان متشككة، أما غروي فابتسم مطمئناً وقال: "يجب علينا جميعاً أن نبقى هنا حتى تنتهي التحقيقات. في الحقيقة، ليس لدي أي سبب يجعلني لا أصدق السيد؛ إن شقيق السيد هولمز سيعود كما قال. ولكن، في بلادي هناك قول قديم مأثور يقول: آمن دائماً بالله، ولكن اربط حصانك دائماً. أظن أنك تعلمين وتثقين بأبني سأعود؛ لأنني سأترك ابنتي هنا".

أومأت سيلمان: "لك جزيل الشكر يا سيد غروي، سأجري الترتيب بشأن العربية فوراً".

ما إن ابتعدت سيلمان وأصبحت خارج نطاق السمع حتى سأل غروي: "إلى أين نحن ذاهبون؟".

أجابته مايكروفت بوجه لا يمكن فهم شيء من التعابير التي تعلوه: "كما قلت سابقاً، إننا ذاهبون إلى غالاوي".

جُهزت العربية في غضون عشر دقائق، وكانت عربية رباعية العجلات يجرها حصان واحد. وما إن صعد الرجال الثلاثة إلى متنها، حتى اتجهت العربية ناحية المدخل الرئيس للقلعة. وعندما رأى شارلوك العربية تبتعد عن القلعة أحس بمزيج من الأحاسيس. لقد أحس بأنه يغادر منزله؛ بالرغم من أنه كان ضيفاً في القلعة، ولم تتجاوز إقامته فيها أياماً معدودة.

قعقت العربية في طريقها نزولاً عبر التلال؛ عبر الطرقات الوعرة. وما إن صارت العربية بالقرب من الفندق الذي نزل فيه الأخوان هولمز بعد عودة شارلوك من رحلته على متن غلوريا سكوت، حتى ضرب مايكروفت على سقف العربية طالباً من الحوذي الإبطاء والتوقف، وخاطبه قائلاً: "أعتقد أننا سنغيب لأقل من ساعة في الداخل، يمكنك المغادرة إن أردت وأخذ

قسط من الراحة، شرط أن تعود قبل مضي ساعة".
عندها، توجه الرجال الثلاثة إلى الفندق.
تمتم السيد غروي قائلاً: "إنني لا أزال غير متأكد مما نفعله هنا".
أجابه مايكروفت بشكل مبهم: "إننا نسعى وراء الدعم".
ألقى شارلوك نظرة في الأنحاء، محاولاً أن يخمن نوع الدعم، ولم تمضِ
سوى ثوانٍ حتى بدا واضحاً له ما قصده شقيقه بالدعم، ومن سيزودهم
به. وفجأة، أحس بأن قلبه على وشك التوقف من شدة الفرح.
فقد كان صديقه ماتي أرنت ورافس ستون يجلسان على كرسيين في
بهو الفندق.

الفصل الرابع عشر

صاح ماتي عبر فناء الفندق قائلاً: "شارلوك". فاستدارت الرؤوس لتتبين حقيقة الأمر. أسرع الخطى، وانزلق قبل أن يتوقف أمام صديقه، وبدا عليه أنه لا يعرف ما يجب عليه فعله؛ أیحتضنه أم یصافحه؟ وفي النهاية، استقر رأیه على أن یربت بشدة على كتفه وقال: "لم أكن متأكداً من أنك ستعود يوماً".

وافقته شارلوك الرأي وهو یتسم بسرور: "مرت أوقات لم أكن أنا أيضاً واثقاً فیها من عودتی".
"كم مر من الوقت وأنت بعيد؟".
"لا أعلم".

"ألم تكن لديك رزنامة، أو ساعة؟ لقد تساقط الثلج في الفترة التي فصلت بين ذاهبك وقدمك، لذا أعتقد أنك سافرت لمدة سنة تقريباً".
أجابه شارلوك متأسفاً وهو يرثي لحاله: "أظن أنني بقيت في الخارج لسنة ونيف".

حينها بدت الجدية على وجه ماتي وقال: "لقد مات ألبرت، لقد توقف عن الخبو ذات يوم وسقط أمامي صريعاً".
"لقد أخبرتي فرجينيا بذلك في رسالتها إلي".
"لقد اشتريت حصاناً جديداً اسمه هارولد".

عندها، وضع مايكروفت يديه على كتفيهما وقال: "بالرغم من حميمية اللقاء، إلا أن هناك أموراً مهمة يفترض بنا مناقشتها، فلنجلس ونتكلم".

كان رافس ستون واقفاً عندما اقترب منه شارلوك والآخرين، فأومأ لمايكروفت والسيد أميوس غروي، ولكنه صافح شارلوك بمودة.

"جيدٌ أنني أراك مجدداً. كنت أظن أنك ستستقر في الصين، وتتعلم العزف على واحدة من تلك الآلات الموسيقية الوترية التافهة التي يمكنك أن تراها عند الواجهة البحرية في ليمهاوس".

أجابه شارلوك: "إنه أمر مغرٍ، ولكن العزف على الكمان صعب بما يكفي. لقد تمرنت عليه طيلة الوقت".

فقال ستون مبتسماً: "يفترض على الدوام تواجد عازف كمان واحد على الأقل بين العاملين على متن السفينة، ولكن المشكلة أنه نادراً ما يتدرب العاملون على السفن على العزف؛ فهم مشغولون دائماً بالأسماك وحراشفها، ولا وقت لديهم للآلات الموسيقية والسلام الموسيقية" [3].

أجفل شارلوك من الدعابة وقال: "إنه أمر جيد أنني عدت".
أوما مايكروفت بيده للجميع كي يجلسوا، وقال مخاطباً شقيقه والسيد
غروي: "ما من شك في أنكما تفاجأتما من وجود هذين التافهين هنا".
فرد عليه شارلوك وهو يهز كتفيه: "لقد أرسلت بطلبهما بواسطة
التلغراف؛ الأمر واضح".

فقال مايكروفت عابساً: "لم تفك شيفرة التلغراف، أليس كذلك؟".
"كلا، لم أفكها. ولكنك طلبت مني إرسالها بشكل طارئ بعد تعرضك
للاعتداء، وبما أنهما هنا فالأمر واضح جداً".

قال مايكروفت من دون أن يبدو عليه الغضب: "في الواقع، كنت
أعلم أنني قادم إلى غالواي، وأعلم أنني قد ألتقيك، وأنا قد نحتاج إلى
مساعدة. لذلك اتخذت الإجراءات المناسبة، وأخبرت رافس ستون. ولكني لم
أطلب منه على وجه الخصوص أن يحضر ماتي معه، غير أنني لم أستبعد
قدومه".

عندها، قال راف ستون: "كنا في ليفربول ومنتظر توجيهاتك. وفي
اللحظة التي استلمنا فيها التلغراف توجهنا مباشرة إلى إيرلندا".
عندها قال شارلوك: "ولكنني أرسلت التلغراف إلى لندن!". وصمت
قليلاً مستغرباً قبل أن يتابع: "بالطبع، قام أحدهم بإعادة إرسال التلغراف
لكما".

"في الحقيقة، يفترض بالمرء أن لا يبوح بكل شيء. الآن، أريد أن
أوجز لكما الأحداث الحالية".

وببلاغة، قام مايكروفت بإيجاز كل ما حصل بينما كانوا يشربون
الشاي ويأكلون الساندويشات والكعك الذي أحضر لهم.
وبينما كان مايكروفت يتكلم، همس ماتي في أذن شارلوك قائلاً: "تبدو
أطول مما كنت عليه قبل سفرك". فأجابه شارلوك: "وأنت تبدو أنحف
وأصغر سنّاً".

"إن ما تقوله لا يقدم ولا يؤخر شيئاً. فالناس لا يمكنهم أن يعودوا
صغاراً بعد أن يكبروا؛ وهذا ما يسمونه النمو".

"كنت أمازحك". صمت شارلوك هنيهة قبل أن يتابع: "تبدو سميناً
عند خصرك. يبدو أن الكثير من الفطائر قد سرقت من أكشاك السوق".

شرح ماتي وهو يتنشق: "هناك امرأة تدير مخبزاً، وقد كانت في غاية
اللطافة معي، ويمكنك القول إنها تبنتني في موضوع الطعام، وكانت تحشوني
بالطعام على الدوام؛ حتى لو لم أكن جائعاً". توقف عن الكلام قليلاً وقد

ارتسمت الحيرة على وجهه، ثم تابع: "وكما تعلم، لم يسبق لي أن رفضت طعاماً يعرض عليّ، إنه شعور غريب".
حينها قال له شارلوك: "إن هذا الشعور الغريب الذي تعايشت معه يدعى الشراهة".

حملق مايكروفت ناحية شارلوك وماتي وقال: "إذاً، لدينا لغز، ونحن بحاجة إلى إيجاد حل له. ويتمثل اللغز في معرفة من قتل السير شادراتش كوينتلان؟ ولماذا قتله؟".

في تلك الأثناء، تناول ستون سندويشاً وقال: "من خلال ما عرضته، هناك ثلاث مجموعات مختلفة من الأوغاد يمكن أن تكون متورطة؛ المجموعة الأولى تتمثل في مساعدي السير شادراتش والسيد ألبانو من العاملين في القلعة، ومن المحتمل أن تكون نيف واحدة منهم؛ أولئك الذين تورطوا في خدع السيد ألبانو، والذين سيجنون عوائد كبيرة من المزايدة على خدماته، كما شاركوا في عملية الاختطاف الزائفة التي كانت تهدف إلى إظهار ألبانو بمظهر الشخص المهم".

أجابه مايكروفت: "إنني أوافقك الرأي، وهذا الأمر واضح بجلاء".
"أما المجموعة الثانية فتتمثل بالشخص الذي اعتدى عليك، والذي نفترض أنه مساعد الكونت شوفالوف، والذي كان يعمل من تلقاء ذاته متخبطاً صلاحياته".

فردّ عليه مايكروفت: "ما تقوله واضح أيضاً".
"أما المجموعة الثالثة، فتتمثل بالشخص أو الأشخاص الغامضين الذين يسعون إلى تخريب عملية المزايدة برمتها. وقد تم له أو لهم ما أرادوه عندما قتلوا السير شادراتش كوينتلان".

عبس شارلوك وسأل: "كيف بإمكانك التأكد من أنه أو أنهم يريدون تخريب عملية المزايدة؟ فالعملية برمتها كانت عبارة عن سلسلة من الخدع".

"ولكن من خلال ما صرح به شقيقك، أثناء عملية إقامة الدليل على قدرات السيد ألبانو بخصوص اللوحات، لم يكن أحد سوى الأشخاص الخمسة الموجودين هنا يعلمون أنها غير صحيحة. وبالتالي، يمكننا استبعاد أن يكون أي من الممثلين الآخرين من قتل السير؛ لأنهم بكل وضوح كانوا يعتقدون أن قدرات السيد ألبانو حقيقية، ويريدون أن تتم المزايدة؛ عليهم يحظون بخدماته، وبالتالي ليست لديهم أي مصلحة بإفساد العملية".

دمدم السيد غروي قائلاً: "إنه محقّ؛ هناك طرف ثالث، ونحن لا

نعرف من هو".

هنا قال شارلوك: "ولكننا نعرف بعض الأشياء عنه. فنحن نعلم أنه شخص يثق بقدرات السيد ألبانو، كما نعرف أنه لا يريد لأي واحدة من الأمم الكبرى أن تحظى بهذه القدرات، كما نعلم أنه يريد الاستئثار بها لنفسه".

سأله ماتي الذي كان يتابع المحادثة باهتمام بالغ: "ولكن، كيف توصلت إلى ما قلته؟".

"لأنه قتل السير وترك ألبانو على قيد الحياة. فلو أراد القاتل أن يحول دون تمكن أي من الدول الكبرى من استخدام قدرات السيد ألبانو لكان قد قتل ألبانو بدلاً من السير".

أوما ماتي، وعبس مفكراً وقال: "إذاً، لماذا لم يحمي ألبانو؟ لو كان الأمر بيدي، لكنت قد فعلت ذلك في أول فرصة تتاح لي".

قام مايكروفت بتوضيح الأمر: "لم يكن باستطاعته خطفه سابقاً؛ لأن صديقك شارلوك فضح حيله خلال الجلسة الثانية، وربما كان يفكر بالمغادرة معتقداً أن الممثلين سيفعلون الشيء نفسه، ولكن عودة السيد ألبانو الموفقة - من خلال اجتراحه أعجوبة اللوحات - وضعت الجميع في موقف المتيقظ. نحن الآن بحاجة إلى ترتيب شيء ما يتيح كشفه، كما لا يفترض بنا إعطاؤه الوقت الكافي للقيام بأي شيء أكثر من عمل بدائي يسهل كشفه".

أضاف شارلوك: "ونحن نعلم الآن أن هناك عميلاً له داخل القلعة، يفترض أنه يقوم بتقصي المعلومات عن تطور المفاوضات، وسيسعى لاختطاف السيد ألبانو من دون أن يلاحظ ذلك أحد".

أوما مايكروفت: "يمكننا تزويد العميل بمعلومات خاطئة كي نجبره على فضح نفسه؛ فقط من خلال مناقشة علنية في القلعة".

قال غروي: "إنني أرى أن ذلك من الممكن أن يحدث بجعله يظن أن هناك اتفاقاً يجري مع ألبانو لكي يأخذه أحد الممثلين. ربما سيساهم هذا الأمر في تسريع عملية كشفه عن نفسه".

عبس شارلوك وسأل: "ولكن، أين ألبانو؟ فأنا لم أراه منذ مساء البارحة".

أجابه مايكروفت قائلاً: "إنه في غرفته، ويغلق الباب على نفسه. وهو مصاب بالهلع ويخشى أن يكون الضحية التالية. حتى إن رجال الشرطة استجوبوه وهو يقبع خلف الباب الموصل. يمكننا الافتراض أنه سيبقى حيث هو". ثم جال بنظره على المجموعة وقال: "إنني أقترح التالي: أولاً، أن يعود

شارلوك والسيد غروي وأنا إلى القلعة. ثانياً، سأقوم بإقناع السيد ألبانو بأن يهدئ من روعه ويلتزم غرفته. ثالثاً، سيقوم السيد غروي بإحداث صخب كبير من خلال إعلانه أنه تلقى أوامر من رئيس بلاده تقضي بإنجاز الاتفاق مع السيد ألبانو، وسيعلم الجميع أن السيد ألبانو سيغادر معه في غضون ساعة. رابعاً، سيقوم ماتي والسيد ستون باستئجار عربة وأحصنة وسيقصدان القلعة في وقت متأخر من بعد الظهر. خامساً، سأقوم والسيد ستون بتحديد المكان الذي ستعرض له العربة في طريق عودتها إلى غالاوي للهجوم. سادساً، سينتظرنا السيد ستون وماتي في المكان المحدد مع بعض المحليين الذين سيستأجرهم السيد ستون. سابعاً، -".

قاطع شارلوك قائلاً: "أظن أننا فهمنا الخطة. ولكن، كيف سنتمكن من جعل الأمر يبدو وكأن السيد غروي سيغادر مع السيد ألبانو إذا استمر السيد ألبانو بالتحصن خلف باب غرفته؟".

أجابه مايكروفت: "إنه سؤال مهم جداً". والتفت ناحية السيد ستون وسأله: "هل أحضرت الأشياء التي طلبتها منك؟".

أجابه ستون: "نعم". ورفع حقيبة كانت بجانب كرسيه. "مستحضرات تجميل تستخدم في المسارح، وشعر مستعار، وكل الأشياء التي يمكن أن تستخدم لجعل شخص ما يبدو شبيهاً بآخر".

نظر مايكروفت إلى شقيقه وخاطبه قائلاً: "أنت تملك البنية الجسدية الأكثر قرباً للسيد ألبانو، كما أنك نحيف مثله، وستجعلك بعض مستحضرات التجميل تبدو شاحباً، وبوضع الشعر المستعار ستكون بديلاً مقبولاً له؛ وذلك إن أخذنا بعين الاعتبار أن الشخص الغامض سينظر إليك من مسافة بعيدة نسبياً".

تأرجح السيد غروي على مقعده قلقاً: "لقد حضّرت لكل شيء، ولكنك أغفلت أمر العين الكريستالية. فهذه من الصعب تدبر أمرها، وربما ستكون سبباً في فشل العملية برمتها".

فكر مايكروفت قليلاً ثم قال: "ربما ستفي رقعة لتغطية العين بالغرض، وإلا يفترض بشارلوك أن يبقى رأسه منخفضاً".

أعلن شارلوك قائلاً: "اترك لي تدبر أمر هذا الموضوع. أظن أنني أستطيع أن أبلّي فيه بلاءً حسناً".

عندها، ألقى مايكروفت نظرة على كامل أفراد المجموعة، والتقت عيناه عيني كل فرد فيها وسأل: "هل كل واحد منكم يعرف المهمة الموكلة إليه؟ هل الجميع مطمئنون إلى أن كل الخطوات يمكن أن تتم؟ أو

بكلمات أخرى، هل كل شخص واثق من قدرته على تنفيذ المهمة الموكلة إليه؟".

قال راف ستون: "لدي سؤال، عندما سأخرج مع الرجال المحليين الذين سأستخدمهم من مخبئنا ونوقف عملية الخطف، ماذا سيكون الهدف الذي نسعى إليه؟ فأنا أشك في قدرتنا على إيقافهم، ولا أريد أن تزهق روح أي كان في شجار مع مجرمين يائسين".

أجابه مايكروفت: "إنني أريد أن أعرف المسؤول عن إعطاء الأوامر. إن كان معروفاً فألقي القبض عليه، ودع الآخرين يهربون. وإذا لم تتمكن من معرفة المسؤول، ألقِ القبض على أي كان، وسوف نقوم باستجوابه لاحقاً، وسيقوم بإرشادنا إلى المسؤول أو الرأس المدبر". بعد ذلك، ألقى مايكروفت نظرة على الجميع وسأل: "هل الأمور واضحة؟". فأوماً الجميع.

"جيد جداً، دعونا نبدأ. إنني لا أريد أن أخبركم كم الأمر مهم، وكم هو خطير".

همهم ماتي: "لم يخبرني أحد بأن هذه الرحلة ستكون خطيرة، وقد أصبح الوقت متأخراً لكي أعود إلى البيت".

في الخارج، كانت العربة تنتظر لكي تقل الأخوين هولمز والسيد غروي إلى القلعة. في تلك الأثناء، لاحظ شارلوك ماتي والسيد ستون وهما يتوجهان نحو رصيف الميناء.

فسأل: "أظن أنه سيجد العدد الكافي من الرجال لمساعدته؟".

أوماً مايكروفت: "عادة، يمكن أن تجد عدداً كافياً من الرجال عند رصيف الميناء للقيام بأي شيء؛ بما في ذلك السيطرة على دولة صغيرة. وفي حالتنا هذه، لا يحتاج السيد ستون لأكثر من خمسة أو ستة رجال يعتمد عليهم، ولا يخشون التورط في عراك. وهو لن يجد صعوبة في إيجادهم أو إيجاد ضعف عددهم. ولكن المشكلة تكمن في تأكده من أنهم فهموا تعليماته وسيتبعونها. ولكنني أظن أنه سيتصرف وكأنه في دياره وبيئته هنا، وسيتكلم معهم بلغتهم". ارتسم تعبير حزين على وجهه؛ بالكاد استطاع شارلوك رؤيته: "إنني أظن أنه سيمتلك هذه القدرة، فكل ما أريده هو أن يجعلهم يطيعونه. وعندما يمدهم بالمال سينفذون أوامره ويطيعونه".

كانت العربة تقف على الطريق، وهي تقلهم إلى القلعة. وعندما اقتربوا من القلعة، أوماً مايكروفت إلى السيد غروي الذي كان يحدق إلى الخارج عبر نافذة العربة وقال له: "في الوقت الذي يكون فيه شارلوك يضع مستحضرات التجميل المستخدمة في المسارح في غرفته، ويبدأ عملية

تنكره على أنه السيد ألبانو، أريد منك أن تبدأ شجاراً بصوت عالٍ في القاعة، حيث يستطيع عملاء الطرف الثالث سماعنا".
"وماذا تريدني أن أقول؟".

"أريد منك أن تخبرني أنك أجريت اتفاقاً مستقلاً مع السيد ألبانو بالنيابة عن حكومة الولايات المتحدة، وأنه سيغادر برفقتك خلال وقت قصير. كما أريد منك أن تؤكد أن العربة والحوذي بانتظاركما في الخارج. ويجب أن تبدو محبطاً بعد كل هذا الصخب حول رحليكَ لأنني لم أدعك تغادر".

فسأله غروي: "سأخذ هذه النقطة بعين الاعتبار. وماذا بعد؟".
"بالطبع، سأحتج بصوت عالٍ، وأقول إنك لا تستطيع القيام باتفاق مع السيد ألبانو بمعزل عن الآخرين. وستجيبني أنه يموت السير شادراتش علق العمل بالاتفاق الأصلي الذي يفترض وجود مزايدة وأربعة مزايدين، وبمجرد موته قمت بترتيباتك الخاصة. وعندها تصرّف بجلافة".
"أنظن أن الحيلة ستنتظلي عليه أو عليهم؟".
"أجل".

ما إن دخلت العربة حرم القلعة، حتى أخذ شارلوك يبحث عن حقيبة مستحضرات التجميل التي تستعمل في المسرح، ويتأكد أنها لا تزال بحوزته.

فسأله مايكروفت: "هل تشعر بالسرور لأننا سنتركك تتنكر بمفردك؟".
أوماً شارلوك: "نعم، فبعد الفترة التي أمضيتها معك في موسكو، والتي فشلنا بها على نحو تام في معرفة عملاء بارادول تشامبر الذين كان يملأون قاعة الطعام بالرغم من مكوثنا معهم أياماً عدة، أمضيت بعض الوقت لاحقاً في فارنهام وأنا أتعلم تقنيات استعمال مستحضرات التجميل التي تستخدم في المسارح. فقد كان هناك مسرح في فارنهام، وقد اعتدت أن أقصده وأشاهد الممثلين وهم يضعون مستحضرات التجميل. وفي النهاية، علموني عدة أشياء حول كيفية استخدام المعجون والألوان ولواصق الشعر، وقد أصبحت جيداً في ما علموني إياه".

"وهل عرضوا عليك العمل معهم؟".
أجابه شارلوك مبتسماً: "لقد أدت دورين ثانويين في مسرحيتين، وقد استمتعت بالتجربة، وأنا مسرور بإعادتها مجدداً".

هز مايكروفت كتفيه ورد عليه: "حياة المسارح لا تليق بأحد أفراد آل هولمز. إن العمل المسرحي بوهيمي جداً، وأنا لا أزال أراك مصرفياً".

"لن أستمتع بالعمل المصري، ولكن يمكنني أن أبدو وكأنني مستمتع".
"حسناً، جوابك مضحك".

عبرت العربة الجسر المتحرك، ودخلت المنطقة المركزية من القلعة، وانعطفت نحو الأبواب الرئيسية. وعندها لاحظ شارلوك أنه يبذل قصارى جهده لقمع إحساسه بالتوتر. فقد بزغ في داخله شعور بأنه يضع نفسه في موقف بالغ الخطورة؛ فالتنكر بشخصية رجل تهتم لأمره عصابة إجرامية - وستكون مسرورة بالتخلص منه لتحقيق أهدافها الخاصة - لم يكن الأمر الذي فكر بالعودة إلى دياره من أجل القيام به؛ علماً أن هذا الأمر هو الذي كان يحدث دائماً.

لقد فكر في ما قاله شقيقه، حول أنه يراه في مهنة المصارف. في الحقيقة، وبصدق، لم يكن يرى أن ذلك ممكن الحدوث. فهو لا يريد أن يكون عاملاً في الخدمة المدنية كشقيقه، وبالتأكيد لا يريد أن يكون جندياً كوالده. ولكن، ما هي الخيارات الأخرى المتبقية؟ هل يعود إلى البحر؟ أم يعمل في التجارة ويستورد الأطعمة والحرير من الصين؟

وفجأة، فكر بأنه أمضى الأيام القليلة الماضية في إيجاد حلول لسلسلة من المشاكل، وكان سعيداً بما يقوم به. وقد كان هذا من الأمور الأكثر متعة التي قام بها في حياته. إنه يحب حل المعضلات؛ إذ إن قيامه بذلك يشعره برضى ذاتي. لقد أحب التعبير التي ظهرت على وجوه فون وبينو وهولتزينك والكونت شوفالوف عندما شرح لهم كيف تمت الخدع في الجلسة، كما أحب التعبير التي علت وجه أستاذه وشقيقه عندما قدم لهما العرض على المجسم الورقي. لقد شعر بالإثارة، وأحب هذا الشعور وأراد الشعور به مجدداً. ولكن المشكلة تكمن في أنه لا يعرف كيف يمكنه أن يدخل هذا الأمر في مهنته. فأقرب مهنة لهذا النمط من العمل هي الشرطة، ولكنه يكره اللباس الموحد، كما أن تجربة العمل مع الشرطة لن تكون بمثل هذا الغنى؛ فهي تقتصر على مسرح جريمة محدد، وتتمثل بقول أشياء محددة وواضحة سلفاً، وإلقاء القبض على بعض الأشخاص الذين تحوم حولهم الشبهات.

ترجل مايكروفت والسيد غروي من العربة، وتبعهما شارلوك حاملاً حقيبة مستحضرات التجميل التي تستخدم في المسارح. وفيما كان شقيقه يسير بخطوات وثيدة باتجاه القاعة، والسيد غروي يتكلم مع الحوذي، توجه هو نحو السلام.

قصد شارلوك غرفة السيد ألبانو فوراً، وتأكد من أن أحداً لم يره.

ولحسن الحظ، كان الممر فارغاً، فطرق على باب غرفة البانو.
أتاه صوت ألبانو من الداخل قائلاً: " قلت لك ارحل، لا نية لي
بالخروج ما لم أكن بحماية الشرطة " .

" أنا شارلوك هولمز، وأريد منك شيئاً " .
صمت ألبانو للحظات قبل أن يجيب: " يمكنك أن تطلب ما تريده،
شرط ألا تطلب مني فتح الباب للاستجابة لطلبك " .

" وهذه هي المشكلة؛ فأنا أريد أن أستعير إحدى بذلاتك وقبعتك " .
" ولأنفذ طلبك يفترض بي أن أفتح الباب، وهذا ما لن أفعله " .
عندها، فكر شارلوك بسرعة وقال: " يمكنك أن تحزم الثياب وتلقي بها
من النافذة. ويمكنني النزول والتقاط حزمة الثياب عندما ترميها " .
" ما تقوله معقول، ولكنني أريد أن أعرف لماذا تريد ثيابي؟ أشعر أن
هناك أمراً مشبوهاً، وأنا لا أحب الأشياء المشبوهة " .

أجابه شارلوك بصبر: " إنني لا أستطيع أن أخبرك الآن، ولكنني
أستطيع أن أؤكد لك أن ما أقوم به يهدف إلى حمايتك " . وتوقف قليلاً
قبل أن يتابع: " إنه نوع من تشتيت الانتباه والتوجيه الخاطئ " .

بدا على ألبانو أنه يفكر في ما قاله شارلوك قبل أن يجيبه: " حسناً،
سأرمي لك حزمة الثياب؛ فأنت سريع البديهة ورشيق الأصابع ولديك قابلية
طبيعية لتأدية ألعاب الخفة. أستطيع أن أرى أنك ستصبح لاعب خفة مهماً
ذات يوم. حسناً، سأعيرك بذلتي وقبعتي وأنتظر النتائج باهتمام. ستعود
لتخبرني بما حصل معك وما أنجزته، أليس كذلك؟ " .

أجابه شارلوك: " أعدك أنني سأخبرك. ولكن، امنحني الآن خمس دقائق
ريثما أنزل السلام، وبعدها افتح النافذة وشاهدني " .

سارت الأمور بسلاسة، وخرج شارلوك من القلعة، وانتظر على العشب
ريثما تفتح النافذة في الأعلى، ثم أوماً إلى ألبانو كي ينتظر قليلاً لتتاح له
فرصة التأكد من أنه ما من أحد في جهتي اليسار أو اليمين، ثم أشار له
برمي حزمة الثياب والقبعة، وهذا ما حدث. سقطت الحزمة بين ذراعيه،
وكانت ملفوفة بحزام. حينها، لوح شارلوك له شاكرًا، وسمع صوت إغلاق
النافذة أعلاه.

كان هناك شيء ما في داخله يرغب في أن يخبره بأنه اكتشف
الطريقة التي نفذت فيها حيلة اللوحات، ولكنه كان يعلم أن قيامه بذلك
فكرة سيئة. ففي الحقيقة، هو متأكد من أنه ما من أحد شاهده وهو
يأخذ حزمة الملابس، ولكنه ليس متأكدًا من عدم وجود شخص ما في

مكان ما يسترق السمع، ويمكن لمسترق السمع في حال وجوده أن يدمر المخطط الذي وضعه شقيقه. لهذا، إن المعلومات التي تفيد بأن الجلسة الثالثة لإقامة الدليل على قدرات ألبانو كانت زائفة كسابقتيها يجب أن تبقى طي الكتمان.

عاد شارلوك أدراجه إلى داخل القلعة قاصداً غرفته.

وما إن دخل غرفته حتى أوصد الباب وأقفله بالمفتاح، وأخذ يتنكر بشخصية ألبانو. في البداية، قام بطلاء طبقة بيضاء من مستحضرات التأسيس التجميلية على بشرته، ثم استعمل الفرشاة لدهن وجهه بمسحوق آخر يجعل البشرة أكثر بياضاً أو بالأحرى أكثر شحوباً، ثم استعمل النهاية الأخرى من الفرشاة كي يصنع مجموعة من البثور الشبيهة بأثر حبوب الجدري. في الحقيقة، لقد ساعده وجهه النحيل كي يبدو شبيهاً بألبانو، ثم قام بوضع نوع من اللبادات بين لثته وشفتيه لكي يبعد شفتيه عن أسنانه، ولكي تبدو قواطعه شبيهة بقواطع الحصان كما هي حال ألبانو، وقام بحشو منخريه بمادة مرنة؛ كي يوسعهما ويبدوا كمنخري ألبانو. بعدها، قام باختيار شعر مستعار من الحقيبة. لقد اختار شعراً قريباً من شعر ألبانو من حيث الطول واللون والتموج، ثم دهن الشعر المستعار بمادة دهنية، وقام بتسريحه إلى الخلف، فبدأ أملس. وعندما تفحص النتيجة عبر المرآة، لم تكن سيئة. كانت المشكلة الوحيدة أن لون حاجبيه داكن أكثر من لون الشعر المستعار؛ لذا قام بتغطية الحاجبين ببعض الشعيرات التي اقتطعها من الشعر المستعار، وقام بلصقها بواسطة لاصق الشعر. لو كان سيستمر بتنكره لفترة أطول أو سينظر إليه من مسافة قريبة، فلربما قص شعره وحلق حاجبيه، وذلك بهدف إحداث تأثير واهم أكبر، ولكنه بحالته هذه يبدو شبيهاً بألبانو بما يكفي؛ طالما أنه لن ينظر إليه أحد عن قرب.

بعدها، استبدل ملابس ألبانو بملابسه. كانت البذلة كبيرة نوعاً ما، ولكنه لم يبدُ وكأنه يلبس بذلة والده.

كان آخر شيء قام به هو جلب قطعة من المعجون من الحقيبة، وجعلها على شكل كرة مقعرة؛ كما لو أنها نصف كرة أجوف، ثم طلاها بمستحضرات التجميل ذات الألوان البراقة جداً والتي تستخدم عادة على الشخصيات التي تؤدي أدواراً شرقية، وقام بتلوين محيط نصف الكرة أيضاً. عندما أنهى عمله، شعر بالرضى لدى تأمله ما أنجزته يداه. عندها، أغمض عينه اليسرى، وقام بضغط نصف الكرة الملون على جفنه، وثبته.

لقد أصبح الآن يبدو شبيهاً بالسيد ألبانو؛ لا سيما في ما يتعلق

بالياب والعين. على الأقل من بعيد.

وبينما كان يعتمر القبعة، سمع صوت طرق على الباب.

فسأل: " من الطارق؟ " .

" أميوس غروي. لقد أنهيت وشقيقك كل الأمور التي اتفقنا عليها بشأن المشاجرة، وهو يتكلم الآن مع سائر الممثلين في غرفة الطعام عن الخرق الذي قمت به، وبالتالي يمكنك النزول الآن والخروج من دون أن يتمكن أي كان من إلقاء نظرة عليك عن قرب. هل أنت جاهز؟ " .

تمتم شارلوك: " لم أكن في حياتي جاهزاً أكثر مما أنا عليه الآن " .
وتوجه نحو الباب وفتحه.

نظر إليه السيد غروي وتفحصه من الأعلى إلى الأسفل ثم قال له: " إنني لست خبيراً في الحكم على الأمور المسرحية، ولكنني لو رأيتك على المسرح لما استطعت تمييزك عن ألبانو " .

ثم نزلا عبر المصعد، فهذا الخيار يخفض احتمال مصادفتها أحداً على الدرج. وعندما أصبحت في الأسفل، دفعه السيد غروي بشدة ناحية الباب، وشاهد شارلوك العربة التي كانت تنتظرهما في الخارج. وعندما وصلا إلى الباب، سمع شارلوك شقيقه يصرخ: " إنهما يذهبان، اليانكي الأحمر يأخذ السيد ألبانو! " .

غمغم غروي قائلاً: " اصعد إلى متن العربة بسرعة قبل أن يتمكن أي منهم من رؤية أي شيء عدا ظهرك " .

صعد شارلوك، وجلس على المقعد الخلفي، ورفع قبعته عن رأسه، ووضعها أمام وجهه، ثم صعد غروي وجلس بجانبه. بطرف عينه، تمكن شارلوك من مشاهدة مجموعة من الناس المتحلقين عند باب القلعة، ولكنه لم يجرؤ على الالتفات والتدقيق خشية أن يدقق أحدهم في ملامح وجهه.

خاطب السيد غروي الحوذي قائلاً: " انطلق " . وبينما كان هذا الأخير ينهال بالسوط على رأس الحصان، ارتجت العربة قبل أن تنطلق، وشعر شارلوك بنفسه يندفع إلى الخلف على المقعد الوثير، وتمكن من سماع صراخ في مكان ما خلفهم. ولكنه كان مهتماً بما سيحدث لاحقاً في مكان ما بعد بضع دقائق، في مكان ما في طريقهم إلى غالاوي؛ حيث ستعرض العربة للهجوم في محاولة لاختطافه من قبل العصاة التي حضّرها ستون في غضون الساعتين الماضيتين.

اقتربت العربة من بوابات القلعة، واستعد شارلوك لانعطاف العربة المفاجئ نحو اليمين، ولكنها انعطفت نحو اليسار. كان شارلوك ينتظر انعطافاً

بالاتجاه المعاكس، لذا شعر بنفسه ينزلق جانباً، وحصل الأمر عينه مع غروي. وما إن أتمت العربة انعطافتها حتى نظر شارلوك من نافذتها إلى يمينه؛ إلى الطريق، فشاهد عربة أخرى شبيهة بالعربة التي ركبها متوقفة خلف الأسوار، وكانت تباشر تحركها بالاتجاه الآخر. عندها، صرخ غروي بالحوذي قائلاً: " أنت، لقد سلكت الطريق الخاطئ " .

إلا أن الحوذي تجاهله، وزاد من سرعة العربة. أمسك غروي مقبض الباب وحاول فتحه، ولكنه لم يستطع، وكذلك الأمر بالنسبة إلى شارلوك.

حينها، سأله وهو منقطع الأنفاس: " هل شاهدت العربة الأخرى؟ " . فقال غروي باقتضاب: " اللعنة، لقد خطفنا. لقد قاموا بتبديل العربة، كان يفترض بي التأكد من وجه الحوذي " .

عندها قال شارلوك: " ربما كان الحوذي نفسه، ربما دفعوا له مالاً أكثر مما دفعنا له، وبالتالي فهو يعمل وفقاً لما يريدونه " .

أجابه غروي وهو يهز رأسه: " كلا. ربما دفعوا للحوذي، ولكن العربة التي نحن على متنها ليست عربتنا، فقد كان يفترض بنا الصعود على متن العربة التي كانت متوقفة خلف الأسوار. بهذه الطريقة، عندما تصل العربة إلى غالوي ستبدو القصة غامضة؛ حيث سيقسم الحوذي إنه أقلنا، وستقسم جماعة ستون إن الأمر برمته مر من دون مشاكل " . عندها، قال شارلوك بوجه كالح: " وهكذا سيختفي السيد ألبانو " .

أجابه غروي قائلاً: " أياً يكن من يختطفنا، فما من شك في أنه يمتلك حساً فكاهياً " . إلا أن وجه غروي لم يكن يظهر أي شيء يدل على أنه مستمتع بما يحدث. " إنهم يكررون الخدعة التي نفذها كوينتلان وألبانو والمتعلقة باختفاء ذلك الأخير " . عندها، وقف غروي وأوماً بيده لشارلوك كي يقف أيضاً. حاول شارلوك التمسك بسقف العربة كي يحافظ على استقامته، بينما كان غروي يمزق المقعد الوثير على أمل أن يجد ألواحاً ويقتلعها مما سيتيح لهما مخرجاً من الجهة الخلفية للعربة. فكر شارلوك في أن القفز من عربة تسير بهذه السرعة ليس بالأمر الحكيم، فرما سينتهي بهما الأمر محطمي العظام إن قفزا بالشكل أو التوقيت غير الصحيح.

نظر شارلوك من نافذة العربة، إلا أنه لم يستطع أن يشاهد سوى الأشجار والأكمات التي كانت العربة تعبر بالقرب منها مسرعة. لكم السيد غروي باب العربة محبطاً وقال: " لن يجدي ما أقوم به

نفعاً " .

فجأة، توقفت العربة، فاندفع شارلوك والسيد غروي إلى الأمام. ثم فتح الباب؛ إلا أنه لم يظهر أحد رغم مرور بضع لحظات. عندها قال غروي: " أنا لست شخصاً يحب الانتظار ". فتنهّد شارلوك وتبعه.

كانت العربة متوقفة في منطقة خالية، تحيط بها الأشجار والنباتات. واستطاع شارلوك أن يشم رائحة الملح النفاذة، وسمع هدير الأمواج. كان هناك عشرة رجال يحيطون بالعربة، ولكن الاثنين اللذين كانا يقفان في الأمام هما اللذان حازا على اهتمام شارلوك وانتباهه، وقد شعر عندما شاهدهما وكأن فمه قد فغر من شدة الصدمة.

عندها، قال أحدهم بصوت رفيع هامساً: " شكراً لكما أيها السيدان لانضمامكما إلينا ". وهذا ما جعل شعر رأس شارلوك يقف.

عندها، سأل غروي: " هل تريد أن تعرفني إلى صديقك؟ " .

أجابه شارلوك بنبرة صوت قريبة من نبرة الرجل الذي يتكلم: " أميوس غروي، يمكنني أن أعرفك إلى البارون موبرتس. إنه يعمل لصالح بارادول تشامبر " .

الفصل الخامس عشر

بدا البارون موبرتس أكثر هشاشة مما بدا عليه في آخر مرة رآه فيها، والتي كانت منذ سنتين؛ عندما كان يحاول تدمير الجيش البريطاني بالنحل القاتل. لقد بدا مربوطاً بالحبال؛ مما يتيح لخادمه تحريكه وكأنه دمىة. أياً يكن الأمر فهو في أرضه، ومحاط برجاله وحراسه، ويبدو كهيكل عظمي يرتدي بذلة عسكرية موحدة. لقد تمكن شارلوك بوضوح من رؤية برامجه ومعصميه المنتفخة؛ حيث كانت عظامه الرفيعة تلتقي. كانت الجديدة الذهبية التي يعلقها على الجهة الأمامية من بذلته للتزين بها أثخن من أصابعه. كما بدت شرايينه التي تعبر فروة رأسه دودية الشكل، وبدت بلونها الأرجواني مروعة على جلده الأبيض. كانت عيناه هما الشيء الوحيد الذي يشير إلى أنه لا يزال على قيد الحياة. كان من الممكن وصفه بأنه يمتلك أرواحاً عديدة. لقد نظر إلى شارلوك نظرة شخص مهووس بالكرهية، وهذا الأخير شعر بقوة فيزيائية تدفعه إلى الوراء. تحرك الرجال الذين كانوا يقفون مع موبرتس، وتحلقوا حول شارلوك وغروي، وكانوا جميعاً - باستثناء العملاق الذي يقف مباشرة خلف موبرتس - مسلحين بأسلحة تعود للقرون الوسطى؛ من سيوف وفؤوس كبيرة وبعض الرماح. بدا الأمر لشارلوك وكأنهم قطع طرق قاموا بالاستيلاء على مخزن الأسلحة القديمة الموجود في أحد أقبية القلعة.

كان شارلوك يعرف أن موبرتس غير قادر على الوقوف من دون مساعدة، ولكنه كان يقف من دون أي مظهر يدل على الدعم. حاول شارلوك أن يعرف ما الذي يبقيه واقفاً، وأخيراً اكتشف مصدوماً أنه محمول بما يشبه المقلع أو النقافة المرتبطة بجسد الرجل الذي يقف خلفه. كان الرجل الذي يقف خلفه طويلاً وعريضاً، ويمتلك عضلات كبيرة، ويرتدي ملابس رمادية بالية ذات لون متدرج. وكانت الحبال التي تربط موبرتس به من لون ثيابه، وكان يضع على رأسه قناعاً ينبثق منه ما يشبه القرنين عند الأذنين، ويوجد في القناع شقان يتيحان له الرؤية من خلالهما. كان الهدف من كل ذلك أن يبدو متلاشياً في الخلفية؛ كما لو أنه غير موجود على الإطلاق. وكان رأس موبرتس يصل إلى حدود صدر الرجل الذي يحركه وينقله.

كانت ذراعا موبرتس وساقاه مربوطة بذراعي الرجل العملاق وساقيه، فعندما كان العملاق يخطو إلى الأمام، كانت ساقا موبرتس تتحركان إلى

الأمم وكأنه هو الشخص الذي يتحرك بالفعل. وعندما رفع العملاق ذراعه،
بدا وكان موبرتس يشير باتجاه شارلوك.

أعلن موبرتس بصوت بالكاد يبدو أعلى من صوت النسيم، ولكنه كان
مفعماً بالغل والحقد: " أنت لست ألبانو . "

الآن، بدا واضحاً أن الحيلة قد فشلت، فقام شارلوك بنزع الأشياء
التي كان يتنكر بها وقال بهدوء: " صحيح، أنا لست ألبانو. وأنت وأنا
سبق لنا أن التقينا سابقاً . "

تغيرت ملامح موبرتس بغيظ وقال: " بالطبع، أنت الفتى شارلوك. كنت
على علم بوجودك في القلعة، وأنتك تتدخل في مخططات كوينتلان، وفضحت
حيله الواهية، ولكنني لم أكن أتوقع أن أجدك هنا بدلاً عن ألبانو. لم
أكن أتصور أنك على هذا القدر من الحماسة . "

عندها، أعلن غروي قائلاً: " كان يفترض بي أن أتوقع أن بارادول
تشامر متورطة في هذا الأمر السخيف ". كان يهدف بتدخله هذا أن
يستجلب انتباه موبرتس.

عندها، مدّ موبرتس شفته كعلامة على السخرية. لم يكن قد نظر إلى
غروي عندما قال: " أنت لا تملك مقداراً من الحصافة يخولك أن تفهم أو
تتوقع أي شيء. إنني أعرفك، أنت غروي. لقد حللت شخصيتك ودرستها
عندما مررت بطريقي في فارنهام قبل سنتين. إنني دائماً أدرس وأحلل
شخصيات أعدائي. إنني على علم بأسرارك وتاريخك منذ لحظة ولادتك إلى
اللحظة التي ستنتهي بها حياتك - والتي ستكون في غضون دقائق من
الآن - تلك الحياة التي لم تحقق فيها شيئاً. سيتفجع القليل من الناس
على رحيلك، وسيتذكرك عدد أقل من الناس بعد خمسين عاماً. ولكن اسم
موبرتس سيظل يذكر لقرون، وهذا ما سيحدث عندما - ".

شيء ما في شكل موبرتس جعل شارلوك يقيم رابطاً بين هذا الشكل
العملاق الواقف أمامه وشيء ما في ذهنه. تابع شارلوك هذا الأمر في
ذهنه، ورأى أن له أساساً متوارياً في ذاكرته.

عندها، أعلن شارلوك موقفاً ضجيج موبرتس: " الدارك بيست، أنت
الدارك بيست! ".

بدا له الأمر في غاية الوضوح وهو ينظر الآن إلى موبرتس المربوط
بذاك العملاق الضخم. لم يكن شارلوك متأكداً مما رآه الناس وأخبروا عنه
على مر السنين، ولكنه كان متأكداً كما لم يكن متأكداً يوماً من أن الذين
شاهدوا الدارك بيست مؤخراً لم يشاهدوا في الحقيقة سوى هذا الثنائي

الذي يقف أمامه الآن، والذي كان يتجول في الظلام أو الضباب أو الظلال في أرجاء القلعة.

عندها، أجابه موبرتس: " إنها أسطورة تافهة وغبية، ولكنها كانت تناسبني، وأبقت القرويين بعيدين عن استقصاء الحقيقة؛ وهذا ما منحني حرية الحركة في الأرجاء ". .

عندها، سأله غروي: " إلام كنت ترمي من حركتك هنا في كلون أرد كاسل؟ ". .

نقل موبرتس نظرتة المتفرسة من شارلوك نحو غروي. وعندها، خطأ الأميركي الضخم خطوة إلى الخلف عندما أحس بقوة إرادة موبرتس؛ مما أقلق شارلوك.

أجابه موبرتس: " ستموت من دون أن تعرف، وهذا أمر يسعدني. فأنا سأكسب من موتك ". .

عندها قال شارلوك: " في الواقع، كان يفترض بنا أن نعلم أن بارادول تشامبر هي المزايد السادس الخفي. لقد أجريت محادثات مع السير شادراتش، ماذا حدث فيها؟ هل كان محترماً جداً على طريقته؟ أم ظن أنه يمكنه أن يحصل على سعر أفضل لقاء خدمات ألبانو في المزايدة المفتوحة؟ ". .

فقال غروي: " ما لا أستطيع فهمه هو التالي: لماذا تريدون خدمات ألبانو؟ فالرجل بدا مخادعاً، وقد قام شارلوك بإثبات ذلك بالحجة التي لا تقبل الدحض ". . عندها، نظر ناحية شارلوك وتابع: " هل يمكن أن تفهم يا بني النظرية التي تكمن وراء تشبثهم بشخص ثبت أنه مخادع؟ هل يمكنك أن تعرف سبب سعي بارادول تشامبر وراء ألبانو بالرغم من أنه مخادع؟ ". .

لعدة أسباب، بدا أن الأميركي الضخم يريد أن يهدر الوقت ويبقى موبرتس مشغولاً بالحديث. في الحقيقة، كان شارلوك مسروراً بتبادل الحديث ما دام هذا الأمر بديلاً عن قيام موبرتس بقتلهما.

" إنني أعتقد أن ألبانو والسير كوينتلان شادراتش غشا بارادول تشامبر كما فعلا مع فون وينو وهولتزنبرك ". .

فأوماً غروي: " ولكنهما لم ينالا مبتغاهما مع الكونت شوفالوف؛ فهو ذكي، وكذلك حالهما مع شقيقك الذي بدا عليه أنه اكتشف اللعبة منذ البداية ". .

فرد عليه شارلوك: " هولتزنبرك وفون وينو أرادا أن يصدقا ". الخوف

جعل شارلوك يتكلم بسرعة، ولكنه حاول أن يجمع اندفاعته. كما أن السيد غروي كان يبطئ الأمر للسبب عينه، كان يريد أن يذهب بعيداً في مخططه؛ أياً يكن هذا المخطط: " إذا كنت أعلم شيئاً واحداً عن الحيل التي تحمل على الثقة بها فهو أن الناس الذين يكونون مهيين لتصديقها سذج " .

هسهس موبرتس ورد عليه: " إن قدرات ألبانو حقيقية، وستكون في النهاية تحت تصرف بارادول تشامبر عندما نلقي القبض عليه، وسيخبرنا الموتى أسرارهم " .

ضحك غروي قائلاً: " هذا هو الهراء عينه. لقد أثبت الشاب شارلوك أن الأمر لا يعدو عن كونه خدعاً تافهة " .

فرد عليه موبرتس والغضب باد عليه: " صحيح ما قلته، ولكن هذا ينطبق على الجلستين الأولى والثانية فقط؛ فقد كان ألبانو يشعر بالوهن، ولم يكن الاعتماد على قدراته ممكناً، ولكن السير كوينتلان أصر بغباء على إجراء الجلستين كي لا يغادر المزايدون. ولكن الأمر مختلف في ما يتعلق بموضوع اللوحات؛ فهو صحيح بجلاء، وإلا كيف تمكن من معرفة اللوحة والاتجاه لو لم يكن على تواصل مع الأموات؟ " .

حديق شارلوك ناحية موبرتس، ولم يره مجرمًا مهووسًا، بل شاهد رجلاً بائسًا متألماً، وهو مستعد لأن يبدو ساذجاً إن كان هذا يحل مشاكله. وكما يمكن أن يكون هناك رجل ساذج، يمكن أن تكون هناك دولة ساذجة؛ وذلك إن تلقت نصيحة من ذلك الرجل الساذج. وتذكر شارلوك أن أحدهم وصف بارادول تشامبر بأنها دولة، ولكن من دون إقليم أو حدود. ويبدو أنها تسعى وراء نصيحة من ساذج؛ شأنها شأن الإمبرطورية الألمانية والإمبرطورية النمساوية - الهنغارية.

في هذه الأثناء، سأل شارلوك موبرتس بنعومة: " من فقدت؟ فمن الواضح بجلاء أنك لا تريد أن تصدق أنه مات؟ " .

فرد عليه غروي بنعومة أيضاً: " إنه لم يفقد شخصاً عزيزاً. انظر إليه، فهو بحد ذاته يتأرجح على حافة الموت، وسيموت في أي لحظة، وهو بحاجة ماسة إلى أن يصدق أن الموت ليس النهاية " .

عندها صرخ موبرتس: " الأمر ممكن، وقدرات ألبانو صحيحة " . في تلك اللحظة، خطا شارلوك خطوة إلى الأمام باتجاه موبرتس وسأله: " إذًا، لماذا قتلت السير شادراتش؟ " . كان حقاً يريد جواباً عن سؤاله. أتى السؤال على حين غرة ففاجأ موبرتس. وكانت عيناه من شدة

الغضب قادرتين على إشعال النار في غصينات جافة: " لقد اجتمعنا به في جناحه، وعرضنا عليه المال - كما عرضنا المال أيضاً على ألبانو - ولكنه أبى، فقد كان يريد من المال أكثر مما عرضنا. كان مقتل السير مصدر إزعاج، ولكن كان يفترض بأحدهما أن يموت؛ لذا لم يكن أمامنا خيار إلا الإبقاء على حياة ألبانو؛ فهو الذي يملك ما نريده ". .

قال شارلوك متوقفاً: " وحين وقف شادراتش ضد إرادتك قتلته ". لم يتفاجأ من وحشيته؛ لأنه كان يعرف ما قد تقدم عليه بارادول تشامبر في مثل هذه الحالات، ولكنه ذكر نفسه بأن موبرتس كان مجنوناً بوضوح، وإذا تعارضت رغباته مع رغبات بارادول تشامبر فسيسعى وراء تحقيق رغباته؛ حتى إن وضعت أهداف المنظمة في خطر.

في هذه الأثناء، طرح غروي السؤال التالي على موبرتس: " لماذا أخفيت جثته في أعلى البناء البرجي؟ ". .

عرف شارلوك أنه يعرف الجواب، ولكنه استمر بممارسة لعبة إضاعة الوقت؛ كي يبقي موبرتس مشغولاً لأطول مدة ممكنة. كان واضحاً بالنسبة إليه أنه ينتظر حدوث أمر ما. فقال بلا مبالاة: " الأمر بسيط، لم يكن موبرتس من أخفى الجثة في البناء. فهو لم يعر أي أهمية لاختفاء الجثة؛ فمن كان يهمله هو ألبانو، وقد قرر اختطافه بعد أن فشل في شراء خدماته ". .

فرد غروي ضاحكاً: " لا تقل لي إن الأرواح هي التي نقلته إلى أعلى البرج ". لكن ضحكة غروي بدت مصطنعة، فقد كان يعترها الكثير من التوتر.

فرد شارلوك: " لن أقول لك ذلك، بل سأقول إن كبيرة الخدم سيلمان هي التي قامت بذلك بمساعدة ألبانو. فهما اللذان كانا يعرفان كيفية تحرك البناء، فقاما بإخفاء الجثة بمساعدة الخدم، وكانا يهدفان من وراء ذلك إلى أن لا يتم اكتشاف الجثة قبل أن يجريا المزايدة. فرهما خشياً من أن تبحث نيف عن والدها في أرجاء القلعة عندما لا تجده في جناحه. فقد بدا لي في الصباح أن ألبانو يعلم شيئاً ما؛ إذ بدا منفعلاً ومتوتراً. وكان يريد أن تتم عملية المزايدة، وأن يغادر بعد ذلك بحماية القوة التي ستفوز بخدماته. وقد كان حظهما سيئاً بشكل لا يمكن وصفه عندما عثرت على الجثة صدفه ". .

فأجابه غروي: " هذا يفسر قضية مقتل السير شادراتش. ولكن، ماذا بشأن الخادمة التي أخبرني عنها؟ تلك التي وجدت ميتة، والتي كان تعبير

من الرعب يعلو وجهها " .
" لقد شاهدت شيئاً ما يتحرك في الأقبية؛ ربما كان البارون. وبما أن قلبها كان ضعيفاً، فلم تتحمل الخوف وسقطت صريعة. وقد نقلت من الأقبية لأن البارون ورجاله كانوا يتحركون فيها، ويستخدمونها قاعدة لهم. وبالطبع، فقدت حذاءها أثناء نقلها، ولكن لم ينتبه أحد للأمر أو يعره اهتماماً " .

فأجابه غروي: " ولكنك انتبهت " .
استجاب العملاق الذي كانت أطراف موبرتس مربوطة إليه لأمر خفي، وبدا أن رأس البارون يميل إلى إحدى الجهتين وقال: " أنت تزعم أن إقامة الدليل في الجلسة الثالثة كان خدعة أيضاً. حسناً، أثبت لي ذلك، وأخبرني كيف تمت الخدعة " .

فسأله شارلوك بسرعة: " إن أخبرتك، فهل ستتركنا حين؟ " .
فأجابه البارون بسرعة: " كلا. ولكنني سأقتلكما بسرعة بدلاً من أن أقتلكما ببطء. كنت أنوي قتلك منذ فترة طويلة، والآن حان وقت التنفيذ " .

حينها، أوجز له شارلوك كيف أن البرج يرتفع بتأثير المد، وكيف يمكن أن يكون أحد الخدم - وربما نيف - قد اختبأ داخله وشاهد اللوحة التي اختارها. صمت البارون موبرتس لدقيقة وربما لدقيقتين، مغمضاً عينيه. وكان شارلوك على وشك قول شيء ما عندما فتح البارون عينيه مجدداً، وخاطب شارلوك قائلاً: " أنت كاذب وتريد الظفر بخدمات ألبانو لصالح الإمبراطورية البريطانية، ولا تريده أن يعمل لصالح بارادول تشامبر، ولكنه سيفعل سواء أرضيت أم أبيت " .

بعد ذلك، سحبت يده اليد الكبيرة المرتبطة بها ورفعته، وأومات بها نحو الرجال الذين يحيطون بهم. عندها، صاح موبرتس: " اقتلوها، فقد أهدرا ما يكفي من وقتي " .

فسأله غروي: " ولكن، هل تعلم لماذا أهدرنا وقتك؟ " .

" بالطبع، كي تؤخرا الأمر الذي لا مفر منه " .

" بل لنؤخره حتى يحصل هذا " .

وقبل أن يتمكن شارلوك من التفاعل، انبثقت مجموعة من الرجال من خلف الشجيرات وطوقتهم. كانوا يرتدون سترات وسراويل خشنة، ويعتَمرون قبعات، ويلتحفون بالأوشحة. وكانوا يحملون العصي الثقيلة والمذاري، وهجموا على رجال بارادول تشامبر كما تهجم الذئاب على

الحملان. علت الصرخات؛ بعضها يعبر عن الغضب وبعضها عن الألم.
كان شارلوك على وشك أن يسأل عما يجري عندما شاهد رافس
ستون وسط الأشرار، وهو يرفع هراوته ويهوي بها بقوة على ذراع كانت
تحمل سيفاً، وشقت صرخة المكان، فيما انحنت الذراع بشكل غير طبيعي.

سأل شارلوك السيد غروي: " كيف عرفوا مكاننا؟ " .
فأجابه غروي: " لقد رأيت ماتي يجلس خلف العربة الأخرى. أعتقد
أن ستون طلب منه الاختباء هناك بينما تكون العربة في طريقها صعوداً
إلى القلعة. وعندما رأى أننا نذهب في الاتجاه المعاكس، أعتقد أنه أخبر
ستون بذلك. ولهذا السبب عمدت إلى إلهاء موبرتس بانتظار وصولهم إلى
هنا " .

" تفكير جيد " .

سقطت فأس بطول شارلوك تقريباً ويوجد رمح في أعلاها بالقرب منه
- لا بد أن رجال موبرتس قد قذفوها - فما كان من شارلوك إلا أن
رفعها مستعداً لاستعمالها ضد أي واحد من رجال موبرتس يكون بالقرب
منه.

ولكن، أين البارون؟!

لقد تحرك، أو إن العملاق الذي يحركه أبعدته عن المعركة. عندها،
ألقى شارلوك نظرة خاطفة على النباتات أمامه، وأسرع الخطى مطارداً إياه.
صاح غروي: " شارلوك عد؛ إنه لا يستحق عناء مطاردته، فقد انتهى
كل شيء الآن، ونحن نعرف أن بارادول تشامبر هي التي قتلت السير
شادراتش " .

فصاح شارلوك: " لن أعود أبداً قبل أن أقتله أو ألقى القبض عليه.
إنه يكرهني، ويريد قتلي " .
وفكر: إنه مجنون.

خلف إحدى الأجمات التي كانت نباتاتها تصل إلى رأس شارلوك، وجد
شارلوك نفسه عند حافة الجرف، فانزلق أرضاً كي يوقف اندفاعه قبل أن
يقع من أعلى الجرف. من مكانه، كان باستطاعته رؤية الزبد الذي يعلو
الأمواج في الأسفل البعيد، وكان بإمكانه أن يرى على مسافة لا بأس بها
إلى يساره سور كلون أرد كاسل.

غير أنه لم ير أثراً لموبرتس.

نظر شارلوك محبطاً وبسرعة في كل الاتجاهات. كان هناك ممر ضيق
على طول حافة الجرف، وكان باستطاعته أن يرى لعدة مئات من اليارات

في الاتجاهين؛ قبل أن ينحني الجرف. ولكنه لم يستطع أن يرى أي أثر لموبرتس، فتساءل عما إذا كان قد عاد إلى المنطقة التي تغطيها النباتات، وإن كان سينقض عليه من الخلف الآن.

التفت نحو الخلف، لكنه لم يجد أحداً على الأقل في المسافة القريبة منه. غير أنه كان لا يزال يستطيع سماع ضجيج المعركة خلفه. استدار شارلوك مجدداً وبشكل فطري ناحية الجرف، ثم توجه مباشرة نحو الحافة، وألقى نظرة إلى الأسفل.

كان هناك إفريز رفيع في الأسفل. نظر شارلوك حوله مرة أخرى، محاولاً إقناع نفسه أن ذلك أفضل شيء يمكنه القيام به، وما لبث أن تقدم وهو لا يزال يحمل الفأس الطويلة التي يوجد رمح في أعلاها. تناثرت الحصى تحت قدميه عندما خطا نزولاً ناحية الإفريز، وهبت الرياح باتجاه واجهة الجرف، فحاول أن يبعد نفسه. كان الممر ضيقاً؛ حيث بالكاد تمكن من النزول. وتعجب من كيفية تمكن موبرتس والرجل العملاق الذي يحركه من تدبر أمرهما هنا؛ هذا إن تدبرا أمرهما، وسلكا هذا المسلك أصلاً.

في هذه الأثناء، دفعته عصفه من الرياح بعيداً، فمدد نفسه على إحدى الصخور حتى تخف قوة الرياح، وتمسكت أصابع يده التي لا يحمل بها الفأس بالصدوع الناتئة والأعشاب الطويلة. لم يكن لديه خيار سوى التشبث، وإلا فسيسقط مئات الأقدام قبل أن تتلقفه الصخور في الأسفل. أحس بدقات قلبه تتسارع، وبالعرق يجد مسارات له على ظهره. بعد لحظات، أجبر نفسه على الوقوف مجدداً.

أصبح الإفريز ضيقاً جداً، حيث لم يعد عرضه يتجاوز الإنشات. في تلك اللحظات، لاحظ شارلوك وجود فجوة سوداء في سفح الجرف، لا بد أن موبرتس موجود داخلها. كان شارلوك يعلم أن البارون يعرف المنطقة هنا أكثر منه؛ فقد أمضى وقتاً طويلاً فيها.

تحرك شارلوك بحذر على طول الإفريز الضيق. كان صدره مسطحاً وملصقاً بالصخر، وكان يستطيع أن يشعر بأن جزءاً من كعبه خارج الإفريز، فيما كان يزلق قدماً تلو الأخرى عليه. بدت الصخرة أسفل قدمه اليسرى وكأنها تبتعد.

قفز شارلوك مرتبكاً وهو يدفع الفأس أمامه، قبل أن يستقر عند مدخل الكهف. اصطدمت كتفه بأرض الكهف، وعبر الألم من كتفه باتجاه ذراعه، ولكنه لم يهتم. فهو على الأقل قد سقط داخل الكهف، ولم يهو إلى

أسفل الجرف. وها هو بأمان؛ بأمان نسبي. نظر إلى الإفريز خلفه الذي تحطم وهو على بعد ست أقدام تقريباً. ربما حدث ذلك بسبب مرور العملاق وموبرتس، أو بسبب سنوات طويلة من التعرض للعوامل المناخية؛ مما أدى إلى تآكل الصخر فأصبح واهناً ولم يتحمل ثقل وزن شارلوك.

نظر شارلوك حوله بحذر. وبفضل أشعة الشمس الضئيلة التي كانت تدخل الكهف، تمكن من الرؤية لمسافة عدة عشرات من الأقدام في الداخل. وقد استطاع أن يرى آثاراً من القذارة الحديثة على الأرض؛ مما يشير إلى أن البارون قد مر حقاً من هنا، وهو يختبئ في مكان ما في الداخل المعتم.

كان شارلوك عازماً على اقتفاء أثره في الداخل.

استجمع شجاعته، وتقدم داخل الكهف فابتلعه الظلام. كان يسير بحذر وتأن، وكان يتفحص الأرض قبل كل خطوة يخطوها؛ خشية أن تقوده الأرض في الأسفل إلى هاوية، وخشية أن تطأ قدمه صخوراً حادة. كما كان يتلمس الصخور الحادة التي كانت إلى جانبه بأصابعه؛ كي يتأكد أنه لا يغفل عن أي ممرات أو منعطفات في أثناء تقدمه يمكن أن يختبئ بها البارون أو العملاق.

لامست نسمة أتت من مكان عميق في الكهف وجهه، فأدرك أنه يجب أن يكون هناك مخرج باتجاه السطح في مكان ما هنا، وإلا ما هبت هذه النسمة. استطاع أن يشم رائحة كريهة؛ كانت رائحة شيء ميت، ربما رائحة كائنات ماتت عبر السنين، ربما تغطي عظام المهربين الأرض وهو لا يستطيع رؤيتها بسبب الظلام الدامس.

تحطم شيء رفيع وهش تحت حذائه، فلعله أياً يكن، وقال في سره إنه ربما كان غصناً أو هيكلًا عظيمًا لطائر بحري. في مكان ما إلى الأمام، كان الكهف يرتبط بكهوف أخرى؛ تلك التي سبق له أن اكتشفها، والتي ترتبط بقاعدة البناء البرجي والأقبية في القلعة. ربما كانت كل كهوف الجرف متصلة ببعضها؛ كما لو أنها جحور أرانب أو قرية نمل تحت الأرض.

وهذا ما حمله على التفكير بأنه سوف يتجول فيها لأيام وربما لأسابيع قبل أن يموت من الجوع والعطش.

لكنه لم يلبث أن طرد تلك الأفكار من رأسه، وخاطب نفسه قائلاً إنه ما دامت هناك نسمة هبت فهذا يعني أن هناك مخرجاً، وأخذ يبحث

عنه. وكان يأمل أن لا تكون النسمة قد أتت من بين أحد الصدوع التي لا يتجاوز عرضها عرض كف يده.

في الأعلى، أحدث شيء ما صوتاً فتجمد شارلوك في مكانه، وأخذ قلبه يضرب بعنف في صدره، وأحس بأنفاسه تتوقف في حلقة. عادت به ذاكرته إلى ذلك الكلب الأمهق الأعمى الذي رآه في أحد مجاري موسكو. ولكن، أي نوع من الكائنات يمكن أن يكون هذا الذي أصدر الصوت هنا؟ أهو دب بري لم يرَ نور الشمس منذ أجيال وتأقلم على العيش في الظلام؟ أم إنه كائن أكثر خطورة لم يسبق أن رآه إنسان وأتيحت له الفرصة ليخبر عنه؟

أخذ شارلوك نفساً عميقاً، وفكر في أنه خائف من لا شيء؛ فالأمر لا يعدو عن كونه صوتاً.

ولكن شيئاً ما أو كائناً ما أصدر هذا الصوت. بعد دقائق من الصمت حاول خلالها السيطرة على أنفاسه وضربات قلبه، عاود شارلوك التحرك مجدداً. وأياً يكن هذا الصوت، فهو إما أن يكون وهماً وقد تلاشى أو حقيقة ويقبع مصدره في مكان ما في هذا الظلام الدامس منتظراً إياه. وأياً تكن التفسيرات، لم يكن لديه الكثير من الوقت ليفكر في الأمر؛ فعاود التحرك.

تقدم الإنشات التالية بأسرع ما يمكن، ولم يقفز عليه شيء. وكلما تقدم، كان يشعر بالاطمئنان يسري في جسده تدريجياً. اعتادت عيناه الآن على الظلام بشكل كامل.

كان الضوء يصبح أكثر شدة كلما تقدم. وكانت الظلال التي تنجم عنه على جدران الكهف تبدو وكأنها أصابع متشابكة. تقدم شارلوك إلى الأمام بحذر، ثم مدّ عنقه عند المنعطف لكي يرى ما يوجد هناك. بالطبع، كان هناك نفق آخر. ولكن هذا الأخير كان مضاء على الأقل بواسطة فانوس موضوع في قفص خشبي.

وعلى ضوء نور الفانوس، استطاع شارلوك أن يرى جسداً ملقى على الأرض. كان نحيفاً وملتفاً، ويبدو كهيكل عظمي لأحد المهربين، وقد مات منذ أمد بعيد وترك هنا كي يتعفن. كلا، إنها جثة موبرتس.

تقدم شارلوك بحذر خشية أن تكون في الأمر خدعة ما. ولكن، مع مرور الوقت الذي أمضاه في التحديق إلى الجثة الغريبة، كان واضحاً أن الجثة تعود للبارون موبرتس؛ فقد كانت الأربطة التي تربطه بالعملاق لا

تزال موجودة فوقه، وكانت عيناه مفتوحتين، ولكن قوة إرادته المجنونة قد فارقتة، وكل الطاقة التي أبقتة حياً انحسرت الآن، وها هو يبدو كحزمة من العصي التي رميت من دون مبالاة.

صرخ صوت عميق محدثاً صدى عبر النفق: " لقد مات بينما كنت أنقله. في البداية، لم ألاحظ أنه مات؛ فقد كان دائماً على بعد خطوة واحدة من الموت، إلا أن قوة إرادته كانت تسعفه دائماً. ربما استسلم قلبه، وربما هزته أكثر مما يجب بينما كنت أنقله فانكسر عنقه ومات. لا يمكننا الآن القول إلا أنه ارتاح، ويمكنني التفرغ لك " .

قال شارلوك بنعومة: " سيد كايت، لم يخطر ببالي أنك أنت من كنت تختبئ خلف القناع " .

الفصل السادس عشر

نظر شارلوك على طول النفق، فشاهد شكلاً يعيق الضوء القادم من الفانوس الآخر. بدا له كجلمود الصخر الذي يعيق تدفق المياه في المجرى؛ فتنبثق المياه من حوله. شاهد رجلاً ضخماً، ضخماً جداً. لم يستطع شارلوك رؤية وجهه، ولكنه استطاع تمييزه من صوته. إذ كان قد شاهده للمرة الأخيرة في محطة القطار عندما كان متجهاً إلى أدنبره منذ سنتين تقريباً، كما شاهده سابقاً عندما كان يقود عربة في موسكو. كان اسمه كاي، وكان أحد عملاء بارادول تشامبر.

قال كاي: "لقد ارتكب البارون خطأ بالاستماع إليك". وخطا إلى الأمام. كان الضوء الصادر من الفانوس إلى جانبه يضيء وجهه المتورد ولحيته الكبيرة. كان كاي قد نزع القناع والقبعة اللذين كانا يخفيان وجهه ولحيته ورماهما جانباً. كما رمى بذلته الرمادية التي كان يرتديها، وهو يرتدي الآن بنطالاً وقميصاً أسودين. وكان كما القميص مرفوعين إلى الأعلى، وهناك ما يشبه القيد الجلدي الذي يربطهما بساعديه، ويمتد إلى معصميه ومرفقيه. لقد بدت ذراعاها عملاقتين، ويدها كانتا بحجم رفس.

قال له شارلوك: "لا يفترض بك القيام بهذا". فأجابه: "بلى. يفترض بي القيام بما يجب أن أقوم به؛ فقد اعترضت سبيلنا مرات كثيرة أيها الشاب هولمز، وقد آن أوان الحساب". ضرب كاي معصميه ببعضهما، فانبثقت شفرتان من القيد الجلدي الذي يحيط بساعديه، وأصدرتا صوتاً.

امتدت الشفرتان إلى خارج نطاق يديه، وقام بتكوير كفيه على شكل قبضتين، وأحناهما كي يبعدهما عن مجال الشفرتين. وعبر الضوء المتسرب من الفانوس، بدت الشفرتان لامعتين وكأنهما مصنوعتان من الذهب. استجمع شارلوك قواه، حيث كانت ساقه اليمنى إلى الخلف وساقه اليسرى إلى الأمام، وحمل الفأس الطويلة التي يوجد رمح في نهايتها بكلتا يديه.

تقدّم كاي بسرعة ناحية شارلوك، وهو يلوح بالشفرتين أمامه في أثناء تقدمه.

خطا شارلوك خطوة إلى الوراء، ودفع بالفأس أمام وجه كاي، إلا أن هذا الأخير نحى رأسه جانباً متجنباً الطعنة، واستمر بالتقدم؛ مستخدماً الشفرتين كي يبعد الفأس من أمامه. في تلك الأثناء، ألقى شارلوك بنفسه في

الاتجاه المعاكس، وضغط نفسه على حائط النفق، فيما كان كايث لا يزال مستمراً بتهديده القاتل. عندها، لوّح شارلوك بالفأس الطويلة المنتهية بالرمح، وحاول طعن كايث بين ساقيه، فتعثرت إلى الأمام، وكاد يفقد توازنه. سحب شارلوك الفأس إلى الخلف، وحاول طعنه مجدداً، ولكن بالرغم من حجم كايث الكبير فقد تمكّن من القيام بحركة بهلوانية أبعدته عدة أقدام عن مرمى طعنات شارلوك. والتف مزمجراً، واندفع صوب شارلوك وهو يحمل الشفرتين أمامه مباشرة؛ فبدتا وكأنهما قرنا ثور هائج.

حمل شارلوك بيأس الفأس بكلتا يديه محاولاً أن يضرب الشفرتين بشكل مستعرض من جهة كتفه اليمنى نزولاً باتجاه ركبته اليسرى، إلا أن كايث ارتد إلى الخلف متفادياً الانشطار نتيجة الحركة المنجلية التي نفذها شارلوك. مجدداً، وجّه شارلوك ضربة بالفأس باتجاه كايث محاولاً أن يفقده توازنه، إلا أن الأخير تفادى الضربة بانحنائه يميناً ويساراً. واستطاعت الشفرة المربوطة بساعده الأيمن الانزلاق أسفل الرمح الذي يعلو الفأس، وتابعت طريقها وشقت قميص شارلوك، ورسمت خطأً على أضلعه أشعره باللهيب، وخبمن أن هذا الألم يمكن أن يكون شبيهاً بسكرات الموت.

أحس شارلوك بالدم يسيل من الجرح. وعندما كان يتراجع مبتعداً، وهو يكشط ظهره بحائط النفق، التوت شفتا كايث من شدة الغضب، وبدت عيناه مفعمتين بالكراهية كعيني البارون موبرتس، ولكنهما لم تبدوا مهتمتين بالتكلم كما كانت حال عيني موبرتس، بل كانتا تواقتين لفصل رأس شارلوك عن جسده. تراجع كايث إلى الخلف، وحاول أن يستقيم كي يبلغ أقصى طول يمكن أن يصل إليه جسده، وهوى على شارلوك بإحدى الشفرتين ثم بالثانية؛ كما يوجه الملاكم اللكمات لغريمه. ولكن كايث استبدل اللكمات بالشفرتين، فتراجع شارلوك بيأس متفادياً الشفرات بالفأس، ومتمنياً لو أن القدر قد منحه شيئاً آخر غير هذا السلاح الطويل وثقيل الوزن.

ارتطمت قدما شارلوك بنتوء صخري بارز من أرض النفق، فتعثرت إلى الخلف. وبلمح البصر، أصبح كايث بالقرب منه، وهو يمد ذراعه اليمنى كالرمح، فتدحرج شارلوك على جانبه، فيما ومض النور المنعكس عن الشفرة عندما ارتطمت بالصخرة بالقرب منه. وقبل ثوانٍ من أن يصبح تحت كايث، تحرك على قدميه ورجليه، وكان بطريقة ما لا يزال يحمل الفأس. سمع صوت قعقعة شفرة كايث وهي تحاول طعنه المرة تلو الأخرى، ولكنها كانت تخطئه، فيما كان ينتفض قافزاً من مكان إلى آخر.

وفي أثناء إلقاءه نظرة خاطفة من فوق كتفه؛ كي يتأكد من أنه لن

يتعثر بشيء يوقف عملية فراره من الطعنات، لاحظ شارلوك أن الفانوس أصبح خلف الصورة الظلية لكايث. وقد كان هذا الفانوس كسابقه موجوداً داخل قفص قديم. وقبل أن يفكر بأي شيء آخر، أمسك شارلوك بالفأس التي تنتهي برمح ورفعها فوق جسده، ودفعها بقوة باتجاه كايث.

قفز العملاق إلى الخلف، ولكن الوقت كان قد تأخر كثيراً كي يتمكن من النيل من شارلوك. وبدلاً من ذلك، انسحق الفانوس المعلق على الحائط تحت ثقل العملاق المتراجع، وتناثر الزيت الذي كان فيه على جسده، وامتدت النيران من الفتيلة إلى قميص العملاق؛ فشببت فيه النيران.

لقد شبت ألسنة اللهب في صدر كايث ولحيته، وتمكن شارلوك من سماع صوت طقطقة شعر العملاق وهو يحترق، وانتشرت رائحة كريهة في النفق. حاول كايث إطفاء النار بيديه، ولكن الشفرتين حالتا دون ذلك؛ فقد كانتا قريبتين من عينيه، وتشكلان خطراً على حياته. وشاء القدر أن يعمي بصيرته عن ضرورة رميها والتمرغ أرضاً على القذارة التي تغطي أرض النفق لإطفاء النيران.

أسرع شارلوك الخطى باتجاه مدخل النفق، وهو يدفع قدميه بكل ما أوتي من قوة. وبدت الفأس التي يحملها ثقيلة كما لم تبدُ من قبل، وبدأ أن ثقلها يشده إلى الأسفل، ولكنه لم يكن يريد التخلي عنها الآن. كانت الفوانيس المعلقة بالكلابات على الجدران تنير طريقه. ربما أشعلها رجال موبرتس كي تنير طريقهم، وربما أشعلت من قبل المهربين الذين لا يزالون يستعملون الأنفاق. كان النفق كثير الانعطافات والالتواءات، وبدأ له أن المسافة التي لا تزال تفصله عن المخرج طويلة، وتخيل أنه يسمع وقع خطوات كايث خلفه، وهذا ما بعث الرعب في قلبه؛ فهو لم يكن يرغب بالتوقف والتأكد، كما لم يرغب بإلقاء نظرة إلى الخلف من فوق كتفه خشية أن يتعثر ويسقط أرضاً. فلو كان صحيحاً ما يتخيله، وإن تمكن كايث من إلقاء القبض عليه، فسيؤول مصيره إلى النهاية المحتومة التي لا مفر منها.

طبعاً، هذا إن صح ما كان يتخيله وكان كايث يتعقبه.

ظهرت فتحات داكنة في جدران النفق، وكانت عبارة عن كهوف تقود في اتجاهات أخرى أكثر عمقاً داخل الجرف، وربما باتجاه الشاطئ. كان شارلوك متعباً جداً، ولم يكن يرغب بمعرفة المكان الذي ستقوده إليه. كان لا يزال يشعر بالنسمة تلامس وجهه؛ بالرغم من أنه لا يزال يسير عبر النفق الرئيس. بدا له أن النفق سينتهي بحائط مقعر من الحجارة السوداء؛

كالذي رآه منذ أيام قليلة خلت، أو أنه سيجد بقعاً من الطحالب تنتشر عبر جدران النفق وأرضيته؛ وكأنها علامات على مرض رهيب. تابع شارلوك العدو، ولم يجد أنفاقاً أخرى تتفرع من جدران النفق، وافترض أنه يدور في حلقة مفرغة، وأنه سينتهي به المطاف من حيث بدأ، وأقلقه أن يكون كايث لا يزال في إثره على بعد ياردات قليلة، مصوباً شفرتيه إلى ظهره. أخيراً، تمكن من معرفة مكانه. فقد كان أمام جدار البناء البرجي المقعر المصنوع من حجارة الخفاف؛ ذلك الجدار الذي يخترق أرض حرم القلعة، ويصل إلى النفق. سبق له أن رأى الجانب الآخر من الجدار، أو بالأحرى الجهة الأخرى من البناء البرجي؛ لأن الجدار كان مقعراً عندما كان يكتشف الأقبية في أسفل القلعة. سمع شارلوك ضجيجاً خلفه، وكان ناجماً عن اصطدام شفرتي كايث بالجدران في أثناء ركضه، فقد كان يؤرجح يديه على نطاق واسع أثناء الركض. في الحقيقة، لم يكن هناك طريق للهروب أمام شارلوك، كما لم يكن باستطاعته التراجع؛ فقد كان كايث في الخلف.

تمكنت نظراته التي كانت تشي بما يشعر به من رعب من إيجاد شيء ما بدا وكأنه بقعة داكنة في أسفل جدار البناء البرجي. وكانت البقعة نصف مخفية تحت أرض النفق، وهي عبارة عن إحدى نوافذ البناء البرجي، وكانت أصغر من تلك التي شاهدها عندما تسلق البناء في الخارج. لقد كان البناء البرجي يغطس إن صح القول في الأرض، وهذا يعني أن أحدهم يقوم بتشغيله. وبسرعة، أدرك شارلوك ما يتعين عليه القيام به. كان شارلوك لا يزال يحمل الفأس التي تنتهي بالرمح، فأسرع الخطى باتجاه الجدار، وكان يتنفس وكأنه يستنشق النار بدلاً من الهواء. وتحت تأثير الوهم البصري الذي تسبب به التعب، بدت له النافذة التي تنخفض بعيدة، فدفح نفسه بأسرع ما يمكن نحوها، وكانت قدماه تصدران صوتاً مكتوماً على بقع الطحالب التي يدوسها ويعصرها وينزلق عليها. بدا له المشهد شبيهاً بالسباق الذي أجراه على السطح، فأخذ بشكل غير إرادي يحصي الثواني العشر التي منحتة إياها نيف سابقاً ليصل إلى الباب قبل أن تغلقه. وعندما وصل إلى الرقم ثمانية، كان حجم النافذة قد وصل إلى ثلث حجمها الطبيعي، فما كان منه إلا أن قفز وانزلق فوق الطحالب التي جعلته ينزلق بسرعة عبر النافذة. وكان شارلوك في تلك الأثناء لا يزال ممسكاً بالفأس التي تنتهي برمح، وكان يضعها أمام صدره، حيث كان الرمح باتجاه ركبته والجهة العريضة قريبة من وجهه على نحو خطير.

ونتيجة الانزلاق، تلقت كتفاه الصدمة الأولى، واندفع ظهره على الأرض. وبينما كان صدره ثم وركاه تعبر الفراغ، كاد البناء يطبق عليه ويقطعه إلى نصفين، إلا أنه تمسك بالحافة بكلتا يديه، وسحب نفسه بأسرع ما يمكن؛ بالرغم من الألم، فسقط بعد ذلك في الغرفة الدائرية الموجودة في البناء البرجي، واصطدم ظهره بالأرض بعنف؛ مما جعله يلتف حول نفسه مرتين أو ثلاث مرات. في النهاية، وجد نفسه يحرق بفجوة بالكاد تتيح لكلب العبور، وتوجد في أعلى الفجوة قبضة مثبتة بإحكام.

انزلقت شفرة حادة عبر الفراغ الباقي من النافذة، وتوجهت مباشرة ناحية عينه اليمنى، وتوقفت على بعد إنش منها. كانت اليد التي تدفع الشفرة يد كايت، وكانت تضرب من أعلى النافذة. تابع البناء البرجي انخفاضه، وتردد صوت صليل الشفرة وهي تتحطم وتسقط داخل الغرفة الدائرية بجوار شارلوك.

أصبح شارلوك الآن وحيداً في الظلام الدامس.

تذكر شارلوك أن المجموعة الأخرى من نوافذ البناء البرجي تقع مباشرة في زاوية قائمة في أعلى النافذة، وهذا يعني وجود مجموعة من الممرات عند الجانب. ولكن، في حال سلوكه الممر الخاطئ الذي تقود إليه إحدى النوافذ فقد يجد نفسه وجهاً لوجه أمام كايت. كما لم يرغب عن باله أن كايت قد يحاول الدخول عبر إحدى هذه النوافذ. إلا أن شارلوك تذكر على نحو مفاجئ وجود فجوة في أرضية كل غرفة تربطها بالغرفة أسفلها أو أعلاها، وقد سبق له أن تسلقها سابقاً عندما كان في طريقه لاكتشاف أعلى البناء البرجي ساعة عثوره على جثة السير كوينتلان شادراتش. وكان متيقناً أن كايت لن يستطيع المرور عبرها، لذا لم يهدر وقته، بل بدأ بالتحرك على الفور وبالبحث عنها.

إلى الأسفل.

وقبل أن تتاح له فرصة التفكير، وجد نفسه يتلمس الأرض غير المرئية أسفلها، بحثاً عن فجوة فيها. ولم يلبث أن وجدها، فرمى الفأس عبرها، وسمع صوت قعقعة على الأرض الحجرية في الأسفل، ثم جعل ساقيه تنزلقان، ونزل إلى الغرفة في الأسفل. وكرر الأمر عينه مرة تلو الأخرى.

كانت الغرفة الرابعة التي وصل إليها هي الأخيرة، فنزل إليها، وكانت خالية من أي فجوة في قعرها. واستغرق منه الأمر بعض الوقت قبل أن تلمح عيناه ضوءاً خافتاً يأتي من إحدى نافذتين. كان الضوء يعبر إحدى النافذتين باتجاه الأخرى. لقد وجد نفسه داخل كهف طبيعي دائري مضاء

بشعاع ضوء يمر بشكل مائل عبر صدع من الصخر عبر السطح. تسلق شارلوك خارج النافذة، فشاهد البناء البرجي يطفو فوق بحيرة تحت أرضية من المياه الراكدة. وكان شعاع ضوء الشمس ينعكس على سطح البحيرة، ويلقي ظلالاً متموجة من اللون الفيروزي على الصخر. كانت الفتحات عند مداخل الكهف الطبيعي مسدودة بأبواب خشبية سميكة. وبدا أن الأبواب ترفع وتنزل بواسطة حبال مخفية في سقف الكهف الطبيعي. وكانت هذه الأبواب هي السدود التي تحدث عنها نظرياً في السابق، والتي اعتقد أن المهريين كانوا يستخدمونها، والتي من خلال فتحها أو إغلاقها كانوا يتحكمون بالمياه التي تدخل أو تخرج من البحيرة. في هذه الأثناء، كانت أبواب عدة مرفوعة، وتمكن شارلوك من رؤية المياه تنسكب خارج البحيرة وراء الكهوف، وهذا يعني أنها تعود إلى البحر. يبدو أن أحدهم في الأعلى كان يعمل على إخفاض البناء البرجي، وقد تعجب شارلوك من هذا الأمر؛ خصوصاً وأن كوينتلان وموبرتس ميتان الآن، والأشرار من أتباع البارون يفترض بهم أن يكونوا رهن الاعتقال، وكايت هنا معه. فمن يا ترى يقوم بتحريك البناء البرجي؟

ألقي شارلوك نظرة متعجبة إلى حيث كان البناء البرجي يتحرك نزولاً عبر فجوة دائرية في سقف الكهف، والتي لم تكن تبعد سوى إنشات قليلة عن محيط البناء البرجي، وفكر بكيفية استحداث هذه الفجوة، وبالذقة التي استحدثت فيها، وفي أنه ربما لن يعرف كيفية حصول ذلك على الإطلاق. غير أنه لا يمكنه إلا أن يصفها بالأعجوبة الهندسية. وتعجب من العالم المخفي أسفل تراب إيرلندا وصخورها.

وقبل أن يندهش أكثر من العمل الجبار الذي أنتج هذا البناء البرجي، سقط شيء من أعلى النافذة، وصدم سطح البحيرة محدثاً طرطشة، وظهر السيد كايت الذي يبدو أنه لم ولن يستسلم، وهو يحاول المرور عبر الفجوات في أرضيات غرف البرج.

تراجع شارلوك الذي كان لا يزال يحمل الفأس إلى الوراء، وقبض عليها بكلتا يديه، ورفعها أمامه؛ كما لو أنها حاجز حماية من كايت. كان شارلوك متعباً ومستنزف القوة؛ فقد استخدم كل طاقته، وكان يعلم أنه لن يقوى على القتال مجدداً. ولكنه حدث نفسه بأنه لا بد من القتال؛ فإذا استسلم فسيموت، وإذا كان يريد رؤية فرجينيا وماتي وستون وشقيقه مايكروفت والسيد غروي فعليه أن يقاتل للنجاة بحياته بطريقة ما. عليه أن يجد الطاقة والقدرة على القتال.

عندها، شد كتفيه وقومهما، ورفع الفأس حيث أصبحت متوازية مع الأرض، وانتظر.

سمع شارلوك صوت طرطشة المياه في البحيرة، حيث كان السيد كايث يسبح باتجاه شارلوك الذي يقف على القاعدة المصنوعة من حجارة الخفاف. حجارة الخفاف! ملح شيء في ذهنه له علاقة بهذه الحجارة، ولم يدعه يغادر رأسه. الخفاف أقل كثافة من الماء. كان ممتناً للفجوات الدقيقة في الخفاف التي يستطيع الهواء المرور عبرها، وهذا ما يجعل من هذه الحجارة قادرة على الطفو؛ فهي هشّة وجافة، وهو لا يزال يحمل شظية منها في جيبه.

جافة وهشّة هذه هي.

كانت لديه ثوانٍ معدودة للتحرك قبل أن يبلغ السيد كايث حافة القاعدة.

التفت شارلوك حوله، وأمسك بالفأس التي تنتهي برمح، وقام بطعن الحجارة الخفافية بالرمح، فقام طرف الرمح باقتلاع شظية كبيرة من الخفاف، وترك ما يشبه النفق الصغير مكانه.

نظر أعلى كتفه بيأس، فقد ظهرت يد كبيرة عند حافة القاعدة، ثم ما لبثت أن ظهرت يد أخرى.

توقف هنيهة مستجمعاً قواه. لقد أحدث فجوة عميقة في حجر الخفاف، ومن حسن حظه أنها عميقة كفاية؛ إلا أنها لم تخترق الحجر من جهة إلى أخرى، ولو حدث هذا لكان قد تسبب بأضرار لا يريد لها. نظر مجدداً أعلى كتفه، وشاهد أعلى رأس السيد كايث ينبثق في أعلى القاعدة.

لم تكن أمام شارلوك سوى ثوانٍ.

أقحم شارلوك الرمح في الفجوة التي أحدثها، وقام بتثبيتته عند مستوى صدره، وقام بإحناء الطرف الآخر من الفأس مستعيناً بوزنه. بعدها، تحرك شارلوك ووقف أمام الفأس بمواجهة المكان الذي كان السيد كايث سيخرج منه من البحيرة، وأسند ظهره إلى الفأس.

لم يستغرق كل ما قام به سوى جزء من الثانية، وأصبح على أهبة الاستعداد لاستخدام سلاحه الفتاك ذاتي الصنع.

كان شارلوك ينتظر كايث وهو يرتجف. وكان ارتجافه يعود جزئياً لشعوره بالبرد، أما السبب الرئيس فكان الخوف.

سحب السيد كايث نفسه من المياه، وصعد باتجاه القاعدة، وقوم

وقفته، فبدا بطول دب. وكان شعره الأحمر المحروق يلتصق برأسه وكتفيه، وعيناه تومضان بلون أحمر.

سحب كايث الشفرة الباقية المربوطة بذراعه، ولكنه عندما نقر بسرعة على معصميه، نشط نابض ميكانيكي فيهما ودفح الشفرة إلى الأمام. عندها، تمتم السيد كايث قائلاً: " لقد سببت لنا مشاكل أكثر مما سببته لنا دول. ولكن الآن، لقد حان وقت نهايتك، ولا مفر لك منها. ما عليك يا شارلوك إلا أن تتقبل الموت " .

ما إن أتم قوله حتى اندفع باتجاه شارلوك، وكانت الشفرة ممتدة أمامه. فتح فمه وأصدر عواء قوياً، وبدا ذلك العواء وكأنه نظير لصرخة الحرب. بدا واضحاً أن كايث يريد أن يحشر شارلوك بينه وبين حائط البناء البرجي.

وقبل أن تلمس مقدمة الشفرة صدر شارلوك مباشرة، انخفض شارلوك باتجاه الأرض، وتدحرج إلى الوراى تحت الفأس التي كان قد ثبتها بشكل أفقي خلف ظهره.

ولما كان السيد كايث يندفع بسرعة ولا يمكن إيقافه، فقد تابع طريقه مباشرة باتجاه الفأس التي انخرست عميقاً في صدره. وقف شارلوك أمام السيد كايث مرتجفاً. فقد التوى رأسه، وكانت عيناه تحديقان ناحية شارلوك وهما مفعمتان بالغیظ والحقد. كما كانتا متفاجئتين مما أعده شارلوك على نحو غير منتظر، وقد بدا الحزن في نظراته.

عندها، قال شارلوك: " إن الشخص الوحيد الذي يحدد متى أموت هو أنا " .

فتح السيد كايث فمه لكي يرد عليه، ولكن كل ما خرج من فمه كان سيلاً من الدماء التي لطّخت لحيته الحمراء. يا لغرابة الحياة! قبل لحظة كان يضح بالحياة والنشاط، وبعد لحظة أصبح جثة هامدة؛ كتلة من اللحم لا حياة فيها.

لم يتمكن شارلوك من التحرك قبل مرور نصف ساعة، كما أن تسلقه غرف البناء البرجي المظلمة غرفة تلو الأخرى وطابقاً تلو الآخر استغرق أكثر من نصف ساعة أخرى. أخيراً، انفتحت إحدى النوافذ على الهواء المنعش وأشعة الشمس البراقة، فتسلق نحو الخارج وهو ينظر إلى المشهد الطبيعي الإيرلندي الأخضر الزاهي. وما إن أصبح في الخارج حتى وجد مايكروفت وارفس ستون وماتي والسيد غروي وفرجينيا بانتظاره. خطت فرجينيا خطوة

إلى الأمام وهي تضع يدها على فمها، ولكنها توقفت.
عندها، قال مايكروفت: " لقد استغرقت وقتاً طويلاً ". بدت نبرة
صوته لاذعة، ولكن شارلوك تمكن من رؤية الاهتمام والراحة في عينيه: " هل
كان ذلك بسبب الوصول المفاجئ للسيد كاي؟ ".
عندها، أجابه شارلوك بضجر: " هل تعرف الطريقة التي يقوم بها
بعض الأشخاص بتجميع الفراشات وتعليقها على ألواح الورق المقوى؟ ".
" نعم، لماذا؟ ".

" لأنني أفكر في البدء بتجميع مجموعتي الخاصة ".
أوما غروي وقال: " من الواضح أن هناك قصة كاملة، وأنا أحد
الأشخاص المتشوقين لسماعها إلى مائدة الطعام ".
عندها، سأل شارلوك: " من الذي قام بتخفيض البناء البرجي؟ ".
أجابه مايكروفت: " إنها نيف. فعندما علمت أنك كنت داخل
الكهوف، وأن الإفريز قد تحطم خلفك، أدركت أن الطريق الوحيد للخروج
من الأسفل هو عبر نوافذ البناء البرجي ". توقف قبل أن يتابع: " إنها
تعلم كل شيء عن البناء البرجي، وعن كيفية عمله، وكانت جزءاً من
مخططات والدها أكثر مما كنا نظن، وكانت قلقة جداً على سلامتك ".
" ماذا حل بها؟ ".

هز مايكروفت كتفيه وقال: " كانت جزءاً من عملية أكبر من الخداع.
المسألة بأكملها من صلاحية السلطات الإيرلندية؛ بالرغم من أن إمبراطورين
وإمبرطورة ورئيس دولة مهتمون بالأمر. لكن ما قامت به نيف للحفاظ
على حياتك سيحسب لصالحها ".

عندها سأل شارلوك: " وماذا الآن؟ ". كان يعلم أنه يفترض به أن
يكون مسروراً لأنه لا يزال على قيد الحياة، ولكنه كان متعباً وحزيناً.
فسأله مايكروفت: " ماذا تريد أن يحدث الآن؟ ".

وبدل أن يجيب شقيقه، تقدم شارلوك نحو فرجينيا التي كانت تقف
وتأمله، وفتحت فمها لتتكلم، ولكنه وضع إصبعه على شفيتها ليحول دون
ذلك، ثم أبعدها، وتقدم منها وطوقها بذراعيه وقبلها.

وبعد مرور ثوانٍ أو دقائق لم يكن متأكداً، تراجع للخلف، وهدق إلى
ماتي الذي بدا التأثر على وجهه جلياً.
وقال: " دعونا نعود إلى الديار".

[1] الجزء الخارجي من سيتوبلازما الخلية.

[2] هراء.

[3] في النص الأجنبي نوع من اللعب على الألفاظ بين كلمة

حراشف وعبارة السلم الموسيقي اللتين تعنيان في اللغة الإنكليزية scale.
وهذا أفضل ما توصلت له من ترجمة في ما يتعلق بهذا الموضوع.